في طريق الأذى
من معاقل القاعـــدة إلى حواضن داعش
يسري فوده
دار الشروق

في طريق الأذى

في طريق الأذى

من معاقل القاعدة إلى حواضن داعش

يسري فوده

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الطبعـة الأولى ٢٠١٥

الطبعـة الثانيـة ٢٠١٥

الطبعـة الثالثـة ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: سياسة / صحافة استقصائية

٨ شـارع سيبويـه المصـري

مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

www.shorouk.com

رقـم الإيداع ٢٢٦٥٦/ ٢٠١٤

ISBN 978-977-09-3314-5

يسري فوده

في طريق الأذى

من معاقل القاعدة إلى حواضن داعش

دار الشروق

إلى أمي بين يدي الله ..

لكل دقةٍ من قلبها الصبوح شغفت عليّ،

ولكل فجرٍ دعت: «الله يحبّب فيك حصى الأراضي».

وأنا

في طريق الأذى

وإلى زملائي ..

هؤلاء منهم الشاخصين إلى المدى،

علّهم يعودون منه بحقيقة تنفع الناس وتنفعهم.

وهم

في طريق الأذى

محتويات الكتاب

شكر وتقدير

أرجو أن يسمح لي القارئ الكريم بتوجيه صادق الشكر والتقدير لكل من عاونني علـى إخراج هذا الكتـاب إلى الوجود، بدءً بقناة الجزيرة التـي منحتني فرصة لإضافة مدخل إلى صحافة التحقيقات الاستقصائية التلفزيونية بعيون عربية، ولا يغير من هذه الحقيقـة موقفي من توجهات القناة بعد ذلك، وانتهاءً بدار الشـروق التي أخذت على عاتقها نشر الكتاب وتوزيعه.

بينهما أود أن أسـجل عميق اعتزازي بزملاء المهنة الذين شاركوني لحظات الألم والأمل في أجواء محفوفة بالمخاطر على طريق الوصول إلى الحقيقة. مثلما أسـجل امتنانـي لهـؤلاء من «المصـادر الصحفية» الذين تقاطعت سـبلنا بسـبلهم وكان لكثير منهم علينا أفضال لا ننساها.

خالص الشكر يتوجه أيضًا في هذا المقام إلى كوكبة رائعة من أساتذة سبقونا على هـذا الـدرب وكانت تجاربهم في هـذا اللون من العمـل الصحفي نبراسًـا هاديًا حين عـزت الرؤية. وأخص منهم هذه المرة أسـتاذنا مارتن بل، كبير مراسـلي هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) سابقًا، صاحب التجربة الثرية في مواقع الخطر، الذي استطاع أن يقتحـم ميادين الأذى بثـوب أبيض وأن يخـرج منها بعد رصيد هائـل من الإنجاز بثوب أبيض.

ولقـد تعمـدت، من بيـن كل الخيـارات التي كانت متاحـة أمامي، أن أسـطو على عنـوان أحـد كتبه كي أتخذه عنوانًا لكتابي هذا بعد اسـتئذانه، اعتزازًا به وتكريمًا لأيام رائعة شـرفت أثناءها بالعمل إلى جواره تحت نيران القناصة في البوسـنة والهرسـك، بينما كان أهلوها في رعب وكنا نحن نشعر بالعار.

«لفترة من الزمن، عشنا معهم عيشتهم واقتسمنا معهم أخطارًا محدقة، ولكن فقط إلى حد ما؛ فقد كانت لدينا سـبل الهرب ولـم تكن لديهم، وكذلك سـبل الحماية. لقد كان هذا مصدرًا للشـعور بالخزي. كان القميـص الواقي من الرصاص رمزًا للحماية، لكنه كان رمزًا لـم أكن لأتطلع إليه»[1].

---

(١) Martin Bell, In Harm's Way: Reflections of a War Zone Thug, Hamish Hamilton - London 1995, Back Cover

مقدمـــة

١

«صباح الرابع عشـر من يونيو عام ٢٠٠٢، كانت قنـاة الجزيرة على موعد مع أكبر خبطـة صحفية في تاريخهـا عندما دخل فوده إلى مبناها فـي الدوحة محملًا بمفكرته وأسـراره التي بدأ يكشـف عنها. لم تكن شرائط لقائه بزعماء القاعدة قد وصلت بعد، لكنه كان قد بدأ يشعر بأن الوقت قد حان كي يُطلع رؤساءه في العمل على الأمر»[١].

ليســت هذه كلماتي، بـل هي كلمات الصحفـي والكاتب الأمريكـي الكبير، رون ساسـكيند، الفائـز بأهم جائزة صحفيـة في الولايـات المتحدة، المقرب مـن الدوائر السياسـية والأمنية في واشـنطن. اتسـعت عيناي دهشةً وشـغفًا وهما تلتهمان سطور كتابه، «مبدأ الواحد في المائة»، وهو يرسم بمعلومات استقاها، كما يقول، من مصادر المخابرات الأمريكية صورة دقيقة مثيرة لمنظور هام لمشـهد يخصني، مشهد من أهم المشاهد في حياتي.

دفعـت بـي الأقـدار دون إرادة منـي إلى أن أكون جـزءً من قصة ضخمـة كنت من الالتزام المهني الأخلاقي بحيث جلسـت عليها أربعة وخمسين يومًا بالتمام والكمال

(١) Ron Suskind, The One Percent Doctrine: Deep Inside America's Pursuit of its Enemies Since 9/11, Simon & Schuster 2006, P 138

دون أن أخبر روحًا فيما كانت المخابرات الأمريكية ومخابرات العالم كله تضرب أخماسًا في أسداس. لكنني أيضًا كنت من التواضع الإنساني بحيث أدركت أن ما كنت أستطيع أن أراه بعينيّ كان فقط جانبًا واحدًا من المشهد وأنه لابد أن للمشهد جوانب أخرى كثيرة معقدة. ما هي؟ ما طبيعتها؟ ومن أبطالها؟ كانت كلها وغيرها أسئلة مرجأة لا موقع لها الآن، وقد عدت قبل قليل بأول اعتراف مباشر لتنظيم القاعدة من أفواه العقول المدبرة، وشرح مستفيض لكيفية التخطيط لعملية الحادي عشر من سبتمبر .. بالتفاصيل، ذلك النوع من التفاصيل الذي يمكن اختبار صدقه بسهولة.

ماذا تفعل لو كنت مكاني؟ خارجًا للتو من أحد المنازل الآمنة لتنظيم القاعدة في مدينة كراتشي الباكستانية وفي جعبتي اعترافات رئيس اللجنة العسكرية للتنظيم، خالد شيخ محمد، والمنسق العام لعملية ١١ سبتمبر/ أيلول، رمزي بن الشيبة. الأمريكان في كل مكان في أفغانستان وفي باكستان. القاعدة مشردة كما لم تتشرد من قبل. لا أحد في قناة الجزيرة ولا في غيرها يعلم أين أنا ولا من قابلت. أسامة بن لادن وأيمن الظواهري تحت الأرض، والعالم كله في حالة مخاض. ثم فجأة ... في جعبتي، أنا العبد الفقير إلى الله، معلومات تساوي ٥٠ مليون دولار[١].

ماذا تفعل لو كنت مكاني؟ القنصلية الأمريكية في كراتشي على بعد خطوات. أم أنتظر حتى عودتي إلى لندن، محل إقامتي؟ أم أتصل بأحد ما في واشنطن؟ ... ٥٠ مليون دولار! حتى لو كان الأمريكان بخلاء ولن يوافقوا إلا على ١٠ ملايين، أو حتى خمسة، فلن أكون في حاجة إلى العمل بعد ذلك. أليس كذلك؟ .. من السهل الآن أن يتكئ المرء على مقعده ويقلب المسألة يمينًا وشمالًا من منطلق نظري بعد مرور نحو ثلاثة عشر عامًا. لكنني، وأنا أدرك ذلك، كنت أدرك أيضًا أن أمامي جيشًا من التحديات، على رأسها أن أتغلب على نفسي أنا أولًا حتى وأنا أعلم أنني حين أفعل ذلك سأُتهم بالمداراة على «إرهابيين» قتلوا ثلاثة آلاف إنسان في مشهد مروع قبل أشهر قليلة من تلك اللحظة.

(١) كان مكتب التحقيقات الفيدرالي قد أعلن في البداية عن مكافأة قدرها خمسة ملايين دولار للإرشاد عن خالد شيخ محمد، زادها بعد ذلك إلى خمسة وعشرين، وكذلك فعل مع رمزي بن الشيبة الذي كان أيضًا «مطلوبًا للعدالة» في ألمانيا.

وجوهر المسألة عندي كان - ولا يزال - واضحًا في بساطته، بسيطًا في وضوحه: أنني لم أخرج في غزوة عنترية لاصطياد القاعدة حتى يحق لي بعد ذلك أن أتصرف في «غنائم» ذلك الصيد. فالحقيقة أنهم هم الذين اتصلوا بي وهم الذين وجهوا لي دعوة وهم الذين تركوا لي حرية الاختيار. ومن ثم فإن قبولي دعوتهم، بغض النظر عما أظنه بهم أو بما فعلوا، لم يكن يعني سوى أنني سأحل ضيفًا عليهم في إطار مهني: هم لديهم ما يقولونه، وأنا لديّ أسئلة كنا جميعًا نبحث عن إجابة عنها. أما والأمر كذلك فإنني أحمد الله تعالى على أنه لم يساعدني فقط على هذا التحدي المبدئي، بل زادني قوة لمواجهة ما كان في انتظاري من تحديات أخرى.

٢

جوهر ما دار بيني وكبار المسئولين عن قناة الجزيرة آنئذ في الدوحة موجود بتفاصيله في موضع لاحق من هذا الكتاب، لكن الأمر استغرق أكثر من أربع سنوات قبل أن تتاح لي معرفة ما حدث من ورائي، أثناء وجودي في الدوحة وفي أعقاب عودتي إلى لندن، عندما نشر ساسكيند كتابه عام ٢٠٠٦.

يقول، نقلًا عن مصادر استخبارية، إن جورج تينيت، مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية (سي آي إيه) آنئذ، دخل في ذلك اليوم، الرابع عشر من يونيو ٢٠٠٦، إلى اجتماع الخامسة مساءً وهو يكاد ينفجر. أصر وهو يتخذ موضعه على طاولة الاجتماعات على تغيير جدول الأعمال وعلى أن يبدأ هو الحديث: «كما تعلمون، كانت لدينا خلافاتنا مع صديقي الأمير (يقصد أمير قطر آنئذ، الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني) .. ولكنه اليوم أعطانا هدية مذهلة»[1].

يستطرد ساسكيند قائلًا إن تينيت عرض التفاصيل التي بلغته من الأمير فيما يخص لقائي بالمسئولين عن قناة الجزيرة، وهو مستمتع فخور بما لديه، قبل أن يقول لمساعديه بطريقته التقليدية المعروفة عنه:

Ibid, P 139 (١)

«In other words, the fat f*** came through»(1).

لأسباب واضحة، لا داعي لترجمة هذه العبارة الأخيرة لكنها - إن صح إسنادها. - تكشف لكل حاكم عربي ولكل مسئول ولكل «متعاون» كيف في واقع الأمر يراه «أصدقاؤه» في واشنطن حتى وإن قدم كل ما يملك تقربًا إليهم. ذلك حتى في خضم حاجتهم إليه، فما بالك حين تنتهي صلاحيته؟ مثلما يكشف الأمر كله أن الحقيقة ظاهرة في يوم من الأيام مهما حاول أحدهم إخفاءها، ومهما اجتهد الأمير، وفقًا لما ورد في الكتاب، في استحلاف صديقه مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية أن يبقى الأمر سرًّا، على حد ما أورده ساسكيند نقلًا عن أحد المشاركين في ذلك الاجتماع: «نوقشت الشروط أثناء الاتصال الذي جمع تينيت بالأمير فيما يخص الكيفية التي ستتعامل بها وكالة الاستخبارات المركزية مع المعلومات .. لا أحد على الإطلاق -ولا حتى داخل إدارة الجزيرة - كان على علم بأن الأمير أقام ذلك الاتصال الهاتفي»(٢).

٣

ما الذي إذًا يمكن أن يكون الأمير قد نقله إلى تينيت فانتشى به هذا إلى ذلك الحد؟ بل إلى حد أن يقول رون ساسكيند في كتابه إنه «لدى تلك النقطة، كان لدى صحفي في قناة الجزيرة معلومات أثمن مما كان لدى أعظم دولة في العالم بكل قواها مجتمعة وبكل حلفائها»(٣).

بغض النظر عن موقفك من قناة الجزيرة الآن أو سابقًا، وبغض النظر عما تظنه بتنظيم القاعدة وبما فعله، وبغض النظر عن استغلال واشنطن لهذه المعجنة كذريعة

(١) Ibid, P 139

(٢) Ibid, P 139

(٣) Ibid, P 104

لتنفيذ أجندة مسبقة، فإن من واجبي، كي تكتمل الصورة أن أشير إلى مجموعة من الحقائق المهمة:

أولًا: لم يتضمن حديثي مع المسئولين في قناة الجزيرة في ذلك اليوم أي شيء لم يخرج في التحقيق المصور الذي أذيع بعد ذلك في جزأين، ببساطة، لأنه لم يكن لديّ أكثر منه. وحتى حين طُلب مني يومها أن أكتب ملخصًا لما حدث اعتذرت بصورة مهذبة وقلت إنني لا أكتب إلا نصوصًا صحفية لقارئ أو مشاهد.

ثانيًا: كان ذلك بعد عودتي من لقائي بالعقول المدبرة في كراتشي بأربعة وخمسين يومًا، كانت أكثر من كافية لمن قابلتهم من تنظيم القاعدة لتدارك ما يخصهم من احتياطات أمنية لا تخصني أنا ولا تعنيني، وإنما ما كان يخصني ويعنيني أن تبقى الأمور هادئة إلى أن أستكمل التصوير في أمريكا وألمانيا ومصر ولبنان والإمارات.

ثالثًا: لم أكن على يقين بأن أخبار لقائي بأعضاء تنظيم القاعدة ستتسرب لدى نقطة بعينها وحسب، بل إن خالد شيخ محمد نفسه كان يتوقع تسريبها فور انتهاء اللقاء، وهو ما يفسر لماذا اختاروا أن يقابلوني في منزل آمن، كان من الواضح أنهم لا يعيشون فيه. فأنت لا تدعو صحفيًّا على أمل ألا يبوح بما تصرح له به، اللهمَّ إلا إذا طلبت منه بشكل حاسم ألا يبوح بشيء ما واضح محدد، وقد حدث هذا فيما يخص تفصيلة أو اثنتين التزمت بهما حتى تجاوزهما الزمن ولم تعد لهما قيمة.

٤

لا توجد لديّ وسيلة لتأكيد ما ورد في كتاب ساسكيند أو لدحضه. يُسأل هو عن مصادره بقدر ما أُسأل أنا عن شهادتي أمام الله. لكنّ من المؤكد، إن صحت الرواية، أن لدى أمير قطر السابق دوافعه، مثلما أن لدينا نحن أيضًا ولكل طرف آخر دوافعه. ولا أدري من بعد ذلك إن كان ثمة علاقة بين هذا وما حدث في لندن بعد ذلك بأسابيع قليلة.

مـر علـيّ صيف ذلك العام، عـام ٢٠٠٢، بطيئًا متململًا وإن كان في الوقت نفسـه حـارًّا مليئًا بالترقب وأنا أجهـد في محاولة الوصول إلى شـرائط لقائي بأعضاء تنظيم القاعدة التي وعدوني بإرسالها إليّ قبل مغادرتي[1]. في تلك الأثناء، بينما كان يقضي عطلتـه الصيفية المعتادة في لندن، اتصل بي رئيس مجلس إدارة قناة الجزيرة، الشـيخ حمد بن ثامر آل ثاني، كي يدعوني إلى عشـاء في وسط العاصمة البريطانية، ولـم يكن ذلك خارج المألوف مما جمعنا من علاقة مهنية إنسانية وديَّة.

لكـنّ الـذي كان خـارج المألوف أنـه، لدى وصولي إلـى ذلك المطعـم الإيطالي المتواضع المتخصص في وجبات البيتزا في شارع جيمس (قرب شارع أوكسفورد)، لمحته قبل هبوطي من السيارة واقفًا بنفسه في انتظاري على باب المطعم. اصطحبني مرحبًا إلى ركن عميق منزوٍ من المطعم كي أفاجأ بطاولة يجلس إليها رجل ممتلئ البدن، كثيف الشعر، أملسه، أسوده إلى حد النصوع، يرتدي بدلة «اسبور» من الجينز الأزرق، وينهمك في تناول حسـاء المينيسـتروني الإيطالي المعروف. اسـتغرقني الأمر ثواني عدة وسط ابتساماتهما قبل أن أدرك أنني أمام أمير قطر، الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني.

كانـت هذه أول مرة أرى فيها الأمير فـي زيٍّ آخر غير الزي القطري التقليدي، كما كانـت أيضًـا أول مـرة أراه وجهًا لوجه فـي أي صورة. هو يفضل فرنسـا على بريطانيا لقضاء عطلة الصيف لكنه بعد ترحيب حار دعاني إلى الجلوس وقال إنه اضطر لقطع إجازتـه كي يراني ويشـد علـى يدي بعد ذلك السـبق الصحفـي. لـم يضيّع وقتًـا كثيرًا قبل الدخول إلى صلب الموضوع. «وين الشـرايط يا ريّال؟»، شـرحت له ملابسـات ما حدث وأن وسـطاء دخلوا على الخط ويحاولون الآن أن يسـاومونا للحصول على «تبرع» قبل توصيلها.

- «انزين .. أديش يعني؟».

= قال عايزين مليون دولار قال.

- «ونت إيش رأيك؟».

= طبعًا لأ يعني، قولًا واحدًا.

---

(١) ملابسات القصة كاملة في موضع لاحق من هذا الكتاب.

نظر الأمير إليّ في تلك اللحظة كأنه ينظر إلى ساذج غر.

●«مش أفضل ندفعلهم وناخد شرايطنا؟».

بدأ إحساس بعدم الارتياح يتسرب إليَّ، لكنني وضعت أمامه رؤيتي وخلاصة تقديري للموقف. فالمسألة لم تقتصر على كونها مسألة مبدأ وحسب، بل إن ثمة تحليلًا عمليًّا واقعيًّا يقودني إلى الاعتقاد بأن الشرائط ستصلني لا محالة وبأنهم سينالون عقابهم من جانب أولئك الذين التقيت بهم، إن عاجلًا أو آجلًا. والأهم من ذلك أنني افترضت أسوأ الاحتمالات وسأمضي في استكمال التحقيق على أي حال كما كان من الممكن أن يمضي في استكماله صحفي في جريدة.

لم يبد الرجل مقتنعًا بأي من هذه الحجج. كان كل ما يهمه الوصول إلى الشرائط مهما كلف الأمر، وكان إلحاحه ملفتًا للنظر. بوصولنا إلى هذه الفجوة، نظرت أنا بدوري إلى رئيس مجلس الإدارة ممازحًا: «أومال ليه بقى عمّالين تقولولي ما عندناش ميزانيات ما عندناش ميزانيات؟» لم أكن على علم وقتها بما أورده ساسكيند في كتابه بعد ذلك بأربع سنوات، و- مرة أخرى - لا أدري إن كان لما أورده أي علاقة بما دار في ذلك المطعم الإيطالي. لكنّ موقفي حينها هو موقفي في كل حين هو موقفي الآن.

٥

حتى بعد مرور نحو ثلاثة عشر عامًا لا تزال القصة في كثير من جوانبها تثير الجدل والفضول.

ففيما يخص الشارع العربي، لا يزال كثيرون يسألونني حتى اليوم إن كانت القاعدة حقًّا هي التي تقف وراء عمليات الحادي عشر من سبتمبر / أيلول. وإجابتي، من واقع ما أتيح لي من تجربة خاصة، لا تزال هي هي: ليس لديّ شك في أن تنظيم القاعدة هو الذي أراد ففكّر فخطط فجنّد فدرّب فموّل فأرسل فنسّق فمضى في تنفيذ ما أراد. ما حدث في ذلك اليوم نفسه، وفي السنوات القليلة التي سبقته في أمريكا، هو الذي يحتاج إلى مزيد من التحقيق.

وفيما يخص الجانب الأمريكي، يقع عبء تفسير بعض الظواهر المحيرة في ذلك اليوم على واشنطن، مثلما يقع عبء تفسير كثير من الملابسات الغامضة على مدى السنوات القليلة التي سبقت ذلك اليوم. وقد رصدنا ذلك كله في تحقيق موسع آخر بعد ذلك أذيع في أربعة أجزاء بعنوان «أجراس الخطر»(١). من الثابت الآن، وفقًا لمؤشرات كثيرة من أهمها رواية المسئول الأول عن مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض آنذاك، ريتشارد كلارك، أن أحدًا ما في واشنطن كان ينتظر ضربة من اليمين (القاعدة) كي يوجه هو ضربة إلى الشمال (العراق). اقرأ كتابه الرائع، «ضد كل الأعداء»(٢). وحتى اليوم لم تقدم الإدارة الأمريكية لمواطنيها وللعالم سوى تقرير مسيّس صدر عن لجنة مسيّسة، صيغ من أول سطر ببلاغة أدبية بعيدًا عن الحاسم من التقارير الأمنية، ومن ثم لم تحترم عقول مواطنيها ولا شغف العالم، ولم تجب عن الأسئلة العالقة(٣).

وفيما يخص تنظيم القاعدة، كان ذلك اليوم أوج وهجه الذي بدأ ينطفئ، إذ تشرد التنظيم من بعده وقُتل جانب من كبار قادته وألقي القبض على الجانب الآخر. من بين هؤلاء خالد شيخ محمد ورمزي بن الشيبة اللذان قابلتهما في كراتشي عام ٢٠٠٢. أصدر التنظيم لاحقًا بيانًا رسميًّا يبرئ ساحتي وساحة قناة الجزيرة من شبهة الإرشاد وسط مستنقع من محاولات الصيد في الماء العكر(٤). هما الآن في معتقل غوانتانامو، ومن الثابت أنهما - وخاصةً خالد شيخ محمد - تعرضا لتعذيب مبرح قبل الإعلان عام ٢٠٠٩ عن قرب إقامة محاكمة مدنية لهما، مع آخرين، في نيويورك. وقتها تلقيت طلبًا من وزارة العدل الأمريكية للشهادة أمام المحكمة فوافقت من حيث المبدأ طالما سيتاح لي أن ألتقي بالمتهمين. تهاوت إجراءات الاستعداد للمحاكمة المدنية بعد

---

(١) متاح لمن يريد على موقع «يوتيوب».

(٢) Richard Clarke, Against All Enemies: Inside America's War on Terror, Simon & Schuster UK Ltd 2004

(٣) The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States, W.W. Norton & Company, Inc.

(٤) نسخة من بيان القاعدة في موضع لاحق من هذا الكتاب.

اعتراضات قوية من أهالي القتلى ومن اليمين المتطرف ومن بلدية نيويورك. رفضت بعد ذلك بنحو ثلاث سنوات طلبًا للشهادة أمام المحكمة العسكرية التي تولت الأمور مرة أخرى بعد ذلك.

وفيما يخص قناة الجزيرة، فقد أتت نقطة التحول في مسيرتها المهنية، من وجهة نظري، بعد فترة وجيزة من قصة القاعدة، تحديدًا مع الغزوالأمريكي للعراق. وقد بدأ الأمر بذبح المدير العام للقناة، محمد جاسم العلي، الذي يشهد له الجميع بالكفاءة المهنية والإدارية، واستقدام من لا حيثية مهنية ولا إدارية له في مكانه، سوى أن له خلفية إسلامية وأنه كان مقربًا من بول بريمر، حاكم العراق بعد الغزو، وفقًا لما قاله لي مصدر أمريكي أثق به وأحتفظ باسمه حمايةً له. بدأت ما أسميها «مرحلة الاستثمار السياسي» للجزيرة، سواء من قيادة بلدها أومن دوائر أخرى، بعد أن كانت قد وصلت بعد سنواتها الأولى من التحديات الشاقة إلى مرحلة من النضوج، على أيدي مجموعة متميزة من الإعلاميين العرب من كافة المشارب والاتجاهات، وصار لها موقع غالب في الشارع العربي. حاول عدد من هؤلاء بطرق مختلفة التمسك بما كانت عليه الأمور لكنهم فشلوا فاستقالوا لأسباب ظاهرية متباينة، وكنت واحدًا من هؤلاء، متمنين التوفيق لأولئك من زملائنا الذين اختاروا البقاء في ظروف صعبة.

٦

هذه المساحة التي يمكن للعمل الصحفي الجاد أن يختلط فيها بما هو سياسي/ أمني/ إيديولوجي هي واحدة من أخطر التحديات التي يمكن أن يجد فيها صحفي نفسه عن قصد أوعن غير قصد. قصة الطريق إلى القاعدة وما أحاط بها من ملابسات في الجزء الأول من هذا الكتاب، أما في الجزء الثاني فقصة أخرى تقترب فيها أيضًا خطوط الصحافة الجادة بخطوط السياسة والأمن والإيديولوجيا.

ربما أكون الصحفي الوحيد في العالم الذي أتيحت له فرصة اللقاء بالعقول المدبرة لعملية الحادي عشر من سبتمبر، عندما قرر هؤلاء أن يتحدثوا للمرة الأولى - والأخيرة- قبل القبض على اثنين من أبرز أعضاء تنظيم القاعدة: خالد شيخ محمد

ورمزي بن الشيبة. ولكنني، من منظور مهني بحت، وبكل ما أوتيت من غرور، لست على تلك الدرجة من الفخر بهذه القصة، ولا أنا يؤرقني كثيرًا ما يظنه بها أناس مختلفون على أطراف مختلفة من الموضوع. لقد كان يمكنني ببساطة أن أعتذر عن عدم قبول دعوة القاعدة وكان يمكن لهم ببساطة أن يجدوا صحفيًّا آخر. انتهى الغرور.

ثمة قصة أخرى أسمح لنفسي سرًّا أن أفتخر بها قليلًا، قصة وعدت أمي - رحمها الله - ألا أكررها مرة أخرى، أو شيئًا من هذا القبيل، لا أذكر تمامًا!

على هامش رحلة العبور إلى المجهول سأحاول أن أصف كيف تشعر حين يقودك مهربون عبر حدود دولية في رحلة غامضة بدأت بدعوة أكثر غموضًا، ممن يُعتقد أنها أقوى جماعات المقاومة في العراق وأكثرها فتكًا في أعقاب الغزو الأمريكي. لكنني سأحاول أيضًا أن أختبر ما هو أهم من ذلك: تأثير ما وقع في العراق على جوار العراق، وبصفة خاصة على بلاد الشام بمفهومها الجغرافي/ السياسي التقليدي: سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين (وطبعًا إسرائيل)؟ ومدى حتمية نزال أخير بين الشرق والغرب على هذه الأرض بعينها في ضوء ما يوصف بإستراتيجية تنظيم القاعدة وما سار بحذائها وما انبثق عنها من تنظيمات.

الجزء الأول

الطريق إلى القاعدة

دعوة إلى المجهول

ذات صباح، في الأسبوع الأول من شهر أبريل/ نيسان ٢٠٠٢، دق هاتفي المحمول بينما كنت أهم بالدخول إلى مكتبي الجديد. لم أكن قد استقريت بعد في المكاتب الجديدة لقناة الجزيرة في لندن، التي تقع مباشرة على الضفة الجنوبية لنهر التيمس، لكنني كنت مستمتعًا بمغازلة هذه الحقيقة الساخرة: أنني أستطيع الآن من مقعدي أن أرى بكل وضوح، عبر النهر العتيق، النوافذ القابضة للمبنى الغامض الذي يقبع أمامي مباشرةً على الضفة الشمالية ولا يحمل رقمًا ولا عنوانًا ولا تجد له أثرًا على أي خريطة. يسمى فقط «بيت التيمس»، لكنه في الواقع مقر الذراع الداخلية لجهاز الاستخبارات البريطاني MI5.

على الخط كان صوت لم أتعرف عليه. «السلام عليكم يا أخ يسري. أنا فاعل خير». أتى صوت عطوف بلسان عربي فصيح عبر خط رديء موحيًا لأول وهلة بأن صاحبه على درجة من التدين. ثم لم يدخل في مقدمات كما هي غالبًا عادة المتصلين من العرب. «نرجو أن يكون قد خطر ببالك أن تعد برنامجًا خاصًا للذكرى الأولى». لم يشرح أي ذكرى يقصد، لكنه مضى سريعًا، «إن كان الأمر كذلك فإن في استطاعتنا أن نمدك بشيء خاص، سري للغاية». لم يمض أكثر من عشرين ثانية تقريبًا قبل أن يطلب «فاعل الخير»، الذي قررت بعد ذلك، تسهيلًا للأمور، أن أسميه «أبوبكر»، رقم جهاز الفاكس الخاص واستأذن في قطع الاتصال.

تدافعت الأفكار في ذهني وأنا أحدق في الهاتف المحمول الذي سكت فجأة مفسحًا المجال لصمت مطبق. يبدو شكله الآن في عيني غريبًا. كثيرون من مشاهدي قناة الجزيرة تكرموا قبل ذلك باقتراح أفكار لبرنامجي التحقيقي «سري للغاية»، بل إن بعضهم تطوع بإعداد بحوث كاملة عن موضوعات بعينها يرون أنها توافق طبيعة البرنامج. غير أن معظم الاقتراحات جاء قبل ذلك إما بالاتصال المباشر عن طريق أناس يعرفون أنهم يعرفون يسري فوده، أوعن طريق عنوان البريد الإليكتروني المعلن عنه بعد كل حلقة من حلقات البرنامج، أوعن طريق رقم الفاكس المعروف، أو حتى عن طريق الاتصال الهاتفي على أرقام الجزيرة في الدوحة أو مكتبها في لندن. لم يحدث قبل ذلك أن اتصل بي شخص لا يعرفني على رقم الهاتف المحمول، دون أن يقول لي في البداية «إن الصديق الفلاني هو الذي أعطاني رقمك الخاص» قبل أن يمضي في ما اتصل من أجله.

هذه المرة استطاع هذا «الفاعل الخير» أن يثير فضولي دون أن يتحدث عن أي شيء تقريبًا. لكن الغريزة الصحفية داخلي ألقت بي إلى إطراقة طويلة عميقة، وأثارت من التساؤلات أكثر مما أثارت من الإجابات. لقد سألني أبو بكر إن كنت أفكر في إعداد برنامج خاص للذكرى الأولى، وأنا الآن أخمن أنه ربما كان يقصد ذكرى الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول الآتية في غضون خمسة أشهر. ولكن، ما عساه ذلك الشيء الخاص الذي قال إنه يمكن أن يمدني به في المقابل؟ كيف يمكن لي أن أثق بـ «فاعل خير» هكذا بهذه البساطة؟ لقد كان التأكد من مدى مصداقية أبو بكر مسألة صعبة ومخاطرة ملفوفة بالحساسية في آن معًا، لكنني قمت على أي حال باتصال أواثنين للوقوف بطريقة هادئة على ما إذا كان أحد ما على علم بما يحدث. لم تكن تحليلات بعض من هؤلاء الذين كانت لهم خبرة مباشرة مع تنظيم القاعدة على درجة كبيرة من الفائدة على أي حال.

بينما كنت في انتظار الاتصال التالي من أبوبكر، حدثت مصادفة ساخرة. مساء تلك الليلة اتصلت بي صحفية تعمل في شبكة دولية شهيرة للأخبار التلفزيونية كي

تطلـب منـي خدمة. «هل لديـك بالصدفة رقم هاتـف لأحد أعضاء تنظيـم القاعدة؟» تسـاءلت الصحفية قبل أن تسـتطرد بلهجة جادة، «إننا نريـد أن نتعرف على رد فعلهم في النشـرة المقبلة بشـأن بعض التقاريـر». كنت أظن حقًّا أنها تمـزح فاقترحت عليها سـاخرًا أن تتصل برقم ١٩٢ (الاستعلامات الهاتفية لشركة الاتصالات البريطانية)!!! لولا أنها لم تكن تمزح.

لم تكن هذه الصحفية، للأسـف الشـديد، استثناءً بين كثير من الصحفيين الغربيين الذين خانتهم المعرفة الموضوعية لخلفيات أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. بالنسـبة لهـم جميعًا، أو يـكاد، بدا الأمر كلـه أحادي الجانب ذا وجـه واحد: الحادي عشـر من سـبتمبر/ أيلول، بن لادن، الإسـلام، العرب، أفغانسـتان، الشرق الأوسط، الإرهاب ـ كلها محتويات تنتمي إلى سلة واحدة، ومن ثم إلى تقرير صحفي واحد.

لأسـباب كثيـرة منهـا هـذا السـبب اسـتحوذت قنـاة الجزيرة علـى سـمعة دولية. لكـن هذه السـمعة الدوليـة عندما أدركـت الجزيرة أدركتهـا للأسـباب الخاطئة. لقد أصيـب كثيـرون في الغرب، خاصةً فـي الولايات المتحدة الأمريكيـة، الذين يعرفون قليلًا أو لا يعرفون شـيئًا على الإطلاق عن الشـرق الأوسـط و/ أو الإسـلام، بصدمة المفاجـأة عندما علموا في أعقاب الحادي عشـر من سـبتمبر/ أيلول أن قناة «عربية»، قناة «مسـلمة» تسـمى «الـ ـ شـيئًا ما» هي التي سـتقوم وحدها بتغطيـة أخبار الحرب التي كانت إدارتهم تسـتعد لشـنها على أفغانسـتان. قليل جدًّا منهم كان على علم بأن شـبكة الأخبار الأمريكية «سـي إن إن» قد عُرض عليها قبل ذلك بشـهور عدة العرض نفسـه الذي عُرض على قناة الجزيرة، لكنها لم تر حينئذٍ في أفغانسـتان مكانًا يسـتحق التغطية. رأته بعد ذلك بعد فوات الأوان. وقليل جدًّا منهم اسـتطاع، أثناء الإعداد لما سُـمي «الحرب على الإرهاب»، أن يقاوم جملةً من التسـاؤلات العنصرية السـخيفة: «هل يسـتطيع العرب أن يسـتخدموا كاميرا تلفزيونية؟ هل يسـتطيعون حقًّا ربطها إلى طبق فضائي كي يرسلوا إشارة في الهواء؟ بل هل يمكن أن يكون لديهم صحفيون؟!» وكان هذا ـ للأسف ـ من حسن حظي كصحفي عربي يعيش في لندن، فتابعت عملي في هدوء، دون جلبة.

اضطررت إلى الانتظار أربعة أيام قبل أن يلفظ جهاز الفاكس رسالة مطبوعة من ثلاث صفحات تعلو أولاها بالخط العريض عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم». تحتها بخط أصغر: «الخطوط الرئيسية للبرنامج المقترح، سري للغاية، صانعو أحداث سبتمبر يتحدثون».

كان من الواضح أنها أتت من «أبو بكر»، رغم أنها لم تحمل توقيعًا ولا رقمًا لجهاز الفاكس الذي أُرسلت منه ولا تاريخًا. ولم يكن من الواضح أيضًا إن كانت الرسالة المنمقة من بنات أفكار أبو بكر أو أنه كان مجرد وسيط، لكنّ مؤلفها لم يضيّع وقتًا في مقدمات أو افتراضات جدلية. كانت الرسالة ببساطة مشروعًا عمليًّا لفيلم تسجيلي مكون من جزأين احتفالًا بالذكرى الأولى لأحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول.

كانت هناك نبرة إملائية بين السطور تشتمّ من خلالها رائحةً لكاتب سيناريو أو مخرج يعتز بأفكاره ويريد لها أن تترجَم كما يراها هو بتفاصيلها ومنحنياتها. على البرنامج، كما يقترح المؤلف، أن يبدأ في جزئه الأول بصور «الأخوة التسعة عشر» مصحوبةً بصوت «الشيخ» (أسامة بن لادن) يلقي أبياتًا من الشعر:

أيقظتم التاريخ بعد رقاده ...

وقد أقسمُوا باللهِ أن جهادَهم سيمضي ولو تحدَى كسرَى وقيصر

يعقب ذلك، وفقًا للسيناريو المقترح، «قولة بوش عن الحرب الصليبية»، في إشارة إلى التصريح الخطير للرئيس الأمريكي عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول الذي قال فيه بالحرف الواحد: «إن هذا نوع جديد من ... نوع جديد من الشر، وقد بدأ الشعب الأمريكي يفهم. إن هذه الحملة الصليبية، هذه الحرب على الإرهاب ستستغرق وقتًا».

يؤدي ذلك بدوره، كما تقول الرسالة، إلى «تحليل تاريخي لمراحل الصراع بين المسيحيين والمسلمين» يقوم به عدد من الباحثين هم: «د. فهد محمود محمد شاكر،

د. عبـد العظيـم الديب، د. عبد الحليم عويس، د. جمـال عبد الهادي». لم يُعرف عن أي من هؤلاء الباحثين انتماء إلى تنظيم القاعدة أوغيره من تنظيمات، مثلما لم يُعرف عنهم استعداد للمشـاركة في برنامج من هذا القبيل بناءً على ترشـيح من هذا القبيل، وهـي الحقيقة نفسـها التي تنسـحب على «د. عبد الله النفيسـي وعبـد الباري عطوان ود. محمـد عبـاس ود. سـعيد مسـفر» الذين رشـحهم كاتـب الرسـالة للحديث عن «دخول أمريكا المنطقة وجرائمها التي ارتكبتها ضد الشعوب».

ورغم طموحها، فإن الرسالة التي كُتبت على الكمبيوتر بشكل منظم دقيق أظهرت بين سـطورها عقلًا فاهمًا لآليات العمل الإعلامي وظروفه؛ فقد كانت سهلة ومباشرة ومرتّبـة، ثـم كانت من بعـد ذلك مغرية. «هذا الموضوع لم يسـبق لمحطـة فضائية أن قامت به من قبل بشـكل موسـع ومتكامل»، ألقى كاتب الرسـالة إلى قارئها بجزرة في الفقرة الأخيرة: «وسـنوافيك بعناوين أشخاص ومراكز يمكنكم الاتصال بهم لإنجاز الجزء الثاني من البرنامج في حال توافر استعدادكم لعمل هذا التحقيق. وتقبلوا جزيل الشكر والامتنان،،،».

القرار الآن متروك لي.

الكرة تتدحرج

كان قـد مضى على الأحداث الدامية في نيويورك وواشـنطن حوالي سـبعة أشـهر حتى وصول تلك الرسـالة ممن بدأت أفهم أنه أحد وسـطاء تنظيم القاعدة، ولم يكن أحد بعد قد أعلن مسـئوليته عن مقتل أكثر من ثلاثة آلاف شـخص. ورغم أن الإدارة الأمريكيـة أصدرت حكمها مباشـرةً على بن لادن، مثلما أعـدت الحكومة البريطانية لائحـة ادعاء ضده، فإن دليلًا واقعيًّا دامغًا، من نوع ذلك الذي يمكن له أن يصمد أمام محكمة، لم يقدم للناس. لكنّ غياب مثل ذلك الدليل لم يردع الولايات المتحدة عن التحرك على أي حال؛ فبعد أقل من شـهر شـن الأمريكيون هجومهم على أفغانسـتان وخلعوا حكومة طالبان التي كانت تستضيف بن لادن.

صحيـح أن زعيم القاعدة، أسـامة بن لادن، لم يدخر وسـعًا فـي امتداح «عمليات الثلاثاء»، ولا في الدعاء إلى الله عسـى أن يتقبل «أبطالها» بين الشهداء، لكنه لم يعلن أبدًا مسـئوليته المباشرة ولا مسـئولية تنظيم القاعدة عن تلك العمليات. وحتى هؤلاء الذيـن اعتقـدوا ـ أو تمنوا في قلوبهم ـ أن يكون رجال بن لادن هم حقًّا الذين جعلوا حكام أعتى دولة في العالم يدورون حول أنفسـهم، وجدوا من الصعب اسـتيعاب أن بشـرًا من جلدتهـم خططوا ثم ناموا ثم اسـتيقظوا كي ينفذوا أضخـم عملية «إرهاب» تحفظها ذاكرة التاريخ حتى الآن وأكثرها تعقيدًا.

لكنّ أحدًا لم يكن قد سمع شيئًا من أسامة بن لادن لشهور، رغم أن طيفه كان يحلّق طول الوقت في أرجاء غرف الأخبار في كل مكان على وجه الأرض. كيف أستطيع إذًا بأي منطق وسط هذه الأجواء أن أتأكد من أن هذه الدعوة المبطنة التي حملتها رسالة الفاكس قد أتت منه أو من أحد رجاله؟ كيف أستطيع أن أقطع الشك باليقين أنها ليست هي الأخرى «خديعة كبرى»؟

في ذلك المساء عدت إلى منزلي في وسط لندن وفي جيب سترتي الداخلي ثلاث ورقات خفيفة وفي ذهني جبل ثقيل من الأفكار. كان أمرًا مغريًا دفعني بين لحظة وأخرى إلى التفكير في أن أحكي ما حدث لبعض الأصدقاء، لولا أن حفيف الإغراء أتى ملفوفًا في كثير من المخاطرة. ولم يكن لوصولي إلى هذا الإحساس المتناقض سوى معنى واحد: أنني أميل الآن إلى تصديق أن تنظيم القاعدة يريد فعلًا أن يضع بين يدي شيئًا غير عادي، وأنني أميل الآن إلى فتح يدي، وأنه إذا كان لذلك أن يحدث فلا بد له من أن يحدث في هدوء.

لم يكد يحين وقت الاسترخاء والتفكير العميق حتى مزق رنين هاتفي المحمول صمت المنزل. أبوبكر؟! لم يظهر على شاشة الهاتف رقم المتصل. ربما يكون هو. إذا كان هو الذي يتصل الآن من باكستان فلا بد أن الساعة لديه الآن تقترب من الثانية صباحًا.

«ما رأيك في الحضور إلى إسلام آباد؟» تساءل الصوت البعيد الذي انتخبته أذناي من بين ضوضاء خط رديء قبل أن يستطرد مباشرةً: «سنتأكد من الترتيبات ومن أنه لن يصيبك - إن شاء الله - مكروه ومن أنك ستعود بما تريد».

بدأت الكرة إذًا في التدحرج. أحد ما في مكان ما اتخذ قرارًا بعينه، وإذا لم أقتنص فرصتي الآن فربما لن تعود أبدًا. «طبعًا، بكل تأكيد، إن شاء الله»، جاء ردي سريعًا وأنا أعلم أن أبو بكر لن يستطيع البقاء على خط الهاتف لأكثر من ثوان معدودة. «بمجرد حصولي على تأشيرة دخول ستجدني - إن شاء الله - من الصابرين». قطع أبو بكر اتصاله فجأةً دون أن يخبرني إلى أي مكان سيكون عليَّ أن أتوجه في إسلام آباد،

وما إذا كان هو أو أحد غيره سيكون في انتظاري وفي أي ساعة من أي يوم. لكنّ الكرة كانت على أي حال كانت قد بدأت في التدحرج وكان لا بد من العبور أولًا على جسور أخرى قبل الوصول إلى جسر إسلام آباد.

لم يكن الحصول على تأشيرة دخول إلى باكستان مسألة صعبة على مواطن مصري مسلم يحمل جواز سفر بريطانيًّا ويعمل صحفيًّا مع قناة الجزيرة المحبوبة في ذلك البلد الإسلامي. ورغم أن قنصلية باكستان في لندن تريد دائمًا التأكد من غرض الزيارة فقد كان لديَّ غرض وجيه يدعونني إلى العودة إلى البلد الذي زرته آخر مرة قبل أشهر معدودة، وعلم جميع مشاهدي قناة الجزيرة بتلك الزيارة. كان تحقيقي الصحفي «الطريق إلى معسكر أشعة إكس» في شأن أسرى طالبان والقاعدة في غوانتانامو بكوبا، الذي صُوّر جزء منه في باكستان، قد لقي استحسانًا كبيرًا لدى مشاهدي الجزيرة، ومن ثم كان من السهل تصديق أن الموضوع يستدعي متابعة لإنتاج جزء ثان حول مصير الأسرى وصدى ذلك في العالم الإسلامي. ولأنني لم أكن متأكدًا من خطط أبو بكر فقد طلبت أن يشمل التصوير معظم أرجاء باكستان بما فيها منطقة الحدود مع أفغانستان. ولدرء ما تبقى من شكوك ـ ربما داخل نفسي أنا أولًا ـ طلبت من القنصل الصحفي المساعدة في ترتيب لقاء مع وزير الداخلية الباكستاني، معين الدين حيدر. «كذبة بيضاء» لم تضر أحدًا، خفف من وقعها نصيحة الرسول، ﷺ، بالاستعانة على قضاء الحاجة بالكتمان.

دون جلبة صدرت تأشيرة دخول مزدوجة عن قنصلية باكستان في لندن في التاسع من أبريل/ نيسان ٢٠٠٢. وبعد سبعة أيام وجدت نفسي في مطار دبي في انتظار طائرة الخطوط الإماراتية المتوجهة إلى إسلام آباد. قبيل إقلاعها اتصلت بأمي في مصر كي أطمئن عليها وأخبرها أنني ربما أزورها في غضون أسبوعين. تعودت هي لسنوات طويلة ألا تسأل أين أنا أو ماذا أفعل، وتعوّدت أنا على أن كل ما لديها لي هو الحب والدعاء. لكن المشكلة كانت تكمن فيما عساي أقول لرئيسي المباشر في العمل.

كان المدير العام لقناة الجزيرة وقتها، محمد جاسم العلي، يثق بي ثقةً عمياء؛ الأمر الذي دفع بمرارة إلى حلقومي وأنا «أكذب» عليه أثناء تلك المكالمة الهاتفية التي تعمدت أن تكون قصيرة. كان الأمر أخطر من أن يُذكر على الهاتف، ورغم أنه – كعادته – لم يكن لدى «أبو جاسم» في تلك اللحظة سوى الأمنيات الطيبة بالتوفيق والسلامة، فقد استغرقه الأمر دقيقةً أودقيقتين – بعد ذلك بنحو شهرين – قبل أن ترتسم على وجهه ابتسامة المتفهم. ويا لها من لحظة! في تلك اللحظة على أي حال لم أكن أستطيع أن أقرأ في بطاقة السفر وعلى شاشات المغادرة إلا كلمة واحدة أوكلمتين: القاعدة في انتظاري.

وصلت إلى مطار إسلام آباد في الساعات الأولى من صباح الأربعاء، السابع عشر من أبريل/ نيسان ٢٠٠٢، كي أجد في استقبالي مدير مكتب الجزيرة في العاصمة الباكستانية، أحمد زيدان. كان أحمد يعلم أن «الأخوة» يعدون شيئًا ما لزميله الزائر، لكنّ ذلك كان كل ما كان يعلمه، ولم يسأل. هيأت له خبرته في المنطقة أن يتوقع أن «لقاءً مهمًّا» كان يلوح في الأفق، رغم أن أيًّا منا لم يكن يدري تمامًا كنه الخطوة التالية عندما أنزلني أحمد في فندق متواضع قرب مكتب الجزيرة.

أستمتع الآن بحمام ساخن كنت في حاجة ماسة إليه. أتمدد على السرير أقرأ كتابًا عن كيفية العناية بالحدائق المنزلية. أطلب طعامًا إلى الغرفة. آكله. أتمدد على السرير لمزيد من القراءة. أتململ. أفتح جهاز التلفزيون. ثلاث قنوات، لا غير، كلها محلية. لغة الأوردو تشبه كثيرًا اللغة العربية. الجو حار. أدير جهاز تكييف الهواء. لا يعمل. أحاول النوم. لا أستطيع. فجأةً يبدأ جهاز التكييف في العمل من تلقاء ذاته. ضوضاء. يبدأ صبري في النفاد. ها أنا الآن في إسلام آباد تلبيةً لدعوة من شخص لا أعرفه للحصول على شيء ليست لديَّ أدنى فكرة عنه في مكان وزمان لا يعلمهما إلا الله. هل هناك حماقة أكثر من ذلك؟! انتظار شيء ما أمر صعب، وانتظار المجهول أمر لا يُحتمل، لكنّ الله مع الصابرين. هكذا بدأت أسلّم قيادي رويدًا لسيناريو رسمه لي أحد ما في مكان ما.

مرت الآن عليّ في ذلك الفندق اثنتا عشرة ساعة ولم يحدث شيء بعد. كم من المفترض أن أبقى قبل أن أعترف لنفسي بالفشل؟ يومين؟ ربما. أو ربما ثلاثة أيام على الأكثر، أعود بعدها أدراجي إلى حيث لا سبيل مرة أخرى إلى أن أسلم ذقني إلى مجهول.

بينما أنا كذلك دق الهاتف. اختطفته فإذا صوت أبو بكر واضحًا جليًّا هذه المرة. «حمد الله على السلامة». لم ينتظر ردًّا، بل استطرد قائلًا: «خذ طائرة المساء المتوجهة إلى كراتشي غدًا». كان هذا كل ما في الأمر، وعندها فقط بدأت أسمح لنفسي بتصديق احتمال أن «خبطة» صحفية قد تكون فعلًا في انتظاري. يعلمون إذًا أنني الآن في باكستان، وأنني قد التزمت بما يخصني في أول اتفاق، وأنني من الآن فصاعدًا أضع نفسي راضيًا بين أيديهم.

القبلة الطويلة قبل النوم

في مطعم إيراني في إسلام آباد لم أقتسم مع زميلي مدير مكتب الجزيرة في إسلام آباد، أحمد زيدان، في تلك الليلة إلا أقل التفاصيل. كان لأحمد أن يكون الشخص الوحيد الذي يعلم وجهتي في الليلة التالية، وكانت نصيحته لي أن أنزل في فندق ماريوت في كراتشي وأن ألتزم بتعليماتهم.

حتى ذلك اليوم من أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٢ كانت قد انتشرت في أرجاء العالم كله علامات الاستفهام كما تنتشر النار في الهشيم. تساؤلات في تساؤلات لا تلد أمام تعقيدات الحدث وغياب الحقائق إلا نظريات المؤامرة. في تلك الأيام لم أستطع استيعاب سيل متدفق من رسائل البريد الإليكتروني والعادي والفاكس والمكالمات الهاتفية والرسائل الهاتفية التي تدفقت على مكاتب قناة الجزيرة تقدم تفسيرات مختلفة لما سماه رجال القاعدة فيما بعد «غزوتي واشنطن ونيويورك».

استطاع كاتب فرنسي وسط ذلك أن يلتقط صدى المزاج العام في الشرق والغرب فضمن لنفسه ثروة صغيرة عندما زعم أن عمليات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول كانت من تدبير الإدارة الأمريكية نفسها. عندما التقينا به في باريس دافع تييري ميسون بشراسة عن نظرية «الخديعة الكبرى»[١].

(١) في تلك الفترة كان الكاتب الفرنسي تييري ميسون قد نشر كتابًا بعنوان «الخديعة الكبرى» زعم فيه أن فصيلًا داخل المؤسسة العسكرية الأمريكية هو الذي دبر هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، وقد تُرجم الكتاب لاحقًا إلى نحو ثلاثين لغة.

نظرية أخرى، شاعت بوجه خاص في المملكة العربية السعودية، كانت قد انبثقت أساسًا من حقيقة أن أحد مشاهدي برنامج «سري للغاية» قد التقط بعين حادة مشهدًا من الفيلم الأمريكي The Long Kiss Goodnight (القبلة الطويلة قبل النوم) يصور أحد ضباط مكتب التحقيقات الفيديرالي FBI وهو يشرح لعدد من زملائه رؤيته لعملية سرية:

- ١٩٩٣، تفجير مركز التجارة العالمي، هل تذكرون؟ أثناء المحاكمة زعم أحد المفجّرين أن وكالة الاستخبارات المركزية CIA كان لديها علم مسبق. (يضحك ساخرًا ثم يستطرد.) الدبلوماسي الذي أصدر له تأشيرة الدخول كان ضابطًا في وكالة الاستخبارات المركزية. ليس الأمر بالمستحيل تصديقه أنهم هم الذين مهدوا الطريق لعملية التفجير لمجرد تبرير الحصول على زيادة في الميزانية.

• أتقول لي إنك ستقوم بتزييف شيء إرهابي لمجرد أن تحصل على بعض الأموال من الكونغرس؟

- حسنًا، لسوء الحظ يا سيد هينيسي، ليست لديَّ فكرة عن كيفية تزييف مقتل أربعة آلاف شخص. ولذلك نحن مضطرون إلى تدبيرها بشكل حقيقي، وبالطبع سنلقي باللوم فيها على المسلمين(١).

منحت حقيقة أن هذا الفيلم أُنتج في هوليوود قبل سنوات من وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر / أيلول ثقلًا للمؤمنين بنظرية المؤامرة، شرقًا وغربًا، في اعتقادهم أن فكرة التفجيرات برمتها ولدت في أمريكا داخل أذهان أمريكية. «بن لادن لم يكن ليستطيع القيام بذلك»، يقطع لنا إدوارد اسبانوس، أحد أبرز كتاب مجلة Electronic Intelligence Review (EIR)، «فلقد كانت عملية سرية في غاية التعقيد بحيث كان لا بد لها من أن تُفعل من داخل الولايات المتحدة». والهدف؟ «الهدف كان في غاية الوضوح... جر الولايات المتحدة إلى حرب شاملة في الشرق الأوسط، إلى صراع حضارات، وإلى حرب ضد الإسلام».

---

(١) The Long Kiss Goodnight, starring: Geena Davis and Samuel L. Jackson, Writer: Shane Black, Director: Renny Harlin, Production: Forge and New Line Cinema, 1996

وفيما انتشرت على الإنترنت نظريات مبنية على حقائق تاريخية كهذه تبحث في الدوافع في ظل غياب معلومات عن الوقائع، لم يكن من الواضح أي موقف سيتبناه «المتهم الأول» من الهجوم. اختلف الموقف في عيني بين ليلة وضحاها عندما وجدت نفسي في باكستان. لقد فتحت لي القاعدة نافذة لم تفتحها لأحد قبلي، وأنا لا أدري لماذا. غير أن فكرةً بعينها، بعيدًا عن تفاصيل الرسالة التي وصلتني من أبو بكر، كانت تنبض حيةً من بين السطور: لأول مرة يعبر أحد ما من داخل تنظيم القاعدة عن قلقه من محاولات حرمان الأخوة «الشهداء» من حقهم المكتسب.

لم أستطع النوم وأنا أدرك أن الأمر قد تعدى نقطة اللاعودة. لماذا اختاروني في المقام الأول؟ لماذا ينبغي عليهم أن يتكبدوا مشقة إحضار صحفي من لندن بما يكتنف ذلك من مخاطر، بينما كانوا يستطيعون دعوة زميلي الذي يمثل القناة التلفزيونية نفسها على بعد أمتار منهم؟ ولماذا لا يلجأون إلى أي من هؤلاء الصحفيين الآخرين المعروف عنهم تعاطف مع الحركات الإسلامية؟

لم أجد إجابة. من الآن فصاعدًا عليَّ فقط أن أركز على أمني الشخصي. العودة إلى المنزل سالمًا قفزت فجأة فأصبحت على قمة الأولويات. إذا استطعت أن أحقق ذلك فإن أي شيء آخر أعود به سيكون فقط «إضافة» جيدة. «من الحماقة العبثية أن تتصيد قصة كبيرة ثم لا تعود بها»، هكذا كان المراسل الحربي لتلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية، مارتن بل، ينصح زميله الصغير الغض، يسري فوده، عندما عمل هذا إلى جواره أيام حرب البوسنة. في ذهني لا تزال صورة مراسل صحيفة وول استريت جورنال Wall Street Journal الأمريكية، دانييل بيرل، الذي كان اختُطف في كراتشي أواخر شهر يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٢ وقُطعت رأسه من جذورها. كانت جثته الممزقة إربًا إربًا قد وُجدت قبل أسبوعين فقط من وصولي مدفونة في إحدى رياض الأطفال في كراتشي.

في اليوم التالي عدت إلى مطار إسلام آباد كي ألحق بطائرة مزدحمة كانت في طريقها إلى الجنوب - إلى كراتشي. على متنها أطلقت أفكاري العنان مرةً أخرى لنفسها. هل يمكن أن يكون على الطائرة أحد ما يعرفني وأنا لا أعرفه؟ هل يمكن أن

يكـون ذلك فخًا أطير إليه بمحـض إرادتي؟ دانييل بيرل ذهب أيضًا إلى هناك بمحض إرادته. من الأسلم أن أتصرف وكأنني تحت المراقبة على أي حال، وأن أدقق في كل التفاتـة. ولكـن، ما الذي عسـاه يضطر بن لادن وأناسـه أن يتكبدوا هذه المشـقة كلها لاختطافـي؟ ماذا يمكن أن يكسـبوا مـن وراء إيذائي؟ دانييل بيـرل، على أي حال، لـم يكن مثلي مسلمًا، بل كان يهوديًا، وكان في عيون ذابحيه صهيونيًّا ابن صهيوني وغد. ولـم يكـن بيرل قد تسـلم دعـوة إلى لقـاء ذابحيه، بل إنه هـو الذي كان يسـعى إليهم، وعندمـا أدركوا هـم ذلك اختطفوه وجعلوا منـه عبرة. كان يريـد أن يصطاد فاصطيد، وهـؤلاء لا يحبون أن يكونوا في موقع الفريسـة المنتظرة، بـل في موقع الصائد الذي، مثلمـا قـرر أن يذبح من يتعقبه، قـرر أيضًا أن يصطـاد صحفيًّا بعينه كـي يتحدث إليه. أو هكذا أردت لدى وصول الطائرة إلى كراتشي أن أصدق.

انطلقت خارجًا من مطار (قائد العزم) كي أضع نفسـي في سيارة أجرة، وقد بدأت أقنـع نفسـي باسـتنتاج أن هؤلاء الذيـن وجهوا دعوة إليَّ لن يكسـبوا الكثيـر من وراء إيذاء «أخ مسـلم» يعمل للقناة التلفزيونية العربية الوحيدة تقريبًا التي تتجرأ على انتقاد الأنظمة العربية وتؤمن بتغطية الحدث من جميع جوانبه، حتى إذا كانت بعض الدوائر الغربيـة لا ترتـاح إلى أشـرطة القاعـدة. ثم ألم أقم أنا نفسـي قبل أسـابيع قليلة بانتقاد الإدارة الأمريكية نفسـها لطريقتها غير الشرعية في التعامل مع من تسميهم «المقاتلين غير الشـرعيين» من أسـرى طالبان والقاعدة في غوانتانامو بكوبا؟ وفيما كانت حرب الرئيس الأمريكي بوش على ما يصفه بالإرهاب منصبةً لدى تلك المرحلة على اغتيال سياسـي معنوي قبل اقتلاع عسكري عملي لصوت إسلامي متشدد، وجدتُ راحةً في اسـتنتاج أن هؤلاء ربما قد أدركوا أنهم الآن في حاجة إلى التعاطف أكثر من حاجتهم إلى التحدي. وحين يحدث ذلك تنشأ الحاجة إلى الإعلام والإعلاميين.

من الأفضل إذًا أن أفكر بشـكل إيجابي؛ فمـن الواضح أن الرجل الذي دعاني إلى قطـع آلاف الأميـال من لنـدن إلى كراتشـي كان معنيًّا بـأن تتاح للقاعـدة فرصة جيدة للحديث والشرح. لا بد من أنه كان قد علم لدى تلك المرحلة أنه حتى إذا كان ثمة من

أُعجبوا بجرأة الفأر الذي «هرس» قدم الفيل، فإن كثيرين لم يُعجَبوا بطريقة «الهرس». ولا بـد مـن أنه أدرك أنـه إذا كان يريد لحركته الانتقال من مرحلة النشـاط العنيف إلى مرحلة من الوجود السياسـي، فإن عليه أن يتحدث عن الأسـباب وأن يشـرح الدوافع وأن يحدد الأهداف، سـواء من الناحية الدينية أومن الناحية السياسـية. وحين يحدث ذلك تزداد الحاجة إلى الإعلام والإعلاميين.

قبـل دقائـق مـن وصـول السـيارة إلـى فنـدق ماريـوت دق الهاتـف. كانـت لدى أبو بكر تعليمات جديدة: «اطلب من السـائق أن يغير مسـاره إلى فندق ريجينت بلازا «Regent Plaza». كان الماريوت أقرب مما ينبغي إلى القنصلية الأمريكية في كراتشي وكان يرتاده كثير من الدبلوماسيين وأعضاء البعثات الأجنبية، مثلما شرح أبو بكر فيما بعد. بالصدفة البحتة ـ أو بغيرها ـ كانت واجهة الماريوت بعد أسـابيع قليلة مسـرحًا لانفجار سـيارة مفخخة أودت بحياة أربعة عشـر شـخصًا من بينهم أحد عشر مهندسًا بحريًّا فرنسيًّا كانوا يساعدون سلاح البحرية الباكستاني.

سيغفر لك الله

أنا الآن في كراتشي، باكستان، في أبريل/ نيسان ٢٠٠٢ بناءً على دعوة ممن أظن أنه أحد وسطاء تنظيم القاعدة. كانت النصيحة من أحد زملائي في إسلام آباد أن أنزل في فندق ماريوت، وكنت الآن على بعد دقائق معدودة منه عندما اتصل وسيط القاعدة الذي سميته «أبو بكر».

كان مسار السيارة الذي تغير بناءً على تعليمات أبوبكر يغريني بالتفكير في المسار الذي اتخذه قبل سبعة أشهر أحد المشتبه في ضلوعهم في التخطيط لعمليات الحادي عشر من سبتمبر. ففي الثالث من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١ كان «سعيد بحاجي»، الذي اقتسم المسكن نفسه في هامبورغ مع «محمد عطا ورمزي بن الشيبه»، يحلق لحيته قبل أن يودع زوجته في طريقه إلى باكستان بحجة المشاركة في ندوة عن تكنولوجيا الكمبيوتر. نزل في مطار إسطنبول الدولي فلحق برحلة الخطوط التركية رقم ١٠٥٦ المتوجهة إلى مطار (قائد العزم الدولي) في كراتشي. من المطار قصد بصحبة رجلين آخرين إلى فندق إمباسي Embassy حيث بات ليلة واحدة. في الصباح دفع حوالي ٣٠ دولارًا ثم اختفى. تلاشى نهائيًا من الوجود، على الأقل حتى كتابة هذه السطور.

فندق شبيه - وإن كان يقع في شارع فيصل الأكثر ازدحامًا وضوضاء - يحمل لوحة جانبية مضيئة عليها اسمه باللغة الإنجليزية، ريجينت بلازا، بدا أصغر وأقل احترامًا مما يوحي به الاسم. لكن الأكثر لفتًا للانتباه كان حجم الإصلاحات التي

كان يشـهدها مدخلـه وواجهته. توقفت أمامه سـيارة أجرة نزل منهـا رجل يوحي بأنه فـي أواسـط الثلاثينيات ويبدو كرجـل أعمال عربي في زي غربـي. قصد إلى موظف الاستقبال وقدم جواز سفره البريطاني طالبًا غرفة مريحة لفترة غير معلومة؛ إذ إن ذلك - كما قال للموظف - سيعتمد على «إتمام بعض الصفقات التجارية». لم يكن «رجل الأعمال هذا» سـوى يسـري فوده، ولم يكن في وسع موظف الاستقبال إلا أن يرحب بهذا النزيل النادر دون أسئلة.

بعـد حوالـي نصف السـاعة كانت الغرفـة رقم ٣٢٢ مسـرحًا لأول لقـاء لي بأحد أعضـاء تنظيـم القاعـدة. هرولت من الحمام عندما سـمعت دقةً علـى الباب. وعندما فتحته وجدت أمامي رجلًا طويلًا أسمر اللون في منتصف العمر، يبدو عربيًّا وإن كان يرتدي الزي الباكستاني التقليدي (سروال قميص).

لم ينتظر الرجل دعوةً وإنما اندفع مباشرةً داخل الغرفة وهو يغلق الباب في الوقت نفسـه. لم يمـد يده للتصافح، ولا خـدّه لتبادل القبلات، بل همّ بعنـاق من ذلك النوع المنتشـر بين السـودانيين: مد ذراعه الأيمن إلى كتفي اليسرى وعانقني يمينًا وشمالًا. غيـر أن هذا الصوت الذي عاش في أذني للأسـابيع القليلـة الخالية لم يبد فيه كثير من ملامح اللهجة السودانية المميزة. كان من الصعب تخمين ما إذا كان انتقاله سريعًا من لهجة عربية إلى أخرى يعود إلى رغبته في إخفاء جذوره أو إلى احتمال اختلاطه لفترة طويلـة بعرب ذوي أصول مختلفة. مما بدا يمكن لأبو بكر أن يكون يمنيًّا مثلما يمكن له أن يكون سودانيًّا أومصريًّا أوسعوديًّا أو حتى صوماليًّا.

رغـم أن عينيه لأول وهلة كانتا زائغتيـن في أرجاء الغرفة المختلفة وتفاصيلها كان ثمة إحساس فوري بالثقة بيننا. وحتى بعد دقائق معدودة، عندما طلب أبو بكر إن كان يمكن أن يسـتخدم الحمام، لم أتشـكك كثيرًا مثلما هي عادتي إذا حدث شـيء كهذا في إطار تحقيقاتي الصحفية. كان أبو بكر فعلًا، كما بدت هيئته، في حاجة ماسـة إلى حمام. دعوته بلطف ثم سألته إن كان أيضًا في حاجة إلى طعام. رد أبو بكر على الفور: «نعم، من فضلك، إن لم يكن ذلك بالشيء الثقيل، وجزاك الله خيرًا».

بعد حوالي عشرين دقيقة خرج أبو بكر من الحمام طالبًا مني أن ألتحق به لصلاة العشاء. قام أبو بكر بدور الإمام، لكنه كان سريعًا خاطفًا في صلاته بشكل ملحوظ. اختبأ الرجل في الحمام عندما وصل خادم الغرف بالطعام: حساء العدس ورغيفين بلحم الدجاج. بينما بدأ يلتهمها جميعًا في وقت واحد، كانت لدى فمه الممتلئ أولى المفاجآت. «الشيخ أبو عبد الله (بن لادن)، حفظه الله، من أشد المعجبين بقناة الجزيرة». التقطت الخيط سريعًا وألقيت بأول طعم. «ولكن كيف يشاهدها الشيخ الآن ولا أحد يدري أين هو؟».

ابتلع أبو بكر قضمةً أخرى ثم أجاب مطمئنًّا: «لا تقلق يا أخ يسري. الشيخ أسامة، حفظه الله، حي يُرزق وبصحة جيدة والحمد لله. ما يفوته يصله على شرائط». بعد إطراقة قصيرة شرع أبو بكر في انتقاد قناة الجزيرة وكان عليّ أن أستمع بروح رياضية. «كيف يتأتى لكم أن تستضيفوا هؤلاء الصهاينة بينما لا تعطون للأخوة المجاهدين الذين وهبوا حياتهم لإعلاء كلمة الله والأمة ما يستحقون؟».

لم يرتح أبو بكر كثيرًا لمحاولتي تجنب اختلاف في الرأي سابق للأوان بالتقاطي هاتف الغرفة كي أطلب بعض الشاي. لكنني أجبت: «لا تنس أننا نتحمل كل يوم انتقادات لاذعة وضغوطًا شديدة بسبب قيامنا ببث شرائطكم[1]، ورغم ذلك نؤمن بأننا نلتزم بشرف المهنة». لم يبد على أبو بكر أنه اقتنع كثيرًا وإن كان قد أشاح بيده راضيًا. انتهزتها فرصةً فاستطردت سائلًا: «بالمناسبة، من الذي كتب رسالة الفاكس التي أرسلتها إليّ؟» لكن أبو بكر لم يكن ليجيب بشكل مباشر: «واحد من الأخوة». مضيت في أسئلتي: «ولكن لماذا وقع الاختيار عليّ أنا بالذات؟» ابتسم أبو بكر ابتسامة الواثق وأجاب: «لقد تناقش الأخوة في هذا الأمر لبعض الوقت، وهم يعتقدون أنك صحفي مهني يتمتع بسمعة طيبة». أطرق الرجل لحظةً قبل أن يلقي مفاجأة أخرى: «الشيخ أبو عبد الله، حفظه الله، طلب منا أن نأخذ روبرت فيسك (صحفي بريطاني

(١) منذ نشأتها عام ١٩٩٦، منحت قناة الجزيرة الشارع العربي صوتًا في مقابل أحادية الصوت الرسمي، وهو ما وجد صدى إيجابيًا بين الدوائر الإسلامية الناشطة على وجه الخصوص، واستتبع رد فعل سلبيًا من جانب الأنظمة العربية.

يعمل لجريدة الإندبندنت The Independent) إلى أم عبد الله (زوجة بن لادن)، وأن نأخذ يسري فوده إلى الأخوة».

وصل الشاي فيما كنت سعيدًا بأن الرجل بدأ يفتح قلبه، لكن أبو بكر صب الشاي في جوفه واقفًا وهو ينهي أول لقاء: «لا تقلق يا أخ يسري، ستعلم كل شيء غدًا إن شاء الله». ولأن «غدًا» كان يوم جمعة سألته إن كان يفضل أن يلتقي بي في مسجد بعينه. لكن أبو بكر كان له رأي آخر قاله بلهجة حاسمة: «من الأفضل ألا تتحرك من الفندق». استغربت متسائلًا: «ولكن ماذا عن صلاة الجمعة؟» وهنا أصدر أبو بكر ما يمكن وصفه بفتوى جاهزة: «سيغفر لك الله!».

كانت الساعة قد تعدت منتصف الليل عندما استأذن وسيط القاعدة، أبو بكر، تاركًا بين يدي تساؤلات أكثر من إجابات. لقد كانت تلك فتوى لم يسمع بها من قبل: (سيغفر لك الله!). من ذا الذي يظن أن لديه تفويضًا إلهيًّا يخوّله استثناء مسلم قادر من أداء أهم صلاة في الإسلام؟ ما لا شك فيه أن رخصة «الضرورات تبيح المحرمات» تبرز في أدبيات القاعدة، فأين ترتسم الحدود؟ ومن ذا الذي يحق له أن يرسمها؟ ومتى؟ وفي أي ظروف؟ إذا لم تكن الإجابة في وضوح الشمس لدى أصحابها قبل غيرهم فأي فارق إذًا بين منطق أبو بكر ومنطق جورج دبليو بوش الذي يقوم - باسم محاربة «أعداء الحضارة الغربية» - بتقويض دعائم الحضارة الغربية من أساسها عن طريق إرهاب الصحفيين وسن القوانين العنصرية واعتقال الناس دون تهمة إلى أجل غير مسمى؟ كيف يمكن لعادل أن يصدق أيًّا من الجانبين؟ كيف يمكن له أن يقرر ما إذا كان الذي يراد له أن يسمعه حقيقة أم أنه كذب من أجل عيون الحقيقة؟

استيقظت صباح اليوم التالي في ذلك الفندق في كراتشي داعيًا الله أن يجعل من يوم الجمعة، ١٩ أبريل/ نيسان ٢٠٠٢، نقطة تحول في مسيرتي الصحفية لا نقطة تحول في حياتي. كان الظلام يكتنف رؤيتي بشأن ما عساه سيحدث بعد ساعات، لكنني استأنست طوال اليوم بين صلوات متكررة في غرفة الفندق والاستماع إلى تلاوة مباركة على إحدى قنوات التلفزيون الباكستاني المخصصة للقرآن الكريم. هذه

المرة لم أكن في انتظار اتصال آخر من أبو بكر. لم يكن عليَّ الآن سوى الانتظار حتى الخامسة مساءً قبل أن أبدأ في تنفيذ التعليمات التي أخبرني الرجل بها قبل مغادرته ليلة أمس.

في الوقت المحدد تمامًا خرجت بهدوء من الباب الخلفي للفندق إلى شارع جانبي وأشرت بيدي طالبًا سيارة أجرة. كانت تعليمات أبو بكر أن أتجنب السيارات المنتظرة أمام الفندق أو بالقرب منه. فعلت ذلك. بعد دقيقة أودقيقتين توقفت سيارة كانت مسرعة فطلبت من سائقها أن يأخذني إلى عنوان بناية بعينها. عندما وصلت إليها صعدت إلى طابقها الثاني وانتظرت على السلم. مرت خمس دقائق ثقيلة قبل أن يصعد إليَّ رجل كثيف اللحية باكستاني الملامح حيّاني تحيةً إسلامية ثم قال لي بالإنجليزية: «لقد انتهيت لتوي من توصيل حماتي إلى منزلها، ونستطيع الآن الذهاب!» كانت هذه شفرة اتفق عليها معي أبو بكر.

إلى المنزل الآمن

قادني صاحب اللحية في سيارته إلى ميدان مزدحم حيث توقف فجأة لشراء عصير مانجو. استغرب الصحفي داخلي وقد التزم الصمت تمامًا حتى تلك اللحظة قبل أن أسأل بلهجة متأدبة: «هل تعتقد أن لدينا وقتًا لهذا؟» لكن الرجل رد هو الآخر بلهجة أكثر تأدبًا: «لا يتعلق الأمر بما إذا كان لدينا وقت. هذه هي التعليمات وحسب يا أخي».

تعليمات! تعليمات من؟ من عساه يكون ذلك الذي كنت في طريقي إلى لقائه؟ ومن عساهم يكونون هؤلاء «الأخوة» الذين تحدث عنهم وسيط القاعدة أبو بكر؟ كان صاحب اللحية أكرم قليلًا في كلماته من سماء الربع الخالي في الصيف.

كانت التعليمات أن أبقى داخل السيارة التي غرقت في حرارة كراتشي في مثل ذلك الوقت من العام. بينما أخذت أرشف عصير المانجو غادرني صاحب اللحية ثلاث مرات متجهًا كل مرة نحو صندوق مختلف للهواتف العامة. مر الوقت ثقيلًا ولم يخفف من وقعه سوى تدافع الأفكار سريعًا في رأسي. كانت لمحات لا تزال تتتابع من لحظة إلى أخرى من زياراتي التي كنت قد أجريتها قبيل سفري هذا إلى أهالي من يوصفون في الإعلام الدولي بـ«الخاطفين».

يتمزق القلب وأنت تستمع في مرج البقاع إلى والد اللبناني زياد جراح الذي قيل إنه قاد الرحلة المختطفة رقم ٩٣ لشركة الخطوط المتحدة United Airlines. في محاولاته اليائسة لتبرئة ابنه وعائلته في وجه عداوة غامرة من قبل الصحفيين الغربيين يتساءل الرجل أمامهم دامع العينين: «متعصبين؟! إحنا؟! متعصبين؟! تعالوا شوفوا

بناتنا!!!» تعالوا شوفوا بناتنا!!! تنهمر دموع الكبرياء والكرامة من عيني الرجل وهو يجهش بهذا المنطق اليائس قبل أن ينصرف.

لكنّ شيئًا على وجه الأرض لن يقنع والد المصري محمد عطا بأن ابنه كان على متن الرحلة المختطفة رقم ١١ لشركة الخطوط الأمريكية American Airlines صباح الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. «لقد اتصل بي هاتفيًا في اليوم التالي، يوم ١٢»، يقول لي الرجل ثم يستطرد: «كان ذلك في الصباح، وكان كعادته يطمئن على صحتي وعلى ما إذا كنت قد أقلعت عن التدخين». ورغم أنه لم يكن متأكدًا من المكان الذي اتصل منه ابنه فإنه يقطع بأن «ابني بكل تأكيد إما موجود الآن حيًّا في مكان ما في أمريكا أو أنه تمت تصفيته من جانب الأمريكان».

ومما لا شك فيه أن غياب الأدلة والحقائق المحددة وعدم قيام أي طرف بإعلان مسئوليته المباشرة عما حدث حتى بعد مرور ثمانية أشهر، ساهم في إعداد تربة خصبة لنمو نظريات المؤامرة، خاصة بين العرب والمسلمين الذين ينظرون بعين الشك والحنق إلى سياسة الدعم الأمريكي غير المشروط لإسرائيل. أما اليوم فقد أضيف إلى ذلك قرف واشمئزاز من محاولات أمريكية لاستغلال مأساة إنسانية للنيل من المسلمين في أفغانستان والعراق وغيرهما. لم تنحدر شعبية أمريكا في عيون العرب والمسلمين إلى مستوى أدنى من ذلك من قبل. «بلطجي قلع هدومه ومشي في الشارع عريان وفيه ستات وماحدّش قادر يوقفه. هي دي أمريكا»، هكذا يلخص والد محمد عطا صورة «أعظم» دولة في عالم اليوم.

أخيرًا، عاد صاحب اللحية من أحد صناديق الهواتف بتعليمات جديدة. المرحلة التالية مما لا بد أنه رحلة «تتويه» ستكون على متن ما يسميه الباكستانيون «ريكشا» (تشبه التوك توك) إلى مكان لا بد من أن يبقى سرًّا. لقد بدأ الأمر يتجه نحو السخافة. صار كأنه مشهد من أحد أفلام الجاسوسية الرديئة. قادني السائق عبر شوارع وأزقة ملتوية خافتة الأضواء في رحلة غير مريحة وصل في أحد منحنياتها إلى طريق مسدود. لكنني على الأقل بدأت أدرك لماذا وقع الاختيار على كراتشي لترتيب هذه الدعوة.

هذه مدينة عشوائية، يسكنها اثنا عشر مليونًا، لا تنقصها مشاعر الحنق على أمريكا، لا قبل الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ولا بعده. بها كثير مما يمكن وصفه بالأحياء

«الآمنة» التي يقطنها ليس فقط ملايين المتعاطفين مع «أسامة» (هكذا يدعونه هنا باسمه الأول)، بل أيضًا آلاف من الأصوليين الذين جاهدوا في كشمير وأفغانستان والشيشان والفيليبين وغيرها من النقاط الإسلامية الساخنة.

وصلت الريكشا فنزلت منها سريعًا دون حتى أن أودع صاحب اللحية. «لاهور؟!»، هتف به سائق سيارة صغيرة كانت تنتظر قرب المكان الذي توقفت لديه. كانت تلك كلمة السر التي همس بها في أذني صاحب اللحية عندما عاد من صندوق الهاتف العام. دلفت داخل السيارة فانطلق سائقها مسرعًا. كان شابًّا صغير السن ذا وجه عربي أليف وعينين يشع منهما الذكاء يرتدي قميصًا وبنطالًا عاديين. قدّم نفسه بلهجة فلسطينية: «أهلًا بالأستاذ. أخوك حسن». مد يده مصافحًا بحرارة وهو يقود سيارته بسرعة فائقة إلى خارج كراتشي، ثم استطرد: «هاي هدية إلك». مد يده إلى درج يقع على يمين عجلة القيادة واستخرج ما بدا أسطوانة ممغنطة ثم قال مبتسمًا وهو يناولها: «هذه نسخة من برنامج الطريق إلى معسكر أشعة إكس. إنه الآن منتشر في كل مكان في باكستان بفضل الأخوة الذين ترجموه إلى الإنجليزية».

في طريق مظلم منعزل، على بعد حوالي عشرة كيلومترات خارج كراتشي، توقف حسن بالسيارة فجأة إلى جانب سيارة بدت بغطاء محركها المفتوح كأنها معطوبة. خرج منها رجل آخر يرتدي زيًّا باكستانيًّا قام بعد قليل بمساعدة حسن في وضع عصابة على عيني. كانت العصابة من نوع طريف: كرتان صغيرتان من القطن الكثيف أُلصقت كل منهما على إحدى العينين ثم طُلب مني أن أضع فوقهما نظارة شمسية. كانت الفكرة بسيطة ذكية لولا أن أحدًا كان يمكن أن يلاحظ التناقض في ارتداء نظارة شمسية في عز الليل. لكن الرحلة الحقيقية كانت على أي حال قد بدأت لدى تلك النقطة.

بينما استلم الرجل الجديد الصامت عجلة القيادة منطلقًا في اتجاه ما تملكني إحساس بأن هذا الاتجاه لم يكن سوى طريق العودة إلى كراتشي. كان الهدوء والهواء الطازج في تلك المنطقة المفتوحة خارج كراتشي يتركان المجال تدريجيًّا لضوضاء ومزيج من الروائح عهدتهما أذناي وأنفي منذ وصولي إلى ذلك الميناء الباكستاني.

بعد مسار طويل مليء بالمنحنيات والمطبات توقفت السيارة. فتح الرجل بابه من الداخل ثم فتح بابي من الخارج هامسًا بلغة عربية بلهجة آسيوية: «هل يمكن أن تساعدني في حمل هذا الصندوق؟» أحسست، بينما هممت بالخروج من السيارة، بطرف صندوق ورقي متوسط الحجم يسقط بين يدي فاستجمعت قوتي في ذراعي لاستقباله. لكن الدهشة عقدت لساني عندما لم أشعر بأي وزن يُذكر. كان الصندوق الورقي فارغًا. لم يكن ثمة شيء يستدعي المساعدة على الإطلاق، لكنني استجبت للطلب دون أسئلة. فجأة، بينما قاد الرجل الطريق ممسكًا بالطرف الآخر للصندوق، أدركت عبقرية هؤلاء الناس: كانت تلك حيلة في غاية الذكاء كي تقود رجلًا معصوب العينين في الاتجاه الذي تريده دون أن تلفت الأنظار.

بعد حوالي خمس عشرة خطوة بدأ سلم طويل فيما استنتجت من صدى الصوت ودرجة الحرارة أنني الآن داخل بناية مدنية. خزنت في ذاكرتي إحساسا بصعود أربعة طوابق قبل أن ينجذب الصندوق من يدي وأسمع صوت جرس داخلي يدق بطريقة متقطعة. لا بد أن تلك هي اللحظة التي كنت أنتظرها من شهور.

فُتح الباب وشعرت بيدين تجذبانني إلى الداخل بسرعة قبل أن ينغلق الباب ورائي وتمتد اليدان كي ترفع الغمامة عن عيني. «كل شيء على ما يرام الآن. يمكنك أن تفتح عينيك». تائهًا للوهلة الأولى وأنا أشعر بلمسات الطمأنة بدأت تدريجيًّا أميز أمامي خيالًا يميل إلى القصر ممتلئًا ذا لحية متوسطة الطول تميل ملامحه إلى العربية. تسارعت اللحظات الأولى لحظة بعد لحظة تترك إحساسًا قابضًا لديَّ بأنني رأيت ذلك الوجه من قبل. ثم فجأة نزل إدراكي عليَّ كالصاعقة. إنه هو. إنه هو بشحمه ولحمه. إنه خالد شيخ محمد، المولود في الكويت قبل ذلك بثمانية وثلاثين عامًا، يقف أمامي مباشرة على بعد نصف متر. كيف يمكن أن أنسى ذلك الوجه الذي «درست» صورته على موقع مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI؟ حتى قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، كان الأمريكيون قد رصدوا خمسة ملايين دولار في مقابل رأسه لتورطه المزعوم في انفجار مركز التجارة العالمي عام ١٩٩٣ الذي بسببه يقضي ابن أخته، رمزي يوسف، عقوبة بالسجن مدى الحياة في أحد سجون أمريكا.

أنا الآن بين يديه، أم أنه هو الآن بين يديّ؟

أنتما إذًا على سفر

ابتلعت وقع المفاجأة بينما اقتادني خالد شيخ محمد عبر شقة بدت خاوية على عروشها. كانت (الحجرة ١) على يسار المدخل مباشرة نصف مفتوحة، وكانت تبدو حجرة مثالية حيث يمكن عزل الضيوف عن بقية الحجرات. إلى يمين مدخلها مباشرة باب قوسي يؤدي إلى حجرة مركزية واسعة (الحجرة ٢) بها نافذتان إلى اليسار مغلقتان، تبدو مثالية كحجرة معيشة. يتفرع منها ثلاثة أبواب: أحدها تراه أمامك مباشرة لدى دخولك وكان مغلقًا (الحجرة ٣)، والثاني إلى يمينك بعد أن تخطو خطوتين (الحجرة ٤) وكان واضحًا أن ذلك هو المطبخ، والباب الثالث بعده مباشرة يؤدي إلى (الحجرة ٥) التي حين تدخلها تجد بها بابين داخليين، أحدهما إلى اليمين وهو الحمام والثاني إلى اليسار وهو شرفة مغلقة إلا قليلا.

كانت (الحجرة ٥) مفروشة بسجادة بلاستيكية، وبحذاء جداريـن من جدرانها تمتد مقعدتان مستطيلتان تخففان من عبء الجلوس على الأرض وفوقهما يتناثر عدد من الوسادات الصغيرة. عندما دعاني خالد إلى دخول الحجرة كانت مفاجأة أخرى في انتظاري. على إحدى المقعدتين كان يجلس مطمئنًا، محاطًا بثلاثة أجهزة كمبيوتر متنقلة وخمسة هواتف محمولة، رمزي بن الشيبة، المولود في اليمن قبل ذلك بثلاثين عامًا، الذي يتهمه الأمريكيون بالضلوع في تفجير المدمرة (يو إس إس كول) USS Cole عام ٢٠٠٠، ويضعه الألمان على رأس قائمة المطلوبين بعد الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول.

«عرفتَنا الآن؟!» ألقى خالد بالسؤال مازحًا فيما نهض رمزي ومد يمينه مصافحًا إياي بحرارة. التفتُ إلى خالد وفاجأت نفسي بجواب ظننت لأول وهلة أنه سابق لأوانه، بينما اتخذت مكاني على الأرض بين الرجلين: «يقولون إنكم إرهابيون!».

هادئًا، وديعًا، مستريح القسمات، رد رمزي بابتسامة متواضعة مرحّبة، لكنّ خالد هو الذي فتح فمه: «طبعًا، نحن إرهابيون. هكذا نكسب عيشنا». قطعت سعلة مصطنعة من رمزي لحظة صمت مبكرة. «لو كان الإرهاب أن تلقي الرعب في قلوب أعدائك وأعداء الله، فإننا نحمده ـ عز وجل ـ على أن جعل منا إرهابيين»، تدخّل رمزي بهدوء وهو يهم بالتوجه إلى المطبخ لإعداد الشاي، «إنه أمر مذكور في القرآن، يا أخ يسري».

استغل خالد الفرصة كي يحدد لي قواعد المقابلة وشروطها. كان هذا إذًا ما كان تنظيم القاعدة يدخره لي: مقابلة تلفزيونية مع خالد شيخ محمد ورمزي بن الشيبة، ويا له من سبق صحفي! «ليس لك أن تخوض في طرق اتصالاتنا، ولا لك أن تذكر أسماءنا الحركية»، بدأ خالد حازمًا ثم استطرد أمامي وأنا أهز رأسي موافقًا، «عندما (لا إذا) يسألونك كيف تبدو هيئتنا الآن ستقول لهم إننا نشبه تمامًا تلك الصور التي سيعرضونها أمامك». بعد ذلك طلب خالد مني أن أضع كفي اليمنى على مصحف وأن أقسم بالله العظيم أن ألتزم بهذه الشروط.

حاسمًا، حازمًا، جريئًا، وسريع البديهة. هكذا كان خالد منذ اللحظة الأولى. عندما أخرجت هاتفي المحمول اختطفه خالد مسرعًا وأغلقه ثم استخرج من باطنه البطاقة الذكية والبطارية وألقى بهذه المكونات جميعًا منعزلة في أحد أركان الحجرة ١. إذا كان خالد رجل حركة فإن رمزي رجل دين. كان أكثر لطفًا وأجم أدبًا و ـ بكل تأكيد ـ أكثر حفظًا للقرآن وأعمق إلمامًا بأمور الفقه والعقيدة. تحولت فراستي إلى حقيقة عندما حانت أول صلاة؛ فرغم أنه أصغر من خالد بثماني سنوات، كان رمزي من تقدّم دون دعوة إلى موقع الإمام.

بينما نادى رمزي للصلاة، أشار خالد لي بالتوجه إلى الحجرة ٢. كانت تفترشها هي أيضًا سجادة بلاستيكية وفي أحد أركانها وسادتان جامدتان، وفي ركن آخر ثلاجة متهالكة تنبعث منها ضوضاء مزعجة. كانت لحظة الصلاة التي كنت أنتظرها لحظة

مهمة من الناحية الدينية، لكنها كانت أيضًا مهمة من الناحية الصحفية؛ فكما كان متوقعًا عمد رمزي إلى صلاة الجمع والقصر التي رخصها الله للمسافر.

«أنتما إذًا على سفر؟» سألتهما بعد انتهاء الصلاة فأجاب رمزي كأنه كان يتوقع السؤال: «نعم، وهل كنت تتوقع أن نقابلك حيث نسكن؟!».

مرت ساعة كانت كافية لابتلاع صدمة المفاجأة، بدأت بعدها أكتسب إحساسًا بالطمأنينة فيما بدأ الرجلان يكتسبان إحساسًا بالثقة. «جاء الدور عليّ لإعداد الشاي»، اقترحت عندما رأيت خالد منشغلًا مرة أخرى باستقبال الرسائل الهاتفية المكتوبة والرد عليها. كانت تأتيه على هاتف مختلف كل مرة، وكان هو سريعًا كالعاصفة في الرد وهو يقبع في تلك الزاوية البعيدة من الحجرة ٢. لكنّ رمزي أصر على أن يقوم هو بإعداد الشاي. تبعته إلى المطبخ لدقيقة أودقيقتين قبل أن أعود أدراجي إلى الحجرة ٥.

«هل هذه مكهربة؟»، رفعت صوتي من داخل الحجرة كي يسمعه الرجلان البعيدان. بعد لحظة كان خالد يقفز إلى داخل الحجرة كي يراني أتطلع بشغف إلى تلك القضبان الحديدية الواصلة من السقف إلى الأرض مباشرةً خلف باب الشرفة. كان هاتفان في يديه. نظر إليَّ، ثم إلى القضبان، ثم مرة أخرى إليَّ، ثم انصرف كأن أحدًا لم يكن هناك. بعد قليل عاد مرةً أخرى وفي عينيه اهتمام واضح.

«هل يمكن أن ألقي نظرة على جواز سفرك البريطاني؟»، طلب خالد مني فاستغربت قليلًا قبل أن أسلمه إياه. تناوله خالد شغوفًا. «ظريف!» لم يتوقف عند صفحة الصورة، بل أخذ يقلب أوراقه سريعًا حتى وصل إلى صفحة بعينها. كانت صفحة ١٣ التي لُصقت عليها تأشيرة دخول باكستان. دوّن في ورقة جانبية رقم التأشيرة ثم أعاد الجواز إليَّ.

لم يكن خالد من النوع الذي يسمح لدقيقة أن تمر دون أن يستفيد منها. كان الرقم المسلسل للتأشيرة من وجهة نظره معلومة في منتهى الأهمية؛ إذ إنها توفر على من يريد أن يزيف تأشيرة في المستقبل القريب ألا يقع في خطأ ظاهري. ومما لا شك فيه أن تزييف الوثائق والمستندات سلاح منتشر بين الجماعات السرية في «جهادها» ضد أعدائها.

مرت الآن أربع ساعات دون سيجارة. كنت فخورًا بقدرتي على تحملها، لكنني بعد قليل لم أكن على استعداد لدخول التاريخ دون مقاومة. كانت تلك الساعات الطوال وأجواء الترقب التي سبقتها قد بلغت مني مبلغها، ولم أكن أدري تمامًا كيف أفتح الموضوع. انحنى رمزي كي يضع طاولة الشاي على الأرض فسألته في تردد واضح وهو يهم بالتقاط كوبه: «أنا أعرف أنه ربما لا ينبغي عليّ أن أفعل ذلك، ولكن هل لي في أن أنتحي جانبًا لتدخين سيجارة؟».

وكأن أمله قد خاب، بدأ رمزي في إلقاء محاضرة في الدين والأخلاق والصحة والاقتصاد عليَّ. لكنّ المفاجئ أن خالد هو الذي تدخّل قائلًا: «مهلًا، مهلًا على الرجل. طالما أنه يعلم بمضارها سيقلع عنها إن شاء الله».

كانت تلك ربما أهم سيجارة دخنتها على الإطلاق، فسوى أنها ساعدتني على شحذ تركيزي، كانت أيضًا مؤشرًا إلى أنني أستطيع أن أكسب اثنين من أهم أعضاء تنظيم القاعدة إلى صفي حتى وهما غير مقتنعين. غمرني، وقد اقتربت الساعة من العاشرة مساءً، إحساس بأنني صرت واحدًا من «أهل الدار» سمح له بأن يتلمس طريقه نحو لب الموضوع. لدى تلك النقطة كنت قد فهمت أن رمزي هو كاتب الرسالة التي وصلتني في لندن عن طريق الفاكس تقترح عناصر فيلم تسجيلي عن الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. لكنني كنت قد فهمت أيضًا أن خالد هو الذي يسيطر على الموقف. كان القرار قراره كلما نشأت الحاجة إلى قرار.

استجمعت كل ما أملك من خبرة ولباقة وثقة، ونظرت إلى خالد في عينيه نظرة ثاقبة: «أنت الذي قام بتدبيرها!» لكنّ رمشًا في عينيه لم يتحرك. «لا تصوير اليوم»، رد حازمًا، «ولا تقلق بشأن الكاميرا والمصور. سنوفر لك كل ما تحتاجه غدًا». ثم أضاف رمزي ما تبقى من ترتيبات: «بعد الانتهاء، ستخرج من هنا مباشرةً إلى الطائرة».

لكنّ خالد لم يكن ليأذن لي بالنوم قبل أن يفجر مفاجأة أخرى نزلت عليَّ نزول الصاعقة: «أنا رئيس اللجنة العسكرية لتنظيم القاعدة، ورمزي هو منسق عملية الثلاثاء المبارك، ونعم؛ نحن الذي فعلها».

التوبة والأنفال

غاطًّا في نوم عميق على أرض (الحجرة ٥) في منزل القاعدة الآمن في كراتشي، شعرت بنقرة خفيفة متكررة على كتفي، وصوت هادئ مصمم: «أخ يسري! أخ يسري! صلاة الفجر».

بدأ اليوم الثاني في هذا المنزل «الآمن» في كراتشي بدايةً متوقعة: الصلاة مرةً أخرى وراء رمزي بن الشيبة. هرول خالد شيخ محمد، الذي كان لا يزال يمسح بذيل جلبابه آثار ماء الوضوء عن ذراعيه، فاتخذ موقعه بحذائي - كتفًا إلى كتف وقدمًا إلى قدم. من خلفي هرول وجه جديد منضمًا إلى المصلين.

«استقيموا يرحمكم الله»، أمرنا إمامنا قبل أن يقيم بنا صلاة الفجر التي استهلها بتلاوة آيات من السورة رقم ٩ من القرآن الكريم، سورة التوبة. لم يأت هذا الاختيار اعتباطًا.

كانت هذه السورة قد نزلت على الرسول، ﷺ، في العام التاسع للهجرة، لكنّ أكثر ما يميزها أنها السورة الوحيدة في القرآن الكريم كله التي لا تبدأ بالافتتاحية المعهودة: «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ إذ إنها حين نزلت كانت بمثابة إعلان حرب. ففي ذلك الوقت - القرن السابع الميلادي - كانت الامبراطورية البيزنطية المسيحية، وعقر دارها في القسطنطينية، قد بدأت تشحذ سيوفها للقضاء على القبائل المسلمة التي انطلقت من جزيرة العرب تتوسع في كل اتجاه. تتنبأ السورة بحرب عظمى ستقع

قريبًا، وتشير إلى غزوة «تبوك» التي تقاعست بعض القبائل عن الانضمام خلالها إلى صفوف المسلمين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾.[١]

كان المنافقون - كما دعاهم القرآن - هؤلاء الذين لم يتملك الإيمان من قلوبهم، شوكةً في خاصرة المسلمين. وفي هذه السورة أحكام تخصهم وتخص غيرهم من المسلمين وغير المسلمين. هي سورة عامرة بالعواطف حافزة للنخوة واعدة بالجوائز متوعدة بالأهوال، وقد كان إمامنا، رمزي بن الشيبة، أهلًا لذلك. انعقد لسانه أكثر من مرة وهو يتلو علينا آياتها بصوت جميل. ارتفع وانخفض وتهدج وبكى في نبرات مهيبة عندما وصل إلى هذه الآية:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.[٢]

هذه هي السورة نفسها - كما علمنا فيما بعد - التي كان على منفذي عمليات الحادي عشر من سبتمبر أن يرتلوها جهرًا وسرًّا وهم في طريقهم إلى التنفيذ، إضافةً إلى السورة رقم ٨ (سورة الأنفال) من القرآن الكريم. من وحي ما أتى في متن سورة الأنفال يمكن تحديد موعد نزولها بتلك الفترة الزمنية التي انقضت بين انتهاء غزوة بدر وتوزيع الأنفال أو الغنائم على المسلمين المنتصرين، وكلاهما وقع في العام الثاني للهجرة.

(١) الآيتان رقم ٣٨، ٣٩ من السورة رقم ٩ (التوبة) من القرآن الكريم.

(٢) الآية رقم ١١١ من السورة رقم ٩ (التوبة) من القرآن الكريم.

وفقًا لما ورد في القرآن الكريم، كانت قافلة مكية في طريق عودتها من الشام إلى مكة بعد انتهاء إحدى رحلاتها التجارية، وكان قائدها، أبو سفيان، يخشى أن تهاجمه قوات المسلمين في المدينة (يثرب) التي هاجر إليها محمد، ﷺ، قبل عام وبنى فيها قاعدة عسكرية مؤلفة ممن هاجروا معه من مكة ومن ناصروه في يثرب. أرسل أبو سفيان بأحد رجاله على ظهر ناقة مهرولًا برسالة استغاثة إلى قبائل مكة كي يخرجوا لإنقاذه إذا هاجمته قوات المسلمين. استجمعت كبرى قبائل مكة ـ قبيلة قريش التي ينتمي إليها أصلًا محمد، ﷺ ـ قواها ودفعت بجيش جرار في اتجاه الشمال حيث تقع يثرب على طريق التجارة مع الشام.

تحرك جيش المسلمين الصغير الذي لم يتعد قوامه ٣١٣ رجلًا بأسلحة بدائية عبر الصحراء لثلاثة أيام إلى أن رابطوا قرب بئر تسمى بدر. وهنا سمع المسلمون بأخبار جيش قريش الجرار الذي يسعى في اتجاههم من الناحية الأخرى للوادي.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.(١)

عندما رأى محمد، ﷺ، جيش قريش متفوقًا على جيش المسلمين بأكثر من الضِّعف عددًا وعدة، هابطًا باتجاهه عبر التلال الرملية، رفع رأسه إلى السماء داعيًا الله عز وجل: «اللهمَّ هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادُّك وتكذّب رسولك. اللهم فنصرَك الذي وعدْتني. اللهمَّ أحْنِهم الغداة».(٢)

(١) الآيات ١٢-١٦ من السورة رقم ٨ (الأنفال) من القرآن الكريم.

(٢) باب «ذكر سبب خروج النبي (ص)»، دلائل النبوة، البيهقي، ص ٨٧٤.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾.(١)

لا يلتبس فهم هذه الآيات الكريمة على العلماء والمفسرين؛ فهي تتحدث عن معارك بعينها وقعت في زمن بعينه. لكنّ هذه الفترة الزمنية بعينها من تاريخ الإسلام هي التي يستمد منها السلفيون الجهاديون، وبخاصة أعضاء القاعدة والمؤمنون بفكرها، قبس الجهاد. هم أيضًا يرون أنفسهم فئة قليلة معزولة من المجاهدين في مواجهة قوى عاتية ظالمة من الكفار. يعودون بعقولهم وأرواحهم إلى الأيام الأولى لظهور الإسلام فيجدون أن فئة قليلة من المسلمين لا تملك من العتاد سوى إيمان راسخ استطاعت بفضل الله أن تغير الخريطة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لجزيرة العرب. استطاعت أن تحوّل ظلم قريش الجاهلة وقهرها إلى زاد روحي غامر مكّنها في النهاية من تأسيس دولتها الجديدة والدفاع عنها ضد الكفار. هم أيضًا يحلمون بمثل ذلك ولا يقفون لدى مرحلة الحلم.

(١) الآيات ٦٥-٦٧ من السورة رقم ٨ (الأنفال) من القرآن الكريم.

فتح الأدمغة المدبرة

فترة من صدر الإسـلام لها شـوق وحنين في صدور كثير من المسلمين، يفتخرون بها ويتعلمون منها كثيرًا من الدروس. لكنّ لها لدى أصحاب القاعدة تأثيرًا مغناطيسيًّا: لها نكهتها، وعبقها، وطقوسـها، ورؤاها، وأسـاطيرها، وقاموسها الفريد. الناس وفقًا لفهمهم معانيها منقسمون إلى ثلاثة أقسام جامدة: مسلمين، وكفار، ومنافقين.

أما المسـلمون أنفسـهم - حتى اليوم - فينقسـمون في قاموس بـن لادن وأتباعه إلى قسـمين: مهاجرين وأنصار. فالمهاجرون هم هؤلاء المستضعفون الذين أُذن لهم بمغادرة بلاد الظلم والقهر والكفر إلى أن يتمكنوا من استجماع قواهم في بلاد أخرى قبـل أن يعـودوا إلى بلادهم للتعامل مع الأمر. والأنصار هم هؤلاء الكرماء الذين أُذن لهم باستقبال المهاجرين وتأييدهم في جهاد واحد لنصرة إله واحد ودين واحد.

انطلاقًـا من هذا المعنى بعينه اختارت جماعة «المهاجرون» اسـمها عندما انبثقت عن «حزب التحرير» الإسـلامي كي تتخذ من لندن يثربًا ومن بعض مسـلميها أنصارًا. تتملـك هذه الفلسـفة من زعيمهـا (عمر بكري) الـذي كان قد ولد في سـوريا قبل أن «يهاجـر» عبـر السـعودية إلى بريطانيا مسـتخدمًا جواز سـفر لبنانيًّا مـزورًا. يؤمن هذا الرجـل، الـذي يتجنبه كثير من المسـلمين المعتدلين، بـأن العالم ينقسـم إلى دارين: «دار حرب» يحل للمسـلمين دماء أهلها وأموالهم وأعراضهم، و«دار سلم» في اتفاق مـع المسـلمين أوعلى حياد. لكنّ ما يثير السـخرية أنه يعتبر لنـدن - حيث كان يعيش

حتى قريب على أموال الضمان الاجتماعي من جيوب دافعي الضرائب ـ دار حرب. بل إنها في رأي متطرف آخر يقبع الآن في أحد سجونها، هو المصري مصطفى كامل الشهير بـ «أبو حمزة»، دورة مياه مؤقتة.

يفكر كثير من المجاهدين في جبال أفغانستان وكهوفها في أنفسهم على هذا الأساس. وعلى هذا الأساس فإن أتباع القاعدة البنلادنية وأعضاء الجهاد الإسلامي الظواهري والمتطوعين الآخرين الذين خرجوا من بلادهم للجهاد في أفغانستان يعتبرون «مهاجرين»، فيما يعتبر أتباع الملا عمر الطالبيين وأعضاء الجماعات المحلية الأخرى في جنوب شرقي آسيا «أنصارًا».

ومما يلفت النظر في هذا السياق أنه ـ في بداية جهاده الأفغاني ـ كان أسامة بن لادن قد استأجر منزلًا في شارع جلال الدين الأفغاني في بيشاور، شمال غربي باكستان في اتجاه الحدود الأفغانية، سمّاه «بيت الأنصار». وعلى النسق نفسه، أطلق محمد عطا ورمزي بن الشيبة وعدد آخر من أعضاء خلية هامبورغ على شقتهم التي انتقلوا إليها عام ١٩٩٨، الواقعة في المبنى رقم ٥٤ في شارع ماريانيشتراسا في هامبورغ، اسم «دار الأنصار».

ليس غريبًا إذًا أن تطلق دائرة القيادة الداخلية لتنظيم القاعدة على عمليات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول اسم «غزوة مانهاتن»؛ إذ إنهم يؤمنون إيمانًا عميقًا بأنهم في مرحلة من الجهاد لتأسيس دولة إسلامية تشبه تلك المرحلة التي شهدها صدر الإسلام. وعليه، تصبح السنوات العشر من صدر الإسلام الواقعة بين عام ٦٢٢ ميلادية (عام هجرة الرسول ﷺ) وعام ٦٣٢ ميلادية (عام وفاته ﷺ) البيئة الأسطورية التي ينتمي إليها عقلًا وروحًا ونفسًا مدبرو أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ومنفذوها.

منذ غزوة بدر، أولى الغزوات في الإسلام، كان لكل غزوة دخلها الرسول ﷺ، أو أُجبر على دخولها، سبب واضح وهدف محدد. وعبر العصور المختلفة لدول

الخلافة الإسلامية تراوحت كثافة الغزوات التي دخلها قادة المسلمين، أوأُجبروا على دخولها، باسم الإسلام. لكنّ قادة المسلمين، ساسةً وعسكرًا، بقوا بشكل عام على مبادئ الرسول، ﷺ، في إعلان الحرب أو قبولها وفي الالتزام، قبل القتال وأثناءه وبعده، بخلق الإسلام والأنماط الإنسانية والاجتماعية المتعارف عليها في زمن من الأزمنة.

بدأت كلمة «غزوة» تتوارى واقعيًّا في النصف الثاني من عصر الدولة العباسية لصالح كلمات أخرى مثل «موقعة»، و«معركة». ثم اختفت رسميًّا كلمة «غزوة» بسقوط الدولة العثمانية في بداية القرن العشرين وظهور سلطة مركزية قوية من آل سعود في شبه الجزيرة العربية، وسط عالم تغيرت ملامحه إلى حد بعيد في أعقاب ما عرف فيما بعد بالحرب العالمية الأولى. ومن هنا، يمكن اعتبار «غزوتي واشنطن ونيويورك» محاولة لإعادة عجلة التاريخ إلى الوراء، ومحاولة لإخضاع الناس لما يرونه نموذج الرسول محمد، ﷺ.

في أعقاب الحدث المرعب الذي تابعه العالم بأسره يوم الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١، عُثر في مطار بوسطن لوجان على مخطوط يدوي، ربما يكون أكثر رعبًا، مكون من خمس صفحات في حقيبة متوسطة الحجم لراكب اسمه محمد عطا. بينما هرول هذا داخل أروقة المطار، لم يجد عمال المطار ما يكفي من الوقت لنقلها من الطائرة التي كانت قد وصلت للتو من مطار بورتلاند مين متأخرة كثيرًا عن موعدها إلى الطائرة التي بدأت تتهادى على أرض المطار في طريقها الذي تغير بعد الإقلاع إلى البرج الشمالي لمركز التجارة العالمي. يمثل هذا المخطوط دستورًا روحيًّا ودليلًا عمليًّا لإرشاد منفذي العمليات نحو ما ينبغي عليهم أن يفعلوا، وأن يقولوا، خطوةً بخطوة منذ خروجهم من أماكن انتشارهم حتى لحظة التنفيذ على متون الطائرات[١]:

---

(١) النص كما ورد في الوثيقة الأصلية بما فيه من أخطاء لغوية.

عندما تركب (ط)[1] أول ما تضع رجلك وقبل أن تدخلها فأتي بالدعاء والأدعية واستحضر أنها غزوة في سبيل الله وكما قال عليه الصلاة والسلام

(لغزوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها) أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وعندما تضع رجلك في (ط) وتجلس على كرسيك فقل الأذكار وأت بالأدعية المعروفة التي ذكرناها سابقًا

ثم كن منشغلًا بذكر الله والإكثار منه قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

ولأنهم كانوا في طريقهم لمواجهة أعتى قوة على وجه الأرض فإن المنفذين يُنصحون في هذا المخطوط بأن يتذكروا دائمًا قصة الملائكة الذين أيدوا المسلمين في غزوة بدر عندما كان جيش المسلمين فئة قليلة مستضعفة أمام جيش جرار فائق التسليح:

ابتسم واطمئن فإن الله مع المؤمنين.

والملائكة تحرسك وأنت لا تشعر.

ثم قل: دعاء (الله أعز من خلقه جميعًا بأسا) ...

وقل: (اللهم إنا نعوذ بك من فجورهم ونعوذ بك من شرورهم).

وقل: (اللهم اجعل لنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا وأغشهم فهم لا يبصرون).

وقل: (حسبنا الله ونعم الوكيل).

---

(١) يعتقد الكاتب أن حرف (ط) يرمز إلى كلمة (طائرة).

للأحلام والرؤى وتفسيراتها أيضًا موقع خاص في المعتقدات الروحية لأصحاب هـذا الفكـر، وأحـد معاني ذلك لديهـم أنهم قريبون مـن النبي محمـد، ﷺ؛ إذ إن من الحقائـق أن محمـدًا (ﷺ) لا تأتيه في نومه أضغاث أحلام، بل حقائق، وأن الشـيطان لا يسـتطيع أن يتمثـل صـورة النبـي (ﷺ) فـي أحـلام المؤمنيـن. ولهـذا فـإن ما يراه المجاهدون في منامهم ليس إلا وحيًا من السماء له دلالة خاصة.

في شريط فيديو من الواضح أنه سُجّل بعد أيام قليلة من الحادي عشر من سبتمبر/ أيلـول يظهر المتحدث الرسـمي باسـم القاعـدة أيامهـا، الكويتي سـليمان أبو غيث، متحدثًـا في صحبة زعيمه أسـامة بن لادن الذي كان يسـتضيف وقتهـا ضيفًا زائرًا من مكـة. يقـول أبو غيث موجهًا حديثه إلى الضيف: «رأيت في نومي أني أنا جلسـت مع الشـيخ (بن لادن) في الغرفـة، وإذا التلفزيون ينقل حدث ضخم... أسـرة مصرية... وشريط يمر على التلفزيون يقول: «انتقامًا لأبناء الأقصى، أسامة بن لادن ينفذ ضربات ضـد الأمريكان» ... قبل الحدث». وهنا يختطف بن لادن الحديث مفسـرًا للضيـف: «... الأسرة المصرية (يعني) محمد عطا يرحمه الله، كان مسؤول المجموعة».

كان لرمـزي بن الشـيبة أن يقص عليّ لاحقًا قصصًا مؤثـرة عن أحلام ورؤى كثيرة رآهـا «الأخـوة» المنفذون في الأيام القليلة التي سـبقت الحادي عشـر من سـبتمبر/ أيلول. ليس فقط في إحساسـه ومشـاعره، بل أيضًا في كلماته وتعبيراته اللغوية وغير اللغوية، يتحدث بن الشيبة عن النبي، ﷺ، وعن صحابته وكأنه يعرفهم معرفة شخصية وعاش معهم في زمن واحد ومكان واحد.

أمين الأمة

في اتصال هاتفي قبيل ساعة الصفر ألح رمزي بن الشيبة، منسق عملية الحادي عشر من سبتمبر، على محمد عطا أن يدعو له أثناء عملية الهجوم هو وإخوانه الباقون: «فهم في ساحة نزال وساحة قتال، وأن يسامحنا ويسامح الجميع في أي تقصير إن كنا أخطأنا في حقه وحق الأخوة الباقين. كان يؤكد لي أننا سوف نلتقي في الجنة إن شاء الله، وأن لقاءنا قريب بإذن الله، فطلبت منه إذا رأى النبي ﷺ وبلغ المنازل العُلى في الجنة أن يُبلغه منا السلام، ويبلغ أبا بكر وعمرًا وبقية الصحابة والتابعين والمجاهدين».

وعده عطا بتحقيق أمنيته، ثم قص عليه قصة طريفة عن «الأخ» مروان (الشحي) كان يعلم أنها ستثلج صدره: «محمد بلغني أن مروان والشباب الباقين عندهم رؤى طيبة. وكثير من هؤلاء كان عندهم رؤى كثيرة سواء في أفغانستان أو في أمريكا. وأن رؤى مروان جميلة جدًّا. كان يرى أنه يطير في السماء كالرجل الطائر، وأنه يدخل في أشياء. وأن مروان فرحان جدًّا وفرح بهذه الرؤى».

دليل آخر على التصاق هذه الذهنية بأطياف يرونها مرتبطة بأيام الإسلام الأولى يظهر في أساليب التعارف فيما بينهم؛ فرغم أن من غير النادر أن جميع المسلمين «أخوة»، فإن من النادر أن يكون لكل منهم في عالمنا اليوم كُنْية[1] لا تمت بصلة

(١) العربي، حتى قبل ظهور الإسلام، كان يُمنح اسماً معقوبًا بأسماء أسلافه، والبعض يُمنح أيضًا لقبًا، وهو عادةً ما يكون وصفًا لملمح خِلقي (من مثل الأعشى) أو لسلوك أو اتجاه (من مثل شداد) أو للمكان

لاسمه الحقيقي. إنها استعارة مباشرة من الماضي، وهو أمر مقصود في حد ذاته. فكل عضو يُمنح كنية هي في الواقع اسم لأحد الصحابة أو التابعين أو المجاهدين أو الأئمة أو الفرسان أو العلماء. شرُف كثيرون من أعضاء الدائرة الداخلية لتنظيم القاعدة بأن أسامة بن لادن نفسه (وكنيته «أبو عبد الله») هو الذي اختار لهم كُناهم. أحد هؤلاء هو رمزي بن الشيبة. كان من بين الشروط التي اضطررت لقبولها قبل إجراء الحوار مع ابن الشيبة وخالد شيخ محمد ألا أبوح لأحد بكنيتيهما. أما وأن رمزي بنفسه هو الذي اعترف للمحققين الأميركيين بكنيته[1] فقد صرت الآن في حل من وعدي، وصرت من ثم في موقف يسمح لي بتأكيد أن كنية رمزي بن الشيبة هي «أبو عبيدة»، تيمنًا بالصحابي الجليل أبي عبيدة بن الجراح.

تخدم الكنية في هذا الإطار هدفين في آنٍ معًا؛ فهي من ناحية تختزن جبالًا من التاريخ في كلمة واحدة تجتر نفسها كل مرة يُنادى على العضو، وبهذا تمثل باعثًا نفسيًّا وشاحذًا عاطفيًّا لا نظير له، ومن شأن ذلك أن يثلج صدر عضو مثل رمزي بن الشيبة، ومن ناحية أخرى هي في الواقع «اسم حركي» يمثل وجوده مسألة حيوية، وأحيانًا حاسمة، في مثل هذا النوع من العمل السري، ومن شأن ذلك أن يفتح شهية عضو مثل خالد شيخ محمد.

الذي ولد فيه أونزح منه أو ينتمي إليه (من مثل المكي) أو لنوع العمل الذي يقوم به (من مثل الإسكافي) أو لموقف ارتبط به (من مثل تأبط شرًّا)، إلخ. كثير من العرب اليوم يجدون جذور عائلاتهم في اللقب الذي يحملونه.

يكون أيضًا للعربي كنية، وهي بمثابة أسلوب غير مباشر للنداء، ربما احترامًا أو احتقارًا؛ فالمكنون من الأشياء هو ما خفي منها. تبدأ الكنية عادةً إما بـ«أبو» أو بـ«ابن»، يعقبها اسم مختلف عن اسمه لدى الميلاد. على سبيل المثال شاعر عربي شهير من العصر العباسي كان لقبه «أبو العتاهية»، وكنيته «أبو إسحاق»، لكنّ كثيرين لا يعرفون أن اسمه الحقيقي لدى الميلاد هو «إسماعيل ابن القاسم ابن سويد ابن الكيسان».

أما المعنى المعاصر للكنية فهو «أقل خفية»، وإن كان يختلف قليلًا من منطقة عربية إلى أخرى. ففي مصر مثلًا تتألف الكنية من «أبو+ اسم أكبر الأبناء»، بينما تتألف في منطقة الجزيرة العربية من «أبو+ اسم الأب». ولدى بعض الأسماء بعينها كنى خاصة ارتبطت بها؛ فمحمد مثلًا هو أيضًا «أبو القاسم»، وحسن هو «أبو علي»، وإبراهيم «أبو خليل»، ومصطفى «أبو درش»، إلخ.

(١) Georg Mascolo & Holger Stark, Operation: Holy Tuesday, Der Spiegel magazine, 27 October, 2003.

بعد أسابيع قليلة من ذلك اللقاء في ذلك المنزل الآمن في تلك الضاحية من كراتشي، بعث رمزي إليّ برسالة يجيب فيها عن مزيد من الأسئلة التي كانت قد واجهتني أثناء التصوير في دول مختلفة. كان أحدها يتعلق بكُنى «الأخوة» التسعة عشر الذين شاركوا في تنفيذ الهجمات. فيما يلي إجابة رمزي كما وضعها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الفاضل/ يسري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

هذه إجابة لجزء من أسئلتكم التي أرسلتموها والجزء الآخر تجدوه مرفقًا لكم في اللقاء الذي تم والمسجل صوتيًا حيث تعذر الحصول على النسخة الأصلية للأسباب التي تعلمونها.

وإليكم تفصيل كنى الأخوة التسعة عشر -أسأل الله أن يتقبل منهم- وبعض التفاصيل الأخرى وهي كالتالي:

الطائرة الأولى:

١- محمد عطا	أبو عبد الرحمن المصري	طيار - الأمير العام
٢- سطام السقامي	عزمي	
٣- وليد الشهري	أبو مصعب، وشقيقه	
٤- وائل الشهري	أبو سلمان	
٥- عبد العزيز العمري	أبو العباس الجنوبي	

الطائرة الثانية:

١- مروان يوسف الشحي	أبو القعقاع القطري	طيار
٢- فايز راشد بني حماد	أبو أحمد الإماراتي	
٣- حمزة الغامدي	جليبيب الغامدي	

٤- أحمد الغامدي	عكرمة الغامدي	
٥- مهند الشهندي	عمر الأزدي	

الطائرة الثالثة:

١- هاني حنجور	عروة الطائفي	طيار
٢- نواف الحازمي	ربيعة المكي	نائب الأمير العام، وشقيقه
٣- سالم الحازمي	بلال المكي	
٤- خالد المحضار	سنان	
٥- ماجد مقعد الحربي	الأحنف	

الطائرة الرابعة:

١- زياد الجراح	أبو طارق اللبناني	طيار
٢- سعيد الغامدي	معتز الغامدي	
٣- أحمد الحزنوي	ابن الجراح الغامدي	
٤- أحمد النعمي	أبو هاشم (سيد من آل البيت)	

وبقليل من البحث نكتشف أن من الواضح تأثير فترة صدر الإسلام على من اختار هذه الكُنى؛ فعبد الرحمن بن عوف هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومصعب بن عمير هو أول سفير في الإسلام، وسلمان الفارسي هو صاحب فكرة حفر خندق حول يثرب لحمايتها من الكفار، وأبو العباس بن عبد المطلب هو عم الرسول، ﷺ، والقعقاع بن عمرو التميمي هو من أشجع فرسان المسلمين الأوائل ومن أكثرهم ضجيجًا، وجليبيب الأنصاري وُجدت جثته إلى جانب جثث سبعة من الكفار بعد انتهاء غزوة أُحد، وعكرمة بن عمرو بن هشام هو ابن «عدو الله، أبو جهل» وقد خرج عن أبيه واعتنق الإسلام، وعمر بن الخطاب هو الفاروق ثاني الخلفاء الراشدين، وعروة بن مسعود الثقفي اعتنق الإسلام مبكرًا وعاد إلى قومه داعيًا فرموه بالنبال، وربيعة بن كعب هو خادم الرسول، ﷺ، وبلال بن رباح هو أول مؤذن للصلاة في الإسلام، والأحنف بن قيس هو صحابي جليل ذو رأي حسن، وأبو عبيدة بن الجراح هو أمين الأمة ومن أكثر الذين يعشقهم رمزي بن الشيبة.

أبو عبيدة في المطبخ

بعد انقضاء صلاة الفجر حان وقت الإفطار في منزل القاعدة الآمن. توجه رمزي بن الشيبة إلى المطبخ، بينما التقط خالد شيخ محمد هواتفه المحمولة وانتحى إلى أحد أركان الغرفة (٢) وأخذ يرسل الرسالة تلو الأخرى. بعد قليل انتشرت صفارات الاستقبال تعلن عن وصول رسائل إليه. لا شيء يبدو غريبًا في ملامحه أثناء الكتابة أو أثناء القراءة، اللهمَّ إلا يدان سريعتان سرعة العاصفة، وعينان متسعتان تشعان تركيزًا وانتباهًا. لا شيء سوى تعليق مفاجئ أتى على شكل غمغمة كأنه يحدّث نفسه في إشارة إلى الرئيس الباكستاني: «والله يا مشرّف يومك قريب».

كنت أنا في الوقت نفسه شغوفًا بذلك الوافد الجديد الذي كان يتبع خالدًا أينما انتقل. «الأخ من الصحابة المقربين للشيخ أبو عبد الله، حفظه الله»، همس رمزي في أذني وهو يضع دستة من البيض داخل إناء مليء بالماء تمهيدًا لسلقها، ثم استطرد: «لديه حكاية ظريفة لك». مد يديه إلى أعلى لالتقاط بعض الصحون ثم أضاف: «وبالمناسبة، من الأفضل أن تخترع له اسمًا لأنه لن يخبرك باسمه الحقيقي أوكنيته».

قررت أن أطلق على الوافد الجديد اسم «أبو أنس»، ولا أدري لماذا اخترت له هذا الاسم الذي أعجب الجميع. ربما أوحت لي به حقيقة قربه من بن لادن أو ربما كان شيء في ملامحه ومظهره يوحي بذلك.

«هل يذكّرك هذا بهامبورج؟»، وجّهت السؤال لرمزي الذي رد سريعًا: «ماذا؟ المطبخ؟!» ثم علت وجهه ابتسامة مليئة بالعواطف وخرجت منه رغمًا عنه زفرة

مشحونة قبل أن يستطرد: «هامبورج! أيام زمان الحلوة. طبعًا لا تفارق ذاكرتي. ولا أنسى أبدًا جميع الأخوة الذين شاركتهم كل لحظة، خاصةً هؤلاء الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الله. نسأل الله عز وجل أن يتقبلهم بين الشهداء». بينما امتلأ رمزي بالمشاعر أصريت على أن أقوم بنفسي هذه المرة بإعداد الشاي. كانت تلك لحظة اقترب رمزي فيها كثيرًا من الصحفي الزائر الذي بدا في عينيه كأنه يعرفه من سنوات، وكانت تلك فرصة أردت أن أستثمرها لفتح أكثر الموضوعات حساسية من وجهة نظرهم.

«ولكن يا أخ رمزي لقد قتلوا في طريقهم إلى ذلك مدنيين أبرياء!» ألقيت بها مستجمعًا كل ما لديَّ من دبلوماسية، غير أن الملاحظة لم تعجب رمزي الذي ظهر من رده الفوري أنه كان يتوقعها على أي حال. «هذا موضوع كبير»، قال رمزي بصرامة مستطردًا: «ولا أتوقع منك أن تخلط الأمور في برنامجك مثلما فعل كثيرون». ثم، محاولًا تغيير الموضوع، التفت إليَّ بسؤال: «هل شاهدت ذلك البرنامج الذي عرضه تلفزيون (بي بي سي) الذي صوروه في هامبورج وأمريكا؟»[1] أومأت إيجابًا بينما استمريت في الاستماع إلى رمزي وهو يصدر حكمه: «لقد كان جيدًا، جيدًا جدًّا، ولكن فقط من وجهة نظر غربية».

دق جرس الباب فدلف بعد قليل وجه آخر جديد رجّحت أن يكون رسولًا آخر من رسل خالد. فمنذ أتوا بي إلى هذا المنزل الآمن وهم لا ينقطعون جيئةً وذهابًا. بعضهم يحمل رسائل، وبعضهم يأتي بالطعام والشراب، لكنهم جميعًا يغادرون بتعليمات يهمس بها في آذانهم رئيس اللجنة العسكرية لتنظيم القاعدة، خالد شيخ محمد. غير أن ظني خاب هذه المرة؛ فالذي أتى كان مصور القاعدة، أبو يوسف (كما دعاه خالد)، حاملًا في يده إلى أحد أركان الغرفة (٢) حقيبة بلاستيكية صغيرة كان بها كاميرا في حجم الكف من طراز Sony mini DV Handycam وميكروفون سلكي دقيق يمكن شبكه في ياقة القميص وخمسة شرائط مدة كل منها ٦٠ دقيقة، ولا يوجد

---

(١) يقصد الحلقة التي أعدتها وقدمتها المحققة الصحفية البريطانية جين كوربن من برنامج «بانوراما» التي أذاعتها القناة الأولى لتلفزيون (بي بي سي) في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠١.

معـه ذلك الحامل ثلاثي الأضلاع الذي يضـع المحترفون الكاميرا عليه أثناء التصوير لضمان ثبات الصورة.

«لا تقلق من ذلك»، هتف خالد من الغرفة (٥) فيما أشـار إلى أبو يوسـف بالتوجه إلى الغرفة (١) موجهًا كلامه إليّ: «سيجد حلًّا. كل مشكلة لها حل».

حان الآن الوقت الذي قرر فيه خالد شيخ محمد ورمزي بن الشيبة أن يقوما بإجراء مقابلـة تحضيرية معي قبل أن يسـمحا لي بإجراء مقابلـة تلفزيونية معهما. كنت أتوقع دائمًا أنهما سـيكونان في موقف يسمح لهما بالتحكم في ظروف المقابلة. هذه ليست أرضًـا محايـدة ولا سـاعةً محايـدة ولا ظروفًا محايـدة. كنت أعلم ذلك تمـام العلم، لكننـي أيضًـا كنـت أعلم أن تنظيـم القاعدة كان يعلـم تمام العلم، منـذ ذلك الاتصال الهاتفـي الـذي تطوع به أبو بكر، أنه قد دخل معـي في اتفاق غير مكتوب أبرز ملامحه هو الطبيعة التحقيقية لبرنامج «سـري للغاية» الذي يعلم كل من شـاهد أيًّا من حلقاته أنـه يعتمد في مادتـه على الحقائق والمعلومـات والتفاصيل، خاصـةً منها ذلك الذي لا يعرفه كثيرون. وبالمقابل، كنت أنا على اسـتعداد للبقاء أسـبوعًا كاملًا أسـتمع إلى جـدل عقائـدي، فارغ أوغير فارغ، إذا اسـتطعت فـي النهاية أن أعود بعشـر دقائق من الحقائق والكلام المباشـر. ومن أجل هذا اسـتمعت، ثم استمعت، ثم استمعت، ولم أكن مضطرًّا إلى عمل شيء آخر سوى أن أستمع.

منـذ تلـك المكالمة الهاتفيـة التي أتت من بيـن ضلوع الغيب على صـورة أبو بكر تراوحت الأفكار يمينًا ويسـارًا في ذهني: من عسـاه يكون في انتظاري لدى نهاية خط المغامـرة؟ بن لادن ربمـا؟ أم نائبه، الداهية المصري، أيمن الظواهري؟ أم أنهما صيد أثمـن من أن أضيع وقتًا في الانشـغال بـه؟ لكنهما، من ناحية صحفيـة بحتة، يدخلان في مسـاحة ملامحها رمزية أكثر من أي شـيء آخر. بعبارة أخرى، هما يجلسـان على قمة الهرم، مباشـرةً أمام عدسـات المصورين، مباشـرةً أمام أتباعهـم. وبهذا المعنى، يصبـح أي منهما صيدًا ثمينًـا وضيفًا مثاليًّا في أي برنامج على قنـاة الجزيرة أوغيرها، عدا برنامج «سـري للغاية». الصيد الأثمن والضيـف الأكثر مثالية في برنامج كهذا لم يكن سـوى خالد شـيخ محمد أورمزي بن الشـيبة، فما بالك بهما معًا في غرفة واحدة

في وقت واحد؟! كنت لذلك محظوظًا بأن الذي كان في انتظاري لدى نهاية خط المغامرة لم يكن ذلك الذي تمنى أن يؤذي أميركا، بل ذلك الذي **خطط** ثم **نفذ**.

ها هما، الرأسان الكبيران لأخطر عملية إرهابية في التاريخ، مستريحان في هدوء ووداعة، مستعدان للحديث. أخيرًا قرر أبرز صناع الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول أن يخرجا عن صمتيهما. أمامي جلسا في تواضع متربعين على أرض الغرفة (٥) يتذكران المراحل المختلفة للتخطيط والتنفيذ التي انتهت بما يسميانه «عمليات الثلاثاء المبارك» أو «غزوتي واشنطن ونيويورك».

«قبل نحو عامين ونصف العام من الغزوات المباركة في واشنطن ونيويورك»، قاد خالد الحديث بلهجة كويتية متسارعة: «عقدت اللجنة العسكرية (لتنظيم القاعدة) اجتماعًا تقرر خلاله أن نبدأ في التخطيط لعملية استشهادية داخل أميركا».

نظر إلى أعلى ثم إلى أسفل ثم إليّ، ثم استطرد: «بينما كنا نناقش الأهداف، فكرنا أولًا في ضرب عدد من المفاعلات النووية، ولكننا عدلنا عن ذلك التفكير خوف أن تخرج الأمور عن السيطرة». ثبّت خالد نظره على ملامحي فقرأ بسهولة وقع المفاجأة. رمقني بابتسامة العالم حين يتحدث إلى جاهل، ثم استطرد في لهجة حاسمة: «لستَ مضطرًّا إلى معرفة المزيد عن ذلك الموضوع لدى هذه المرحلة. وعلى أي حال قررنا في النهاية استثناء الأهداف النووية ـ حتى الآن على الأقل».

= ماذا تعني بـ «حتى الآن»؟

• «حتى الآن» يعني «حتى الآن».

رد خالد بحزم واضعًا للموضوع نهاية، ثم التقط نفَسًا طويلًا قبل أن يستكمل قصته. «كان اختيار الأهداف مصمَّمًا بحيث يوقع أكبر عدد ممكن من القتلى ويتسبب في أكبر قدر ممكن من الفوضى، وبحيث يكون في النهاية صفعة كبرى لأميركا على أرض أميركية أمام العالم كله».

= ومن عساه يقوم بتنفيذ ذلك؟

● «لم يكن أبدًا ينقصنا الاستشهاديون، بل إن لدينا في التنظيم قسما اسمه «قسم الاستشهاديين» يضم عددًا كبيرًا من الأخوة الذين يتشوقون إلى اليوم الذي يحين فيه دورهم».

= وهل لا يزال هذا القسم ناشطًا؟

● «نعم، بكل تأكيد، وسيبقى دائمًا ناشطًا طالما كنا في جهاد ضد الكفرة والصهاينة. لدينا ما لا يُحصى من المتطوعين، بل إن مشكلتنا الوحيدة في ذلك الوقت كانت تتلخص في أن نختار من بين هذا العدد الكبير من المتطوعين أخوة يناسبون ظروف العملية، بمعنى أن يكونوا على قدر من الإلمام باللغة الإنجليزية وأساليب الحياة الغربية».

كان محمد عطا بهذا المعنى هدية السماء لخالد شيخ محمد، ولولاه -في رأيي- لما تمت عملية الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول.

اجلس أمامي

جاء الدور الآن على رمزي بن الشيبة كي يقطع تسلسل الحديث بين خالد شيخ محمد والصحفي الذي لم يكن في حاجة إلى مزيد من المفاجآت بمفاجأة أخرى. كان رمزي قد غادرنا في منتصف الحديث قبل أن يعود من الغرفة المغلقة رقم (٣) حاملًا حقيبة ملابس صغيرة رمادية يعلوها التراب وجروح الزمن. بينما همّ بفتحها على الأرض التقت عيناه بعينيّ، فبادر مبتسمًا: «نعم! هي ذكرياتي في هامبورج، وأنت أول من نسمح له بالاطلاع عليها». انفتح الجزء العلوي للحقيبة بصعوبة فأسفر عن باطن مليء بشتات الأشياء. مد رمزي يده وأخذ يستخرج من باطن الحقيبة إلى أرض الغرفة «ذكرياته»، واحدةً تلو الأخرى. مرت دقيقة أو اثنتان قبل أن أقع في حصار «ذكريات» رمزي ـ المواد نفسها التي استخدمها مع محمد عطا وإخوانه الآخرين في التخطيط الدقيق لعمليات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول.

كان منظرًا مقتبسًا من فيلم سينمائي قائم على سيناريو ركيك تلعب الصدفة فيه دورًا أكبر مما تلعبه الحبكة المهنية المحترفة. قبل وصولي إلى تلك اللحظة، لم أكن أشك في أن لرمزي بن الشيبة دورًا حيويًّا في تطور خلية هامبورج إلى أن أصبحت الخلية المحورية لعملية «الثلاثاء المبارك»، ولكن الآن، في هذه اللحظة، أمام عينيّ وحواليّ، تقبع، حيةً تكاد تتكلم، المواد نفسها التي استخدمها خالد ورمزي وعطا وجراح والشحي وغيرهم للهجوم على أعتى قوة على وجه الأرض في عقر دارها،

مـواد تبـدو الآن للناظـر هادئةً وديعةً مسـالمةً بريئة، وكأنها في يوم مـن الأيام لم تقتل أكثـر من ثلاثة آلاف روح: أحد المجلدات المصقولة لشـركة بووينج، جداول طيران شـركة أميريـكان إيرلاينز، كتاب ضخـم للمتخصصين يركز على شـرح كيفية الإتيان بمنـاورات جوية، خريطة ملاحية دقيقة للسـاحل الشـرقي للولايـات المتحدة، كتب وكتيبـات متعـددة لتعلُّـم اللغة الإنجليزيـة الدارجة، عشـرات من أقـراص الكمبيوتر الممغنطـة وغير الممغنطة تخزّن رسـائل إليكترونية ومواد متعلقة بالتخطيط، وأخرى تحتوي على شـرح بياني محترف لكيفية الطيران من خـلال محاكي طرازات مختلفة من الطائرات، وأخرى تبدو في غاية البراءة.

كانـت جميعًـا فـي شـقة هامبورج التـي تقاسـمها رمزي مـع محمد عطـا، مروان الشحي وسعيد بحاجي وسعيد الصابر في الطابق الأول من المبنى رقم ٥٤ في شارع ماريانيشتراسـا فـي هاربـورج، إحـدى ضواحي هامبـورج. عندما أُبلغ رمزي بسـاعة الصفـر ضغط علـى زر لإنذار خلايـا أوروبا وأمريـكا باتخاذ التدابيـر الاحتياطية، ثم جمع هو أغراضه، بما فيها «ذكريات هامبورج»، وطار بها آلاف الأميال إلى باكستان.

«انتظـر! انتظر!» هتفـت برمزي الذي كان لا يزال يرص مزيـدًا من «ذكرياته» على أرض الغرفة (٥). فإلى جانب سلسلة معقدة من الرسومات البيانية التي تشرح «كيف تنفـذ مناورة جوية مفاجئة» لمحت فقـرات بعينها وضع أحدهم تحتها خطوطًا وكتب إلـى جانبها بعض الملاحظـات بالقلم الرصاص. مدركًا شـغفي، التفت رمزي قائلًا: «آه! هـذا خـط الأخ أبو عبد الرحمن، رحمه الله»، في إشـارة إلى محمد عطا. غير أن رمزي لاحظ أنني تسـمّرت أمـام الملاحظات التي كُتبت بخـط رديء لم يماثل كثيرًا ما قيل للعالم كله إنه خط محمد عطا في تلك الوثيقة التي وجدها عمال مطار بوسطن لوجـان فـي حقيبته التـي لم يُقدّر لهـا أن تلحقه على متـن طائرة المـوت. كانت تلك الوثيقـة بمثابة تعليمات مباشـرة للمشـاركين فـي التنفيذ تلفت انتباههـم إلى ما ينبغي عليهم أن يفعلوا وأن يقولوا بدءًا بالليلة السـابقة للهجوم وانتهاءً بالشـهادة، ومن أبرز هذه التعليمات التي كُتبت بخط أنيق وإن كان على عجل:

التبايع مع الموت وتجديد البيعة.. حلق الشعر الزائد من الجسم والتطيب..

قـراءة سـورة التوبـة والأنفال وتدبـر معانيهمـا وما أعـده الله مـن النعيم المقيم للشـهداء..

تذكير النفس بالسـمع والطاعة تلك الليلة فإنك سـتتعرض لمواقف حاسمة لا بد فيها من السـمع والطاعة (١٠٠٪) فروّض نفسك وفهّمها وأقنعها وحرّضها على ذلك..

صفّ قلبك ونقّه من الشوائب وانسَ وتناسَ شيئًا اسمه الدنيا، فقد مضى زمن اللعـب وجاء الموعد الحق، وكـم ضيعنا من أعمارنا من أوقات، أفلا نسـتغل تلك الساعات لتقديم القربان والطاعات..

وإذا مَـنّ الله على أحدكم بالذبح فلْيَنْوِهـا عن أبيه وأمه فإن لهما حقًا عليك، ولا تختلفوا واسمعوا وأطيعوا.

شـرح رمـزي ببسـاطة ذلك اللغط الـذي أُثير حـول الوثيقة؛ فلم يكـن محمد عطا كاتبها، وإنما الذي كتبها كان عبد العزيز العمري، رفيق عطا في اليومين الأخيرين من حياتيهما. ورغم أن العمري، وكنيته أبو العباس الجنوبي، كان من أصغر المنفذين سنًّا فقد كان مشـهودًا له بين أقرانه، بل لدى القيادة العليا للقاعدة، بالإلمام بشـئون الدين والفقه والحكمة، على حد قولهم.

ويدعم هذا الاكتشـاف إصرار والد محمد عطا عندما ظهرت هذه الوثيقة على أن ابنـه لم يكن ليكون كاتبها: «إن خط ابنـي خط مضحك، وأنا أعلنها الآن أمامك لأول مرة؛ فلا يمكنك عندما ترى خطه أن تميز بين ما إذا كان ذلك الخط ينتمي لطفل صغير أم لمهنـدس معمـاري». غير أنني عندما تحديتـه أن يظهر أمام الكاميـرا عينة من خط ابنه رفض والد عطا بحجة أن «الأمريكان سـيأخذون خطه ويُدخلونه في كمبيوتر كي يقوموا بعد ذلك بتشكيل ما يريدون أن ينسبوا من كلام إلى ابني».

لمْلَـم رمـزي «ذكرياتـه» إلـى جانب وهـو يتكئ علـى الجـدار مربّعًـا رجليه على الأرض. يتحـدث الآن عـن رغبته الحميمة التي لم تتحقق في المشـاركة بشـكل أكثر مباشـرةً في «عمليات الثلاثاء المبارك». كان قد قدم أوراقه ثلاث مرات إلى سـفارات أميركيـة مختلفة للحصول على تأشـيرة دخول للتدرب على الطيـران، وثلاث مرات

رُفض طلبه على أسس أمنية. أصر رمزي، ولم يكن لديّ شك في صدقه، على أنه كان يتحرق شوقًا إلى أن يلعب دورًا أكثر مباشرةً في تنفيذ العمليات: «علينا أن ندفع ضريبة إذا كنا نريد دخول الجنة».

ثم يؤكد الذي لم يكن قد فقد الأمل بعد في أن يصبح «شهيدًا» أن محمد عطا هو الذي أتى له من أميركا بمعظم محتويات ما يطلق الآن عليه «ذكريات هامبورج». حفظ رمزي جداول طيران شركة أميريكان إيرلاينز عن ظهر قلب وصار خبيرًا في فهم الرموز الملاحية المرتبطة بها، تلك المعرفة التي استخدمت فيما بعد لتنسيق عمليات اختطاف أربع طائرات دفعةً واحدة والسيطرة عليها.

على أرض الغرفة (٥)، حيث اعتادوا جميعًا أن يجلسوا ويتحدثوا ويأكلوا وينامو ا، قمت بمساعدة رمزي في توزيع «ذكرياته» بصورة منظمة تمهيدًا لتصويرها. كان لي أن أنغمس بعد ذلك في تصويرها بنفسي من كل زاوية ممكنة. أثناء التصوير الذي استمر ساعةً تقريبًا كان صوت رمزي يخترق عليّ تركيزي من وقت لآخر مقترحًا عليّ هذا أو ذاك، لكنّ شيئًا لم يكن ليقطع عليّ واحدةً من أهم لحظاتي الصحفية.

قبيل ذلك مباشرةً كان خالد قد حدد الغرفة (١) لتسجيل اللقاءات؛ إذ كانت شبه منعزلة ولم يكن بها سوى نافذة واحدة صغيرة. وكان مصور القاعدة، أبو يوسف، يتنقل هنا وهناك معطيًا الانطباع بأنه مصور محترف يفهم ما يقوم به. لحسن الحظ، والفضل هنا لشركة سوني، أن هذا النوع من الكاميرات لا يعز تشغيله على طفل. غير أنه أظهر قدرةً على الإبداع في حل مشكلة غياب حامل الكاميرا عندما وضعها ببساطة فوق حافة صندوق فارغ. حملقت في هذا المنظر بقليل من الاقتناع، ثم وافقت عندما لم أجد بديلًا آخر. انتحيت بالمصور الذي كان يتصبب عرقًا حتى قبل أن يبدأ العمل وأخذت أشرح له أسلوب البرنامج وأحجام اللقطات وكيفية التصرف أثناء تصوير المقابلات. بينما كان خالد يحوم حولنا ناظرًا مرةً إلى أعلى ومرةً أخرى إلى أسفل ثم إلى زاوية رؤية الكاميرا، استطردت في حديثي إلى أبو يوسف: «من الأفضل أن تنسى كل ما قلته لك. فقط اربط مفاتيح الكاميرا على لقطة صدرية ودعها تصور».

جلست أمام الكاميرا ودعوت خالد إلى النظر في محدد الرؤية، ثم سألته: «هل أنت راضٍ عن هذه اللقطة؟» لكنّ الرجل الذي انشحذت لديه حواس الأمن لم يكن مستريحًا بعد. صاح بصوت عال على أبو أنس: «احضر لي تلك العباءة البنية ـ بسرعة». عندما هرول بها أبو أنس أمسك خالد بأحد أطرافها وألقى بالطرف الآخر إلى رمزي ثم ثبتاها على الجدار المواجه للكاميرا قبل أن يعود للنظر مرة أخرى من خلال محدد الرؤية. رغم أنه بدا هذه المرة أقل انزعاجًا غادر الغرفة ثم عاد سريعًا مرتديًا عباءةً أخرى تغطيه من الرقبة حتى الإخمص. بينما انفجر الحضور ضاحكين خلعها ووضعها على كتفي رمزي طالبًا منه أن يجلس متدثرًا بها أمام الكاميرا ثم عاد مرةً ثالثة للنظر من خلال محدد الرؤية. تقهقر خطوةً إلى الوراء ووضع يديه على جنبيه موجهًا حديثه إليّ: «يمكننا الآن أن نبدأ. اجلس أمامي».

مخالب النمر

بدأت الكاميرا في الدوران، وعندما بدأت في الدوران كان رئيس اللجنة العسكرية لتنظيم القاعدة قد تحول فجأة إلى شخص آخر. حاول أن يبدو زعيمًا دينيًّا أوسياسيًّا، فأدركته ضحالة معرفته بأمور الدين والسياسة. حاول أن يبدو خطيبًا مفوّهًا، فلم يستطع بناء جملتين صحيحتين بالعربية الفصحى، وبعد ذلك كله خلط ما قاله الله بما قاله الرسول، ﷺ.

أكثر من مرة اضطررت إلى تصحيحه، وفي بعض المرات اضطر كلانا إلى استشارة رمزي بن الشيبة. تصبب خالد عرقًا كثيفًا من حرارة الغرفة، وأيضًا من الخجل، إلى حد أن التصوير توقف مرتين أو ثلاثًا كي يجفف عرقه. لم يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق حتى بدأت مخالب النمر المتوثب دائمًا في التساقط واحدًا تلو الآخر. فجأةً لم يعد خالد شيخ محمد ذلك الرجل الذي يُهاب جانبه إلى ذلك الحد.

في ثنايا الحوار المسجل الذي استمر نحو ٧٠ دقيقة كان خالد يشير إلى رئيسه بن لادن أحيانًا باسم «الشيخ أبو عبد الله»، وأحيانًا أخرى باسم «الشيخ أسامة»، أو- ببساطة - «الشيخ». غير أنه كان دائمًا ما يشير إليه مستخدمًا الفعل المضارع مشفوعًا بالدعاء إلى الله عسى أن يحميه من مكر المتربصين. مرةً واحدة، رغم ذلك، صدر عن خالد أثناء إجابة عفوية ما ظننته زلة لسان عندما أشار إلى بن لادن مستخدمًا الفعل الماضي قبل أن يتدارك نفسه سريعًا. لم أستطع فيما تلا تلك المقابلة من أسابيع مقاومة التمعن في مغزى هذه «الزلة» من مختلف جوانبها، لكنّ شريطًا صوتيًّا ظهر

في نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٢ (بعد المقابلة بنحو سبعة أشهر) أوحى بأن زعيم القاعدة أفلت من قبضة الأميركيين في تورا بورا، وهو ما أكده شريطان آخران بصوت بن لادن ظهرا في فبراير/ شباط عام ٢٠٠٣.

أما ما لم يستطع خالد أن يداريه فهو حقيقة أفصحت عن نفسها في أكثر من صورة أثناء اللقاء المسجل وعلى مدار تلك الساعات الثماني والأربعين كلها: أنه رجل تخطيط وحركة أكثر منه رجل فكر ودين. لو افترضنا أن لكل منهم بطاقة تعارف فسيكون بن لادن «رئيس مجلس الإدارة»، وسيكون أيمن الظواهري «نائب رئيس مجلس الإدارة»، بينما سيكون خالد شيخ محمد «عضو مجلس الإدارة المنتدب/ المدير التنفيذي». أما رمزي فسيكون الموظف المخلص الذي يصل إلى مقر العمل قبل بقية الموظفين ويغادر بعدهم - ذلك النوع من الموظفين الذي يقفز اسمه كل مرة إلى ذهن رئيسه في حالات الطوارئ، تواقًا للمساعدة في كل شيء.

وما يثير المفارقة أن تنظيم القاعدة «شركة» بأكثر من معنى، ومنها ذلك المعنى المباشر الذي قُصد رمزًا في مراسلات أيمن الظواهري إلى بعض أتباعه. من هذه المراسلات خطاب عثر عليه الأميركيون في الكمبيوتر الشخصي له بعد سقوط طالبان، وهو خطاب مليء بالرموز كي يبدو بريئًا إذا وقع في أيدي من لا يراد لهم أن يقع في أيديهم. جاء في الخطاب الذي يحمل توقيع «الدكتور نور، رئيس مجلس إدارة الشركة» بتاريخ ٣ مايو/ آيار عام ٢٠٠١:

> الأخوة الكرام، أرجو أن تكونوا في خير حال، وأن يجمع الله بيننا على ما يحب ويرضى.
>
> أشتاق كثيرًا إلى رؤيتكم، فعسى ربنا أن يجمع بيننا كثيرًا في بلادنا مجتمعين، وبعد. ألخص لكم أحوالنا:
>
> أننا نحاول العودة إلى نشاطنا الأساسي السابق، وكانت أهم خطوة هي افتتاح المدرسة، كما أننا فتحنا هنا للأساتذة باب التجارة الرابحة.. وكما تعلمون فإن الوضع

تحت في القرية أصبح سيئًا أمام التجار، فأقاربنا الصعايدة تركوا السوق، ونحن نعاني من شركات الاحتكار الدولية والخلافات بيننا لأسباب واهية، مع قلة الإمكانيات وتفرقنا بمدن متعددة، ولكن الله فتح علينا باب رحمة بقيام شركة إخوان عمر التي فتحت السوق للتجار ووفرت لهم فرصة إعادة ترتيب أوراقهم، فجزاهم الله خيرًا.

ومن فوائد التجارة هنا اجتماع التجار من كل مكان معًا في مكان واحد تحت هذه الشركة، فزاد التآلف والتعاون بينهم، وعلى الأخص بيننا وبين شركة عبد الله للمقاولات ....

لكن الخطاب البريء لا يعود بريئًا في عيون أعدائه حين تفك رموزه غير المعقدة على النحو التالي:

الأخوة الكرام، أرجو أن تكونوا في خير حال، وأن يجمع الله بيننا على ما يحب ويرضى.

أشتاق كثيرًا إلى رؤيتكم، فعسى ربنا أن يجمع بيننا كثيرًا في بلادنا مجتمعين، وبعد. ألخص لكم أحوالنا:

أننا نحاول العودة إلى الجهاد المسلح، وكانت أهم خطوة هي إعلان الوحدة مع تنظيم القاعدة، كما أننا أتحنا هنا للمجاهدين فرصة الشهادة .. وكما تعلمون أن الموقف في مصر أصبح صعبًا أمام المجاهدين، فأقاربنا الصعايدة تركوا السلاح، ونحن نعاني من التضييق علينا دوليًا، ومن الخلافات بيننا لأسباب واهية، مع قلة الإمكانيات وتفرقنا بمدن متعددة، ولكن الله فتح علينا باب رحمة بقيام دولة طالبان التي فتحت الباب للمجاهدين ووفرت لهم فرصة إعادة ترتيب أوراقهم، فجزاهم الله خيرًا.

ومن فوائد الجهاد هنا اجتماع المجاهدين من كل مكان معًا في مكان واحد تحت مظلة تنظيم الجهاد الإسلامي، فزاد التآلف والتعاون بينهم، وعلى الأخص بيننا وبين تنظيم القاعدة...

ثم هناك حقيقة انخراط القاعدة في أنشطة تجارية ومالية متنوعة لأسباب مختلفة؛ إذ إن بن لادن نفسه أسس مشاريع تجارية ضخمة في السودان في أوائل التسعينيات كرصف الطرق والمقاولات. أما في أفغانستان فقد قام ببناء الكثير من الخنادق والمخابئ في بطون الجبال، ولدى دخولهم أفغانستان أو مغادرتها وصف كثير من أتباعه أنفسهم بأنهم تجار عسل. وفي شرق أفريقيا خلقت القاعدة كثيرًا من فرص العمل والتجارة بسيطرتها على تجارة بعض المعادن والأحجار الكريمة التي تستعمل في صناعة الحلي.

كنت أعلم ذلك وأنا أختتم حديثي المسجل مع خالد شيخ محمد. بينما تنفس هذا الصعداء أتى الدور على رمزي في الركن المقابل من الغرفة نفسها، الغرفة (١). كان رمزي قد قام بتغطية الجدار الذي يستند الآن إليه وهو جالس على الأرض بسجادة بلاستيكية مزركشة الألوان، لكنه - على عكس خالد - لم يكن مهتمًّا بارتداء عباءة تغطي تضاريس رقبته وكتفيه وصدره. «من الأفضل أن أكون طبيعيًّا»، علّق رمزي مستطردًا، «وعلى أي حال سنحتفظ بالشرائط لدينا لمراجعتها قبل أن نرسل بها إليك في غضون ثلاثة أسابيع».

= «ثلاثة أسابيع؟!!!» انفجرت في وجهه.

● «لا بد، يا أخ يسري، من أن نقوم بإدخال تعديلات إليكترونية على أصواتنا، وبحذف ما نراه من مقاطع لا تصلح للنشر لأسباب مختلفة، وربما أيضًا بتغطية وجوهنا».

اقترحت عندئذ أن أقوم بنفسي بعمل ذلك كله مستعينًا بالإمكانات الفنية الجيدة المتوفرة في مقر قناة الجزيرة في الدوحة، لولا أن خالد تدخل قائلًا: «إنكم تستخدمون أسلوب الموزاييك»، في إشارة إلى تحويل الوجه إلى مربعات صغيرة ضبابية لإخفاء معالمه، «وهو أسلوب من السهل معه إعادة الوجه إلى أصله ببعض المعالجات الفنية». وهنا أضاف رمزي بابتسامة واثقة: «إن لدينا شركتنا، شركة السحاب، ونستطيع بسهولة التعامل مع الأمر، فلا تقلق». وقد كان هذا صحيحًا؛

بل إن المحققين وجدوا في أعقاب القبض على رمزي في سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٢ مئات الشرائط والأسطوانات الممغنطة، الأصلية والمستنسخة.

لإثبات ذلك توجه خالد إلى الغرفة (٣) المغلقة، وعاد منها بعد قليل حاملًا صندوقًا صغيرًا. «هذه الأغراض لك»، قال خالد موجهًا كلامه لي بينما كان يفتح الصندوق ويناولني عددًا من الأسطوانات الممغنطة CD-ROMs وشرائط الفيديو الصغيرة Mini DV Cassettes ثم بدأ يشرح: «هذه وصية الأخ ابن الجراح[١] باللغة العربية؛ وهذه وصيته مترجمة على الشاشة إلى اللغة الإنجليزية من أجل «أصدقائنا» في لندن؛ وهذه نسخة من فيلم تسجيلي قمنا بإعداده عن الحروب الصليبية الجديدة، وهو الفيلم الذي قررتم أنتم ألا تبثوه[٢]؛ أما هذا الشريط فهو لقطع رقبة الصهيوني دانييل بيرل. يمكنك أن تستخدم ما شئت من مواد على هذه الشرائط، بل إننا نريد منك إذا استطعت أن تقوم بتوزيع نسخ منها على وكالات الأنباء وقنوات التلفزيون الغربية، خاصةً منها الفرنسية».

أُتيح لي بعد عودتي أن أشاهد فيلم الذبح هذا مرة واحدة كانت كافية أن تحرمني من النوم ثلاثة أشهر.

---

(١) كنية السعودي أحمد الحزنوي، أحد الأربعة الذين قاموا باختطاف رحلة شركة يونايتد إيرلاينز رقم ٩٣ التي قادها اللبناني زياد الجراح وتحطمت فوق بنسلفانيا. وكانت قناة الجزيرة قد بثت للمرة الأولى مقاطع مجتزأة من وصيته قبل لقاء يسري فوده بخالد ورمزي في كراتشي بأيام قليلة.

(٢) استلمت قناة الجزيرة نسخة من هذا الفيلم الذي لم يكن من الناحية التحريرية أكثر من مرثية لشهداء المجاهدين الذين سقطوا في نضالهم ضد الاحتلال السوفييتي لأفغانستان أو فيما تلا ذلك من اقتتال أفغاني/ أفغاني. وعندما لم تجد الجزيرة قيمة صحفية كبرى في هذا الشريط أرسلت القاعدة لأول مرة شريطًا إلى مركز تلفزيون الشرق الأوسط MBC كان عبارة عن نسخة أخرى من الفيلم نفسه. ولدهشتها، قام تلفزيون MBC بإذاعة مقاطع من الفيلم واضعًا كلمة Exclusive (حصري) لأول مرة في تاريخه على مادة لها علاقة بتنظيم القاعدة.

الإرهابي المثالي!

بينما انتهى مصور القاعدة، أبو يوسف، من ضبط الكاميرا استعدادًا لبدء التسجيل، كان رمزي بن الشيبة الآن أمامي جالسًا القرفصاء على الأرض، هادئًا، وديعًا، واثقًا من نفسه. انطلقت مفتتحًا الحوار: «إذًا، أخ أبو...»، لكنّ رمزي هتف بالمصور فجأةً: «Stop!»، ثم نظر إليّ ممتعضًا: «من غير كنية لو سمحت، ممنوع استخدام الأسماء أو الكنى». غير أنها لم تكن سوى ثوان قليلة قبل أن يعود رمزي إلى صفائه، وعندما عاد انطلق في الحديث كمن لم يتحدث من قبل:

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، القائل في كتابه الكريم: ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾، وأصلي وأسلم على رسول الهداية القائل: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر»، والقائل: «وجُعل رزقي تحت ظل رمحي»، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره واتبع هداه إلى يوم الدين، أما بعد.». هكذا بدأ رمزي إجابته عن سؤالي عما يعنيه دوره كمنسق لعملية الحادي عشر من سبتمبر، لكنه كان لا يزال يستطرد في مقدمته الطويلة:

«فلا يشك مسلم عاقل في أن عمليات يوم الثلاثاء المبارك، الحادي عشر من سبتمبر، في واشنطن ونيويورك، كان يومًا من أيام المسلمين العظيمة، أعادت لهم أيام بدر وحطين والقادسية واليرموك وعين جالوت. وهذا اليوم كان يمثل فتحًا مبينًا ونصرًا كبيرًا للمسلمين، وفي نفس الوقت يمثل هزيمة كبرى لأقوى قوة في

الأرض، هُبَل العصر، أمريكا، وضربة قاتلة في قلبها المملوء حقدًا وكرهًا للإسلام والمسلمين. فلقد شاء الله -عز وجل- أن يصب هذا العذاب من عنده، وشاء تعالى أن يكون هذا العذاب بأيدي هذه الفئة المجاهدة المؤمنة التي اختارها الله واصطفاها لهذا العمل العظيم».

استمر رمزي في لغة سلسة وصوت جميل وأداء أخاذ، إلى أن وصل أخيرًا إلى بيت القصيد: «وأما بالنسبة لسؤالك في مسألة التنسيق، فاختصارًا هي عملية ربط الخلايا بعضها ببعض، وتكوين حلقة اتصال بين هذه الخلايا وبين القيادة العامة في أفغانستان، وتحديد أولويات عمل هذه الخلايا ومتابعتها حتى تنتهي من مراحل العمل إلى وقت ساعة التنفيذ، وحل المشاكل التي قد تواجه الأخوة في هذه الخلايا، وإيجاد الغطاء الأمني المناسب الذي سوف يتحرك الأخ من خلاله».

من وجهة نظر أي «ناشط إسلامي» يعيش في الغرب، إلى أي مدى يمكن أن يتسع هذا «الغطاء الأمني المناسب»؟ وإلى أي مدى يمكن أن يُسمح لمسلم بخداع غير مسلم؟ بعبارة أخرى: إلى أي مدى يمكن للغاية أن تبرر الوسيلة في أعين «الإسلاميين»؟

حسنًا، يبدو أنه لا توجد خطوط صلبة أمام هذا المدى؛ فعندما اقترحت عليه في ذلك الفندق في كراتشي أن نلتقي ظهر اليوم التالي أثناء صلاة الجمعة سمح أبو بكر لنفسه بإصدار فتوى تحظر عليّ صلاة الجمعة بحجة إجراءات الأمن. ورغم أن المسلم لا يكذب فإن رمزي بن الشيبة سمح لنفسه بالكذب مرات كثيرة على السلطات الألمانية لأسباب مختلفة. محمد عطا أيضًا سمح لنفسه بالكذب مرات عدة: مرةً على أستاذه في هامبورج عندما برر اختفاءه المفاجئ بـ«مشاكل عائلية»، ومرةً على مدرسة الطيران في فلوريدا عندما ادعى أنه خال مروان الشحي لإخفاء جذوره، ومرةً أخرى على العالم كله عندما غير بيانات أساسية في جواز سفره كي «يغسل هويته» قبل السفر إلى الولايات المتحدة.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد؛ ففي تلال الوثائق التي تركها أعضاء القاعدة وراءهم بعد سقوط طالبان توجد أدلة قاطعة على أن كثيرًا منهم ليسوا أنبياء. في أحدها رسالة

خطية من يمني يُدعى خالد لم يسعفه الوقت لإرسالها إلى أخيه يرسم له فيها صورة للواقع الجديد الذي انضم إليه:

> أخي الحبيب عبد الرحمن... وجودي مع هؤلاء الناس هنا قد زعزع إيماني بعقيدتي وبجدوى الجهاد، فطبعهم شرس وماضيهم مليء بالأعمال الإجرامية، حتى بعضهم لا يستطيع قراءة القرآن! من جهة التدريب فإنني أعتبر أفشل وأبطأ الموجودين، فكل يوم نتدرب على استعمال السلاح وكذلك نتدرب على السرقة والكذب وممالقة الآخرين ... فتصور عليَّ أن أخبئ أغراضي الشخصية خاصةً القرآن الذي أهديتني إياه حتى لا يختفي مثلما اختفت ساعتي في أول أسبوع وصلت فيه إلى المخيم..! كذلك نتدرب كيف نختلط بالنصارى وكيف نقلد حياتهم اليومية، فعلينا أن نتعلم شرب الكحول وحلق الذقون...!

أما نحن فمتأكدون من أن واحدًا على الأقل من أعضاء فريق التنفيذ التسعة عشر شُجّع على - أوعلى الأقل سُمح له بـ - ارتكاب كبيرة شرب الخمر، وهو اللبناني زياد الجراح الذي انخرط جيدًا في أساليب الحياة الغربية وكان، وفقًا لعائلته في لبنان، يعيش في ألمانيا مع صديقة تركية ويرتاد البارات والأندية الليلية ويشرب الكحول في طريقه إلى «الجنة». ومن ناحيته يؤكد لنا صديقه صاحب مدرسة الطيران التي التحق بها في فلوريدا، آرني كرويتهوف، أن «زياد كان ولدًا مقبلًا على الحياة تستمتع بصحبته في كل وقت، سواء كان ذلك أثناء التدريب في الجو أو أثناء الاستراحة على الأرض، أو بعيدًا عن التدريب عندما كنا نخرج معًا إلى حفلات الشواء في الهواء الطلق أو إلى لعب الكرة الطائرة على الشاطئ، وكان هو معتادًا على شرب البيرة الأميركية ماركة بَدْوايزر».

لكنّ لرمزي علاقةً خاصة بزياد. ابتلع نفَسًا عميقًا وبدأ يقص تسلسل الأحداث التي جعلت من هامبورج مطبخًا لأضخم عملية إرهابية في التاريخ. كان كل «أخ» قد بدأ يتوسم ملامح دوره شيئًا فشيئًا. أُرسلت وحدات الاستطلاع لدراسة الأهداف

المحتملة على أرض الواقع. دارت العجلة في صمت أحيانًا، لكنّ الغريب أن زعيم القاعدة، أسامة بن لادن، خرج عن صمته في تلك الفترة أكثر من مرة بإرسال رسائل تهديد مباشرة إلى واشنطن وقعت جميعًا على آذان صماء (أو ربما على آذان كانت تتمنى ذلك). «إنهم لا يفقهون»، قالها بن لادن عندئذ، «إلا إذا وقعت الضربة فوق رؤوسهم».

مع نهاية يوم الأحد، الحادي والعشرين من أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٢، لملمت فرشاة أسناني وعدة الحلاقة ووضعتها جميعًا إلى جانب أوراقي داخل الحقيبة الصغيرة التي كنت أتيت بها من لندن. وبحرص شديد بدأت أوزع على جيوب الحقيبة هدايا خالد شيخ محمد من شرائط فيديو صغيرة إلى أسطوانات كمبيوتر ممغنطة إلى بيانات مطبوعة ـ كلها من نوع القنابل الموقوتة التي يمكن أن تنفجر في وجهي لدى أقرب عملية تفتيش. ثم اعتدلت إلى جانب خالد وراء رمزي بن الشيبة لصلاة أخيرة قبل أن أودعهما في طريقي إلى المطار.

بعد نحو ٤٨ ساعة، كانت اللحظات الأخيرة في ذلك «المنزل الآمن» في كراتشي مليئة بالمشاعر الغريبة. احتضنني رمزي كأنه يحتضن أخًا يعرفه منذ وعت عيناه على الدنيا، وصافحني أبو أنس بحرارة نادرة، بينما ناولني خالد بيانًا مطبوعًا يحمل عنوان «عملية المعبد اليهودي في جربة بتونس». قال خالد في لهجة أقرب إلى الأمر منها إلى الالتماس: «يمكنك قراءته على مهل فيما بعد»، ثم أصر على فعل شيء غريب لا يتوافق تمامًا مع ما عهدته منه على مدار الساعات الثماني والأربعين الماضية؛ فبينما حرص رمزي وأبو أنس على عدم الاقتراب من مدخل الشقة، خرج خالد في صحبتي.

«لا داعي لنزولك على السلم إلى أسفل»، قلتها فرد خالد بتعليق لا علاقة له بالموضوع. «تعرف يا أخ يسري أنك يمكن أن تكون الإرهابي المثالي؟!» عقدت المفاجأة لساني وأنا أستمع في الوقت نفسه إلى أصابع رئيس اللجنة العسكرية لتنظيم القاعدة ترسل نصًا مكتوبًا عبر الهاتف المحمول وهو يهبط الدرج ملتصقًا بكتفي.

مضى خالد في لهجة نصف مازحة: «انظر إلى نفسك؛ إنك ولد مهذب، صغير السن، ذكـي، مثقـف، منظـم، تتحدث الإنجليزيـة بطلاقة، غيـر متزوج، وتعيش فـي لندن». كانـت تلك لحظة تمنيت لديها أن أحدق في عيني خالد وأتفرس في ملامحه كي أقرأ بنفسـي مـدى جدية هذا التعليق الغريب، لولا تلك العُصابـة على عيني. أي رد يمكن لي أن آتي به في مقابل تعليق كهذا؟ لم يكن إذًا سوى أن أبتسم ابتسامة جوفاء مقتضبة لا معنى لها. لكنّ ذلك لم يعجب خالد.

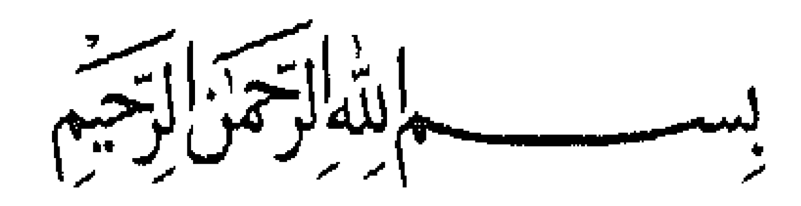
«إنك تذكّرني بأخينا محمد عطا». قنبلة أخرى! حين يصدر هذا الانطباع عن واحد من أعتى العقول المدبرة فلا بد أن يتم اسـتقباله من باب الإشـادة والإطراء والتكريم، ولا بد أن يمر الرد عليه من أوسع أبواب الحرص والدبلوماسية. فماذا أقول؟

نهاية اللقاء.. بداية المتاعب

«من نعم الله علينا أن أحدنا لا يستطيع قراءة أفكار الآخر»...

أجبت بهذه العبارة التي سمعتها ذات يوم على لسان الممثل المصري شكري سرحان في فيلم «رُد قلبي» وقد تقمصت هيئة الفيلسوف الأعمى وأنا أهبط درج المنزل الآمن معصوب العينين إلى جوار خالد شيخ محمد الذي قال لي لتوه إنني أذكّره بمحمد عطا، «إن ما تقدمه أيدينا هو الذي سيتحدث عنا في نهاية المطاف». فيما بدا وقد اقتنع بهذا الرد اقتادني خالد إلى الطابق الأرضي حيث كانت سيارة في انتظارنا. فتح الباب بنفسه ودفعني برفق إلى جوار السائق وهو يشد على يدي بحرارة. «إنك رجل نادر. بارك الله فيك وحماك». كانت تلك آخر كلمات أسمعها من رئيس اللجنة العسكرية لتنظيم القاعدة، وكان لها أن تبقى في أذني لأيام طويلة تلت، خاصةً على ضوء تطورات درامية كانت لا تزال مختبئة في ثنايا القدر.

بعد نحو عشر دقائق داخل سيارة مسرعة، طلب السائق من الراكب أن يخلع عن عينيه تلك العُصابة. كان وجهًا جديدًا، ذلك السائق الذي أوقف السيارة بعد قليل وخرج منها كي يستوقف لي - وقد اضيقت عيناي - سيارة أجرة في بداية ذلك الشارع المؤدي إلى خارج المدينة. في الطريق إلى مطار كراتشي الدولي، مطار (قائد العزم)، كان ثمة وقت لقراءة البيان الذي دسه خالد شيخ محمد في يدي قبل مغادرتي منزل القاعدة الآمن.



عملية المعبد اليهودي في جربة بتونس

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ براءة ١٤.

هكذا بدأ البيان. ورغم أن زعيم القاعدة، أسامة بن لادن، كان قد لمس لأول مرة، بشكل علني على الأقل، المسألة الفلسطينية في أعقاب الهجوم الأميركي على أفغانستان في أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠١، فقد كان واضحًا أن هذا البيان يمثل مرحلة جديدة في إعادة ترتيب أولويات العمل.

ردًّا على الحملة اليهودية الشعواء على الشعب الفلسطيني المجاهد وحرب الإبادة والاستئصال التي ترتكب بحقه، ونحن جميعًا نرى العالم بأسره يشهدها ويبصرها ولا يحرك ساكنًا حتى لا يغضب ساكن البيت الأبيض ولا يقلق الجزار أثناء ذبحه، فقد لف العار كل الصامتين خاصة أنظمة الحكم الإسلامية والعربية، فالقدس والأقصى ليس ملكًا للشعب الفلسطيني فقط بل هو ملك لكل من يدين بلا إله إلا الله محمد رسول الله، مليار و٣٠٠ مليون مسلم أسرى لأنظمة فاسدة موالية لأسيادها في الغرب تسجن الشعوب وتهمش دورهم، حتى المظاهرات التي تعبر عن حالة اليأس التي يعيشونها لم تترك وحالها بل حاربوا المظاهرات وأسروا المتظاهرين. إن هذه الأنظمة لا تمثل الأمة بحال والممثل الحقيقي هو الشعوب المسلمة وعلى رأسهم الشعب البطل المجاهد في فلسطين. وفي ضوء هذه الأحداث العظام والأمور الجسام وفي تحول إيجابي يبصر الشعوب الإسلامية في كل مكان بحقيقة الدور الذي يجب أن تلعبه جاءت العملية الاستشهادية على المعبد اليهودي في جربة..

في خلال أشهر معدودة بعد هذه العملية كان لهذا «التغير في الأولويات» أن يتأكد واقعيًّا عن طريق عملية مزدوجة في ميناء مومباسا في كينيا، عندما قامت القاعدة بهجوم على فندق بارادايز Paradise Hotel الذي يملكه إسرائيليون في الثامن والعشرين من

نوفمبر/ تشرين الثاني عام ٢٠٠٢. أسفر الهجوم عن مقتل خمسة عشر شخصًا، من بينهم تسعة كينيين وثلاثة إسرائيليين وثلاثة إسلاميين نفذوا العملية. وفي اليوم نفسه أطلق مجهولون صاروخًا على طائرة مدنية إسرائيلية أثناء إقلاعها من المطار المحلي أخطأها بمسافة قصيرة.

غير أن ذلك البيان الذي خرج مباشرةً من يدي خالد شيخ محمد لا يترك مجالًا للشك؛ إذ إنه يعترف في كلمات واضحة بمسئولية القاعدة عن عملية جربة التي وقعت قبل أيام معدودة من وصولي إلى كراتشي وراح ضحيتها واحد وعشرون شخصًا من بينهم أربعة عشر سائحًا ألمانيًّا.

والقاعدة إذ تعلن مسئوليتها عن العملية التي تكتم عليها الإعلام تواطأً مع الحملة اليهودية على الشعب الفلسطيني المسلم تبين معالم العملية وأهدافها .. فقد قام البطل الشهيد نزار (سيف الدين التونسي) بتكليف من القيادة العسكرية للقاعدة بالإعداد والتجهيز لهذه العملية .. ضرب مثلًا نادرًا للأمة كلها كيف يمكن لشاب واحد قام خارج الأراضي الفلسطينية وضد اليهود بهذه العملية الرائعة .. قام البطل بمهمة استطلاع للهدف وتصويره وتحديد نقاط الضعف والقوة فيه ..

وفي إشارة ربما تكون إشارة شخصية إلى خالد شيخ محمد نفسه، يمضي البيان:

وبعد الدراسة والمناقشة تحرك البطل للقيام بواجبه تجاه دينه وأمته، فنسأل الله أن يتقبله في الشهداء.

عندما وصلت إلى بوابة المغادرة في مطار (قائد العزم) أحسست إحساسًا غريبًا بأن عيونًا تراقبني. كانت فوضى المودعين تملأ المطار لغطًا وصخبًا وتجعل من الصعوبة الهروب من أي مراقبة محتملة. لكنني انتهزت فرصة فانتحيت وراء أحد الأعمدة وأخذت أرقب الفوضى. فجأة لمحت عن بعد وجهين أعرفهما جيدًا. عندما التقت العيون أومأ أبو بكر فيما وضع حسن - الشاب ذو اللهجة الفلسطينية الذي قادني قبل يومين إلى المنزل الآمن - راحته اليمنى على قلبه. ثم - كما رأيتهما فجأة - ابتلعهما الزحام مرةً أخرى، فجأة.

فـي طريق عودتي إلى لندن، قررت الوقوف في دبي لليلتين عسـى أن ألتقط فيهما أنفاسي. كان قرارًا صائبًا، مثلما ثبت لاحقًا، أن أغمض عينيّ وأترك العنان لفكري في محاولة لهضم تلك التجربة الغريبة، وأن أعمل جاهدًا على بناء جدار من المقاومة أمام لحظـات الإغراء. لقد عدت بصيد ثمين يسـيل له لعـاب أقوى الرجال، وكان لابد لي أن أعمل على أن أكون أقوى من أقوى الرجال. كان إلهامًا من الله -عز وجل- جعل العيش مع هذا «الذنب» المؤقت الذي تمثل في حقيقة أنني وحدي على وجه الأرض (مـع القيادة العليا للقاعدة) الذي يعلم الآن تفاصيـل الإعداد للحدث الذي غير وجه العالـم، أقل خطورة وأكثر قبولًا من احتمالات تسـريب مبكر لا يعلم نتيجتها، سـواءٌ بالنسبة لهذا السبق الصحفي أو بالنسبة لي أنا شخصيًّا أو بالنسبة لمن قابلتهم، إلا الله.

أما وقد عدت الآن قويًّا، بقصة يمكن لصحفيين آخرين أن يقتلوا آباءهم للحصول علـى نصفهـا، أدركت فجأة أننـي في مأزق. لقد عدت سـليمًا وفي جعبتي كل شـيء -كل شـيء عدا شـيئًا واحدًا: الشـرائط! فجأةً أدركت أنني لا أملك دليلًا دامغًا يثبت أننـي حقًّا التقيت بأعضاء في تنظيم القاعدة، ناهيك عن أنني التقيت بمن يقولون إنهم العقول المدبرة وراء عمليات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. ورغم أنني كنت أعلم قبـل مغادرتـي هؤلاء الرجـال أن الاتفاق هو أن أترك الشـرائط لديهـم للمراجعة قبل أن يقومـوا هـم بتوصيلها إليّ بطريقة أو بأخرى، فإن إحساسًـا غيـر مريح بدأ يدب في أوصالي. لقد حان وقت القلق الحقيقي.

بعدها بنحو شـهر كنت في ألمانيا مسلحًا بفيض من المعلومات لا يعرفها الألمان أنفسـهم: عناوين، مواقع، شخصيات، أرقام هواتف، إلى آخره. كانت رؤية هامبورج لأول مرة بعيني منسـق عمليات الحادي عشـر من سـبتمبر/ أيلول، رمزي بن الشـيبة، مسـألة مثيرة ومحرجة في الوقت نفسـه. اعتذر بعض أعضاء «المجتمع المسـلم» في هامبورج الذين رشحهم رمزي عن عدم الحديث، بينما تعاون آخرون، لكنهم جميعًا كانوا يتساءلون علنًا أوسرًّا عن كيفية وصولي إليهم، ولم أكن أنا في حل من إخبارهم.

بعودتي مرةً أخرى إلى لندن، في الرابع من يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٢، دق الهاتف بعد الظهر فكانت رسالة فاكس بخط أبو بكر:

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الفاضل/ يسري فوده المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

تحياتي وأشواقي إليكم، وأتمنى من الله أن يوفقكم في عملكم وفي حياتكم لما يحبه ويرضى.

قابلت بالأمس الرجل الذي كان معنا في المطار وحدثته عن الموضوع وإن شاء الله سنقوم بإرسال الأغراض إليكم، وكن مطمئنًا سوف أتابع معهم وأتواصل معكم بالهاتف...

ولأنه كان يعلم من مكالمة سابقة أنني أعتزم العودة قريبًا إلى الشرق الأوسط في إطار الموضوع نفسه، فقد كان لدى أبو بكر مطلب آخر - مطلب شخصي.

الكرة الساخنة

لم ينس وسيط القاعدة، أبو بكر، في رسالته ـ وقد كان يعلم اعتزامي العودة قريبًا إلى الشرق الأوسط ـ أن يطلب مني حلاوة المولد النبوي من طنطا وعددًا من الكتب بعينها من مكتبة مدبولي.

بعدها بيومين، في السادس من يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٢، كنت في القاهرة للقاء والد محمد عطا. وفي اليوم التالي، بينما كنت أشارك في مؤتمر «الإعلام والإرهاب» الذي نظمته كلية الإعلام بجامعة القاهرة، دق هاتفي برسالة إخبارية مكتوبة تقول إن قناة الجزيرة بثت منذ قليل شريطًا مصورًا يحمل وصية أحمد الحزنوي، أحد منفذي عمليات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. أدركت، وقد كان خالد شيخ محمد أعطاني بالفعل نسختين من هذا الشريط، أن القاعدة وجدت طريقًا آخر للإسراع ببث الوصية، وأن جزءً من سبقي الصحفي قد ضاع، وإن كان الأمر بقي في إطار قناة الجزيرة.

من القاهرة طرت إلى بيروت بعد يومين، في التاسع من يونيو/ حزيران، حيث التقيت ببعض أعضاء عائلة زياد الجراح في مرج البقاع. بينما كنت هناك اتصل بي أبو بكر هاتفيًّا بمزيد من التطمينات، لكن فحوى الرسالة كان لا يزال كما هو: لم تكن لديه فكرة عن متى أو أين أوكيف ستصل الشرائط.

غير أن رسالةً أخرى غير مباشرة وصلت إليّ: أنه لدى تلك النقطة من الزمن كان خالد شيخ محمد ورمزي بن الشيبة قد اختفيا ـ ليس فقط بالنسبة للصحفي الذي غادرهما قبل نحو سبعة أسابيع ولكن أيضًا بالنسبة للوسيط الذي اختاراه كي يكون

جسـرًا إليـه. والذي يبـدو أنه حدث هو أن خالـد عاد أدراجه إلى تحـت الأرض يدير شـبكته المعقدة ـ الجريحة في الوقت نفسـه ـ ربما من مكان ما في كراتشـي نفسها، بينما انشغل رمزي على الأرجح بإحدى هواياته التي كان مغرمًا بها: الإنتاج الإعلامي. كان هو نفسـه ـ كما قال لي قبل مغادرته وكما ثبت فيما بعد ـ يقوم من خلال شـركة «السحاب» بإعداد «فيلم وثائقي» احتفالًا بالذكرى الأولى لعمليات الحادي عشر من سبتمبر التي كانت مقبلةً بعد نحو ثلاثة أشهر.

من بيروت طرت إلى الدوحة في الرابع عشر من يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٢ حيث قـررت أن أُطلع رئيسـي، محمد جاسـم العلي، لأول مرة على جانـب من تلك القنبلة الموقوتـة التـي عـدت بها مـن كراتشـي. «لاااااا ... مـش ممكـن!»، كان أول ما قاله «أبو جاسـم» فيما ارتسمت على وجهه انطباعات متناقضة بدأت بانطباع فحواه «لماذا لم تُطلعني على ذلك من قبل؟»، مرورًا بانطباعات من الدهشـة ونشـوة السبق والقلق والجـزع والاعتـزاز، وانتهـت بانطباع فحواه «شـكرًا لأنك لم تُطلعنـي على ذلك من قبل!» ثم اعتدل أبو جاسـم في جلسـته ومال نحوي كأنه يدفع كرةً سـاخنةً عن صدره وقال: «أرى أن تشـرح ذلك بنفسـك لـ «أبـو عبد العزيز» (محمـود السـهلاوي، نائب رئيس مجلس الإدارة آنئذ)».

اتصلت به فدعاني فورًا دون أن تكون لديه فكرة إلى غداء في النادي الدبلوماسـي «علـى شـرف المصرييـن» يحضـره أيضًا الزميـل إبراهيم هـلال، رئيـس تحرير غرفة الأخبـار آنئذ، والزميل الزائر حافـظ المرازي، مدير مكتب واشـنطن آنئذ. بعد الغداء انتحيت بـ «أبو عبد العزيز» جانبًا أثناء خروجنا جميعًا من النادي الدبلوماسي وبدأت أطلعـه علـى الأمر. توقف الرجـل وتأبط ذراعي. «لااااا ... مش ممكن!» ثم تسـاءل في دهشـة فيها من الشـك بقدر ما فيها من الثقة في محدثه: «خالد شـيخ محمد؟!!!» وعندما أدرك أن لهيب شمس الدوحة بدأت تشوي المنتظرين قرب السيارات مال عليّ كأنه يدفع كرةً سـاخنةً عن صدره وقال: «أرى أن تشـرح ذلك بنفسك لـ «أبو عبد الله» (رئيس مجلس الإدارة، الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني)».

في صباح اليوم التالي، كنت في مكتبه. هو واحد من أصغر أعضاء الأسرة الحاكمة في قطر ومن أكثرهم حكمةً واتزانًا وتواضعًا في الوقت نفسه. استمع الرجل بانتباه شديد لأكثر من نصف ساعة، ثم ـ في هدوء وتريث ـ سأل الأسئلة الصحيحة: «الشرائط! متى ستحصل على الشرائط؟ لا بد أن تقع في قبضتنا بأسرع ما يمكن. كم شخصًا يعلم بهذا الأمر حتى الآن؟ لا بد أن تبقى الأمور هادئة إلى حين. لا تجازف بشيء الآن مهما كان. إن كنت تعتقد أنك تحتاج إلى ترتيبات أمنية من نوع خاص فعليك أن تخبرني على الفور. لماذا لا تبقى في الدوحة إلى حين؟ أرح أعصابك لعدة أيام ودعك من الجزيرة وهمومها».

لسبعة أيام طويلة عريضة في الدوحة لم يأت خبر من أبو بكر. بدأ يتسرب إليّ إحساس بأن الشرائط ربما لن تطفو على السطح أبدًا، أوعلى الأقل كان الصحفي داخلي قد بدأ ينظر إلى الأمام خطوات بعيدة كي يكون مستعدًا لمختلف السيناريوهات. بالشرائط إذًا أو بغير الشرائط كنت قد اتخذت عندئذ قراري بالمضي في إنجاز التحقيق على أساس ما كان قد توفر لديّ من معلومات وما يمكن أن أضيفه إليها في الأسابيع القليلة التالية. ومن أجل ذلك كان لا بد من العودة إلى كراتشي.

وصلت إليها في الساعات الأولى من صباح الثاني والعشرين من يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٢، حيث كان في استقبالي هذه المرة فريق تصوير من مكتب الجزيرة في إسلام آباد كان قد وصل على متن رحلة داخلية في الليلة السابقة. لم أضيّع وقتًا؛ فلم تكن فكرة جيدة أن أحوم طويلًا حول «مسرح الجريمة». حددت لنفسي أربعة أيام أو خمسة، إذا لم يتصل بي أثناءها أبو بكر فسأعود أدراجي في خفة. هكذا يقول كتاب «المخاطرات المحسوبة» الذي ألّفته لنفسي منذ قيامي بتغطية الحرب في البوسنة. لكنها لم تكن أربعة أيام ضائعة. كانت مليئة بالعمل الشاق في شوارع كراتشي تحت جنح الظلام وداخل إحدى الشقق التي استأجرتها لغرض إعادة بناء الأحداث التي وقعت قبل شهرين. كانت مهمة صعبة؛ إذ كان على فريق التصوير أن يقوم بتصوير مشاهد كثيرة لغرض إعادة بناء الأحداث التي وقعت قبل شهرين، بعضها معقد وهو لا يعلم لأي غرض ولتجسيد أي فكرة، ولهذا اضطررت أكثر من مرة إلى التصوير بنفسي. ثم ـ في أثناء ذلك ـ جاء الفرج: اتصل أبو بكر.

بعد عمليتين صغيرتين في كراتشي كان أبو بكر قد قرر الانحناء أمام الريح فقلّص من أنشطته واتصالاته. «الآن هم بيراقبوا التلفونات مراقبة شديدة جدًّا»، همس أبو بكر بينما اتخذ مقعده أمامي في غرفة أخرى من الفندق نفسه الذي نزلت به من قبل، فندق ريجينت بلازا.

= مين دول؟

● «أقصد المخابرات الباكستانية .. وكمان المخابرات الفرنسية والمخابرات الأمريكية .. أنا عندي ٤ تلفونات .. الآن كل التلفونات غلّقوها».

= علشان كده كنت متخيل الموضوع أسهل وأنا هنا.

● «كيف أخبارك إنت؟ الآن أنا قلت لك أنا كنت عاوز أدخّل أبو غيث في الموضوع. هو متحدث كويس كمان».

= جميل، بس أنا يهمني دلوقت الشرايط.

● «إحنا مصلحتنا، أكلمك الصراحة مصلحتك إنت هي مصلحتنا. إنت راجل ليس محسوب على القاعدة أوغيرها .. لما أنا أرسلت لك فاكس، هو رمزي كتب لي قال لي الورقتين دول هادي وجهة نظرنا، إذا هو يحب يساعد معانا في هذا الأمر إحنا نساعده».

= طيب ..

● «ما أنا باقول لك، إحنا قدمنا لك المعلومات وإنت حر، يعني بأديك مثال، إذا طلع البرنامج وجهة نظرك موافقة للإسلاميين أو معارضة للإسلاميين مش هييجوا ويقول لك حاجة. الراجل إحنا ساعدنا معاه والراجل معروف إنه خبير إعلام وشغال في التلفزيون والصحافة».

= الله يخليك.

● «يعني إنت لست مصنف لدى الحكومة المصرية ولا أمريكا ولا تبع الطرف الإسلامي. إنت راجل أكاديمي مهني جيد، وإحنا على هذا الأساس والله».

= أنا بأحاول بس أكون واقعي لأن التفريغ طويل والبرنامج كبير.

● «وبعدين أنا كلمت خالد، قال لي ١٥ يوم، وبعدين كلمني قال لي شهر ٩».

= هو الأخ خالد مش فاهم المسائل الفنية؟! .. راجل ما شاء الله مخه .. لو جيت في النص وقمت حاشر حاجة مش عامل حسابها مش هينفع .. على الأقل فين التفريغ؟

● «إنت صورت الآن في ألمانيا وفي بريطانيا وفي مصر وفي لبنان .. ورايح أمريكا؟».

= نعم، إن شاء الله.

● «إنت توكل على الله، وبإذن الله وحده عندما تصل أنا هاوصّل لك الأمور في قطر. المهم هانتصرف في الموضوع».

مافيا على الخط

كان مـن الـواضـح لمن يراه أن وسـيط القاعدة، أبو بكر، يعانـي من ضيق اليد. كان دائمًا رث الهيئة، جائعًا، في حاجة إلى حمام، لكنه كان في الوقت نفسه عفيف النفس. بينمـا كنـت أتفـق معه على طرق جديـدة للاتصـال، أخرجت من جيبـي مائتي دولار أميركـي ودسسـتها في يده. «هـذا مبلغ متواضـع لتغطية تكاليف المكالمـات الدولية وأي تكاليف أخرى تتطلبها عملية توصيل الشرائط». بعد مناقشة طويلة وافق أبو بكر على مضض. غير أن ما حدث بعد ذلك ـ كما كان لي أن أعلم ـ هو أن رئيس اللجنة العسكرية لتنظيم القاعدة، خالد شيخ محمد، استشاط غضبًا فأمسك بتلابيب أبو بكر ودفعه نحو الحائط لأنه «قَبِل مكافأة على عمل كان من المفترض أنه لوجه الله».

غادرت كراتشـي في السادس والعشرين من يونيو/ حزيران عام ٢٠٠٢ كي أنطلق بعدها بأسـبوعين إلى عـدد من الرحلات المكوكية داخل الولايات المتحدة شـملت التصويـر فـي ميامـي وفينيسـيا وهوليـوود ونيويـورك ونيوآرك وواشـنطن وبوسـطن وبورتلانـد وغيرهـا. بينمـا كنت هناك اتصـل بي أبو بكر كـي يعلن لي أخبارًا سـارة: الشرائط الآن بين يديه.

كان إحساسًـا غامـرًا طـار بي مـن الولايـات المتحدة عبـر لندن إلى كراتشـي في السـابع والعشرين من يوليو/ تموز عام ٢٠٠٢ مباشرةً إلى فندق ريجينت بلازا. قليلًا ثـم دق أبو بكـر عليَّ بـاب غرفتي. «قبل أي شـيء، هذه هـي أموالـك». ألقى الرجل اللاهـث بمبلـغ المائتي دولار على الطاولـة قبل أن يتخذ مقعده. «شـكرًا جدًّا، لكنها لـم تكن فكرة جيدة».

كانت عيناي تتنقلان في فضول بين جيوب أبو بكر لعلي أسترق تأكيدًا على وجود «البضاعة». التقط أبو بكر أنفاسه ثم أكد لي أن الشرائط وصلته قبل أسبوعين ولكنه لأسباب أمنية قرر أن يتركها وديعة لدى أحد «الأخوة». بينما هم بالخروج للعودة بها أخرج من أعمق جيوبه ما بدا أنه قرص كمبيوتر. «هذا من الأخ رمزي، وأنا شخصيًّا لا أدري ماذا يوجد بداخله».

في انتظار عودة أبو بكر بالشرائط، أسرعت فوضعت القرص داخل جهاز الكمبيوتر المتنقل وأخذت ألتهم السطور.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الفاضل/ يسري فوده

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

نظرًا لأهمية العمل الذي تقومون به والرسالة الإعلامية التي توجهونها إلى الجمهور العربي والإسلامي على حد سواء كان يلزم على العامل في هذا المجال المؤثر على الرأي العام أن يتحرى الإخلاص لله في هذا العمل وأن يجعل غايته في عمله هي إرضاء الله عز وجل وليس إرضاء الناس ولا يكون هدفه الكسب المادي فقط أو الشهرة الإعلامية وحسب وإنما أيضًا يحتسب الأجر في ذلك عند الله عز وجل، ومراعاة الحقائق التاريخية والواقع الذي يعيشه المسلمون وحجم الظلم والاضطهاد الممارس ضدهم هو أمر أساسي في عرض وجهة نظركم من خلال عملكم الحالي وربط الأحداث الأخيرة ١١/ ٩ وما تبعها من الحملة الصليبية على المسلمين في النسق التاريخي والديني للصراع بين المسلمين والنصارى وخاصة الصراع من أجل البقاء الذي يجاهد من أجله إخواننا المسلمون في فلسطين وهذا الربط ضروري جدا حتى تكون الصورة مكتملة عند جمهور المشاهدين وهي أمانة تاريخية بالدرجة الأولى، فليست الحرب الدائرة حاليا هي بين أمريكا وتنظيم القاعدة

كما تروج له وسائل الإعلام وإنما هي حرب صليبية سافرة ضد الإسلام والمسلمين والدلائل على ذلك أكثر من أن تحصى وتعد وأنتم أهل خبرة ودراية بمثل هذه الأمور.

عذرًا لهذه الإطالة المهمة والتي كان لابد من توضيحها لكم عسى الله أن ينفع بعملكم هذا المسلمين.

هناك بعض الملاحظات في حالة سؤالكم عن الأشخاص الذين قابلتهم من المهم جدا أن لا تعطي تفاصيل

جديدة لشخصياتهم والتغيير الحاصل لهيئاتهم والاكتفاء بالملامح الموجودة عندهم في الصور.

- يحبذ أن تكون لكم مقابلة مع الدكتور/ عبد الله النفيسي[1] والأستاذ/ عبد الباري عطوان[2].

- هناك إصدار جديد لمؤسسة السحاب ينتهي العمل منه قريبا قد نزودكم بنسخة أولية منه حال الانتهاء منه مع بعض أهم المقتطفات للشيخ/ أسامة وغيره من القيادات.

- القسم الذي أقسم به الشيخ أسامة يشكل محورا مهما لعملكم أرى أن تضمنونه عملكم.

- هناك بعض الأناشيد مثل قوافل الشهداء ١ و٢ و٣ يمكن أن تحصلوا عليها من المكتبات الإسلامية.

- يرجى مراعاة عدم مصاحبة الموسيقى للقرآن الكريم أو الحديث الشريف بأي حال من الأحوال.

وجزاكم الله خيرا ......

---

(١) أستاذ العلوم السياسية الكويتي البارز الذي كتب سلسلة مقالات عنوانها «العالم بعد غزوة مانهاتن».

(٢) رئيس تحرير جريدة «القدس العربي» المعروف بانتقاده للسياسات الأمريكية والحكومات العربية.

كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل عندما عاد أبو بكر مكفهر الوجه مضطربًا. «لا أعرف يا أخ يسري من أين أبدأ!» قالها وهو يتهالك وراء الباب متفاديًا النظر إلى عينيّ. كان من الواضح أنه يحمل أخبارًا سيئة، ولكن إلى أي مدى؟

في محاولة للتهدئة من روعه أمسكت بذراعه رفقًا وساعدته على الجلوس على مقعده المفضل. «على مهلك يا شيخ. لو كان الأمر يتعلق بالشرائط لا يهمك أي شيء، أم أن هناك أمرًا آخر؟» جلس أبو بكر على حافة المقعد مطأطأ الرأس مسندًا جبهته براحته اليسرى، صامتًا. بعد قليل مد يده اليمنى إلى الجيب الصغير في أعلى يسار جلبابه وأخرج ورقة مطوية ناولها دون أن ينبس ببنت شفة. اختطفتها وفردتها سريعًا فاكتشفت لأول وهلة ثقبًا بدا متعمدًا بعد كلمة «الأخ/ ...» كانت الورقة متسخة واللغة ركيكة والخط سيئًا، لكنها كانت رسالة فاصلة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ/ ...

نحن المجاهدين نتعرض لضغوط كثيرة هذه الأيام، ورغم أننا نقاتل في سبيل الله لا يصلنا ما يكفي من الدعم في مرحلة حاسمة من جهادنا. وبناءً على ذلك فإننا نطلب منكم التبرع بمبلغ مليون دولار لمساعدة الأخوة على الاستمرار في الجهاد في سبيل الله. ولا يعتبر هذا المبلغ ضخمًا بالقياس إلى أننا عشرة مجاهدين لا نزال متمسكين بكلمة الله وهؤلاء الصحفيون قادرون بالتأكيد على تدبير المبلغ.

عقدت الدهشة لساني بينما كان أبو بكر يختلس النظر إلى تعبيرات وجهي من لحظة إلى أخرى.

ومن المهم أن يتم تدبير المبلغ نقدًا ويوضع في حقيبة سامسونايت صغيرة تُغلق بالأرقام ويتم توصيلها إلى الأخ (...) الذي يعمل في صيدلية (...) الموجودة في (...) مع العلم بأن هذا الأخ لا يعلم بهذا الأمر ولكننا نثق به. وهذا رقم الهاتف

المحمول (...) عليك أن تتصل بهذا الرقم وتترك الشفرة الرقمية لفتح الحقيبة علمًا بأن هذا الهاتف سيعمل فقط لمدة يومين.

بدأت ملامح الأمر تتضح. لاحظت أثناء قراءتي أنه كلما اتجهت عيناي إلى أسفل زاد اضطراب أبو بكر.

ستبقى الشرائط معنا إلى أن يتم تسليم الحقيبة وعندها سنقوم بتوصيل الشرائط إليكم بمعرفتنا. ونود هنا أن نؤكد على أننا نحن المجاهدين لن نتسامح مع أي تلاعب وأننا قادرون على التعامل مع أي خيانة.

ثم اختُتمت الرسالة المافياوية التي لم تحمل توقيعًا بتوجيه الأمر لقارئها بأنه «عند الانتهاء من قراءة هذه الرسالة عليك أن تحتفظ في ذاكرتك برقم الهاتف قبل أن تحرق الورقة».

دون أدنى قدر من تردد، أعدت الورقة معرضًا عن أبو بكر الذي كان لا يزال يفرك جبهته، ثم أخذت ألملم أغراضي استعدادًا للرحيل. انتفض أبو بكر ورائي. «أرجوك، سامحني»، أخذ يستعطف، «إنه خطأي أنا».

كانت رائحة عفنة تملأ أنفي وقد أدركت دون شك أن لعبة قذرة يلعبها بعضهم من وراء ظهر خالد شيخ محمد ورمزي بن الشيبة. إذا كان المال هدف أي منهما كان من الممكن أن يحصل على أكثر من ذلك بمجهود أقل. الحقائق كانت تتحدث عن نفسها وخبرتي المباشرة معهما. من يكون إذًا ذلك الذي يطعنهما من الخلف وهو يعلم أنهما مكتوفا الأيدي في مخبئيهما؟ والأهم من ذلك في تلك اللحظة: هل ذلك الرجل الذي ائتمناه -أبو بكر- هو الآخر ضحية؟ أم أنه جزء من عصابة داخلية أرادت الاصطياد في الماء العكر؟ أم أن لعابه سال فضعفت نفسه فاخترع وحده هذا السيناريو؟

وداعًا أبو بكر

كان لا بـد مـن التعامل بحزم مع هؤلاء الذين تصوروا أنهم يسـتطيعون مسـاومتي على ما لا يملكون: شـرائط اللقاءات التي سـجلتها مع مخططي عملية الحادي عشـر من سـبتمبر/ أيلول. أغلقت حقيبتي واسـتدرت دون أن أكلف نفسـي عناء النظر إلى الرجل الذي كان لا يزال يسـتعطفني من أجل فرصة أخرى. «لماذا لا تنصح صديقك الذي أعطاك هذه الورقة بأنه يمكن أن يحصل على مبلغ أكبر من القنصلية الأمريكية؟» سـددت له هذه الرصاصة فانهار وسيط القاعدة، أبو بكر. تحول الرجل الوقور عفيف النفس إلى مجرد دموع. «بالله عليك، سـامحني.» ثم أجهش صوته. «بأي وجه أقابل الله إذا لم تسامحني؟».

الـذي جعلنـي متأكدًا مـن أن أيًّا من خالد شـيخ محمد ورمزي بن الشـيبة لا يعلم شـيئًا عن هذه المسـاومة هو شـريط طويل من الأسـباب تدافعت إلـى ذهني في تلك اللحظات؛ فأولًا: كان من الواضح أن تلك الرسالة التي بعث بها رمزي إليّ من خلال أبو بكـر قبـل سـاعتين كتُبت على افتراض أن تكـون في يدي اليمنى فـي نفس الوقت الذي ستكون فيه الشرائط في يدي اليسرى؛ وثانيًا: كان من الواضح من خلال رد فعل خالد على مسألة المائتي دولار أن المكسب المادي آخر شيء يفكران فيه؛ وثالثًا: لم يكن من المعقول أن يخاطر أي منهما بدعوة صحفي هذه المسـافة كلها من لندن إلى كراتشـي وأن يخرجا من مخبأيهما تحت عيون المخابرات الباكسـتانية وأنوف عملاء أمريكا كي يقضيا معه ثماني وأربعين ساعة في حين أن ساعة واحدة كانت تكفي لعقد صفقة، ليس بالضرورة معه، بل يمكن تحقيق الهدف نفسـه من خلال مراسل الجزيرة

في باكستان أو أي مراسل لشبكة أخرى على استعداد للدفع، ويمكن لذلك كله أن يتم على أي حال دون أن يضطر أي منهما إلى الخروج من مخبئه.

أما وقد اضطر الرجلان إلى الاختفاء سريعًا بعد انتهاء لقائي بهما فيبدو أن أحدًا ما من الداخل سولت له نفسه أن يصطاد في الماء العكر وقد رأى أمامه تنظيمًا يعاني من قلة التنظيم وغياب قيادة عليا موحدة قادرة على ضبط التفاصيل لأسباب يعلمها الجميع اضطرتهم في بعض الأحيان إلى الاعتماد في أمور النقل والوساطة واللوجيستيات على أناس ربما لا يثقون بهم تمام الثقة. وأيًّا من كان هذا «الأحدٌ ما» فيبدو أنه اعتقد أن بطء الاتصالات لأسباب أمنية لن تمكّن أيًّا من خالد ورمزي من معرفة ما يدور من تفاصيل قبل أن يتمكن هو من الحصول على المبلغ والاختفاء به. لكنه أخطأ لأنه لم يأخذ حساباتي أنا في حساباته.

ومن بين حساباتي، بناءً على اقتناعي ببراءة خالد ورمزي، أنه كانت هناك مساحة من الوقت، وإن لم تكن كبيرة، لتغير السيناريوهات، وأن تلك كانت بضاعة لزبون واحد لا يشتريها غيره، ليس لأن أحدًا غيره لم يكن قادرًا ومستعدًّا ومتلهفًا لشرائها؛ فهناك على أي حال زبائن لا تعد ولا تحصى من الداخل والخارج ومن الشرق والغرب، بل لأن معنى ظهورها في يد زبون آخر سيكون حكمًا بالإعدام على هذا «الأحدٍ ما» إن عاجلًا أو آجلًا.

ألقيت إلى أبو بكر برسالة طلبت منه إيصالها إلى رمزي وغادرت كراتشي في طريق عودتي إلى لندن في الثامن والعشرين من يوليو/ تموز عام ٢٠٠٢ وفي أذني وعد آخر من الوسيط بأن الشرائط ستصلني قريبًا، هذه المرة في لندن نفسها. عاجلًا أو آجلًا، كنت متأكدًا من أن خالد ورمزي أو أحدهما على الأقل سيعلم بالموضوع، ولكن متى وقد أوشك التحقيق على مراحله الأخيرة؟

أخذت أحصي ما تجمع لديّ حتى تلك النقطة من الزمن من عناصر مختلفة سواءٌ ما دخل منها تحت بند المعلومة أو بند الصورة، وعندما تأخر أبو بكر في الاتصال بي للمرة العشرين اتخذت قرارًا بالبدء في كتابة النص على افتراض أن ما كان بين يديّ حتى ذلك الوقت هو كل ما كنت سأحصل عليه.

وحتى ذلك الوقت لم يكن يعلم بموضوع كراتشي سوى أربعة: رئيس مجلس إدارة قناة الجزيرة، الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني، ونائب رئيس مجلس الإدارة آنئذ، عبد العزيز السهلاوي، والمدير العام آنئذ، محمد جاسم العلي، وزميلي في مكتب لندن، مفتاح السويدان. غير أن مراسل الجزيرة سابقًا في كابول، تيسير علوني، فاجأني في تلك الأثناء باتصال هاتفي من الدوحة. «هل تتوقع وصول بعض الشرائط إليك من باكستان؟» لم أعرف في البداية كيف أرد؛ فرغم ثقتي في زميلي صاحب الأخلاق الدمثة الذي كان حتى شهور قليلة خلت عيون العالم وآذانه في أفغانستان، فإنني استغربت كيف يمكن لتيسير وقد استقر وقتها في غرفة الأخبار في الدوحة أن يعلم بالأمر. ويبدو أن تيسير أدرك حرج الموقف على الهاتف فلم يتوقع إجابة فورية وإنما استمر في حديثه شارحًا أن مراسلنا الجديد في إسلام آباد، أحمد بركات، تلقى اتصالًا هاتفيًّا من «أحدٍ ما» قال إن لديه شرائط تخص يسري فوده وأنه «إذا لم تكن الجزيرة على استعداد لدفع مبلغ ١٧ ألف دولار أميركي فإن آخرين على استعداد لدفع ما هو أكثر».

هكذا تأكدت شكوكي؛ فقد كان تخفيض المبلغ من مليون إلى ١٧ ألف دولار دفعةً واحدة عملًا من أعمال الهواة الذين دخلوا مرحلة من اليأس، ولا يمكن لأي منطق أن يتخيل أيًّا من خالد أورمزي في سيناريو من هذا النوع. غير أن النشوة الغريزية التي عادةً ما تصيب الإنسان عندما يتأكد من أنه كان على حق بخصوص شيء أو آخر، تبخرت سريعًا عندما بدأت أتخيل عدد الذين يمكن أن يكونوا الآن على علم بما يحدث بفضل ثلاثة اتصالات هاتفية – على الأقل – واضحةٍ وضوح الشمس لا لبس فيها ولا رموز: من هذا «الأحدٍ ما» إلى بركات، ثم من بركات إلى تيسير، ثم من تيسير إليّ. لم يكن لديَّ رغم ذلك سوى رد واحد لتيسير: أن يطلب من بركات إذا اتصل مرة أخرى أن يقوم بتبليغ رسالة واضحة إذا اتصل به هذا «الأحدُ ما» مرة أخرى مفادها أننا لسنا على استعداد لدفع مليم واحد وأن باستطاعتهم أن يفعلوا بالشرائط ما يريدون.

خلال الأسبوع الأخير من أغسطس/ آب عام ٢٠٠٢ وقد انتهيت من مونتاج الجزء الأول من تحقيقي ضمن برنامج «سري للغاية» الذي أطلقت عليه اسم «الطريق إلى ١١ سبتمبر» تلقيت اتصالًا هاتفيًّا غامضًا ممن لم أتعرف في البداية على صوته، لكنني بعد جملتين لهما معنى أدركت أن الاتصال من كراتشي وأن المتصل

هو حسـن، ذلك الشـاب الذكي اللطيف ذو اللهجة الفلسطينية الذي قادني في إحدى مراحل رحلتي الطويلة في طريقي إلى خالد ورمزي قبل حوالي أربعة أشهر. من تلك اللحظة فصاعدًا تحول أبو بكر إلى ذكرى. غيره كان الآن في مقعد الوسـاطة. «أردت فقط أن أعتذر لك عما حدث من فوضى»، قالها حسـن وقد أوحى بمهارة أن الأخبار وصلت إلى رمزي و/ أو خالد. «كل شيء على ما يرام الآن وقد طلب مني الأخوة أن أبلغك سلامهم».

دعـوت رئيس مجلس إدارة الجزيرة، الشـيخ/ حمد بن ثامـر آل ثاني، وزميلي في مكتب لندن، مفتاح السويدان، إلى عرض خاص مغلق للجزء الأول من التحقيق قبل إرسـال الشـريط إلى الدوحة. صباح اليـوم التالي وصل إلى مكتـب الجزيرة في لندن مظروف بني اللون بين مظاريف كثيرة لا يلفت النظر، لكن أحدًا لم يلتفت إلى حقيقة أن طريقـة كتابة العنوان من الخارج كانت مختلفـة قليلًا عن طريقة كتابة العنوان على بقية المظاريف؛ فبدلًا من «الطابق السابع» ها هو الرمز الذي اتفقت عليه مع رمزي إذا أراد هذا أن يرسل إليّ شيئًا في البريد: «الطابق رقم ٧».

داخل المظروف، الذي من الواضح أنه أُعيد إرسـاله من بلد أوروبي، كانت توجد أسطوانة كمبيوتر ممغنطة CD-ROM تحتوي على نسخة صوتية من حديث رمزي بن الشيبة إليّ في كراتشي مع رسالة مطبوعة من رمزي يجيب عن الأسئلة الإضافية التي كنت قد وجهتها إليه من خلال أبو بكر في رحلة لاحقة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الفاضل/ يسري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

هذه إجابة لجزء من أسئلتكم التي أرسلتموها والجزء الآخر تجدونه مرفقًا لكم فـي اللقاء الذي تم والمسـجل صوتيًا حيث تعذر الحصول على النسـخة الأصلية للأسباب التي تعلمونها .....

بعدما اختطفت نظرة سريعة على إجابات رمزي هرولت سريعًا أفتش عما يمكن أن تحتويه هذه الأسطوانة الممغنطة من مواد إضافية. لم يكن هناك شيء آخر. لا شيء من حديثي مع خالد شيخ محمد ولا شيء من «ذكريات هامبورج» التي أنفقت ساعات طويلة في تصويرها بنفسي. ولكن على الأقل وصل إليّ أخيرًا صوت منسق عملية الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، رغم أنه تعمد حذف مقاطع بعينها وتعمد تغيير معالم الصوت إليكترونيًا. حبست نفسي في غرفة المونتاج أرهف السمع إلى صوت رمزي المعدل مرةً بعد مرة. بعد دقائق معدودة استطعت - وقد كنت في يوم من الأيام مدرسًا لفنون المونتاج - أن أعيد الصوت إلى أصله، لكنني قررت في النهاية أن أحتفظ بالصوت كما جاء من المصدر. كان هذا على أي حال وعدًا قطعته على نفسي، ولم أكن أملك سوى أن أفي بالوعد.

السبق الصحفي

شرعت في إعادة هيكلة سيناريو الجزء الثاني من تحقيقي التلفزيوني الذي سميته (الطريق إلى ١١ سبتمبر) كي يتضمن صوت منسق العملية، رمزي بن الشيبة، بينما كانت قناة الجزيرة قد بدأت فعلًا في بث الإعلان الترويجي للجزء الأول. حتى في تلك الأيام من النصف الثاني من شهر أغسطس/ آب - بعد مرور أربعة أشهر كاملة على ذلك اللقاء - كنت لا أزال بخيلًا في الحديث عن سبقي الصحفي، فكان أقصى ما جاء في الإعلان الترويجي هو أنه «في الذكرى الأولى لما يسمى غزوة مانهاتن، قناة الجزيرة تفتح أبوابًا لم تُفتح من قبل». بل إن الجزء الأول نفسه، الذي أذيع يوم الخميس ٥ سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٢، لم يكشف هوية الذين التقيت بهم إلا قبل نهايته بنصف دقيقة. كانت آخر جملة في هذا الجزء الأول بمثابة إعلان لما كان يُنتظر بثه في الوقت نفسه من الأسبوع التالي: «في الجزء الثاني من هذا التحقيق، أول اعترافٍ مباشر: كيف خططت القاعدة وكيف نفذت الحادي عشر من سبتمبر». في ثوانٍ معدودة كانت هذه الجملة عنوانًا رئيسيًّا لوكالات الأنباء العالمية.

كشف أول تقرير لوكالة رويترز النقاب عن مدى ضحالة معرفة الأميركيين (حتى بعد عام كامل) بالرؤوس المدبرة لأخطر عمل إرهابي في التاريخ المسجل. جاء في التقرير ما يلي:

> «ذكرت قناة الجزيرة الناطقة باللغة العربية أن لديها اعترافات من رجلين تقول إنهما عضوان في تنظيم القاعدة الذي يتزعمه أسامة بن لادن يزعمان فيها مسئولية

التنظيم عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر. وصرح مسئول في قناة الجزيرة أن أحد الرجلين هو يمني اسمه رمزي بن الشيبة، أحد زملاء محمد عطا في السكن سابقًا. أما الآخر، خالد (ال) شيخ محمد فتظهر صورته على الموقع الإليكتروني لمكتب التحقيقات الفيدرالي كأحد «الإرهابيين» المطلوبين. غير أن الموقع لا يشير رغم ذلك إلى علاقة محتملة له بالقاعدة، كما أن اسم بن الشيبة لا يوجد على الموقع».(١)

تنسيقًا مع قناة الجزيرة حملت صحيفة الصنداي تايمز اللندنية على صدر صفحتها الأولى تقريرًا بقلم نِك فيلدينغ يوم ٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢ ـ أي بعد بث الجزء الأول بثلاثة أيام ـ يضع هذا السبق الصحفي في حجمه الذي يستحقه. داخل العدد نفسه تقرير من ثمانية آلاف كلمة يحتل ثلاث صفحات عنوانه «العقول المدبرة» بقلم يسري فوده. أمام شغف عالمي جارف كان لا بد من كتابة تقرير صحفي مهني بلغة إنجليزية «فصحى» لتحقيق جملة من الأهداف؛ أولًا: إنه ليس لدى قناة الجزيرة ولا لديّ أنا ما نخفيه، وثانيًا: إنه لم يكن من الممكن إغلاق الباب دون المهتمين، خاصةً «أصحاب الاهتمام الخاص»، إلا بهذه الطريقة التي تحفظ للصحفي استقلاله فيما يراد لنا أن نفهم أنه «حرب على الإرهاب» وأننا في إطارها «إما معهم أوعليهم»، وثالثًا: إن خالد شيخ محمد نفسه تمنى عليّ أن أنشر ما قاله لي بكل لغات الأرض إذا استطعت، ورابعًا: إن تقريرًا كهذا في صحيفة كهذه كان بمثابة إعلان لا يقدر بثمن للجزء الثاني من التحقيق الذي كان على وشك البث بعد أربعة أيام، أي يوم الخميس ١٢ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢. وانطلاقًا من هذه الدوافع نفسها كان تشجيع رئيس مجلس إدارة قناة الجزيرة، الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني، الذي اقترح أيضًا أن يخرج التحقيق مصحوبًا بترجمة إنجليزية مكتوبة على الشاشة، وهو ما تم.

من وجهة نظر غربية، لخص نِك فيلدينغ على الصفحة الأولى أهم النقاط التي لم يكن أحد في الغرب يعلمها قبل عودتي من كراتشي:

- الهدف الرابع للخاطفين لم يكن البيت الأبيض، وإنما مبنى الكونغرس...

---

(١) «تلفزيون عربي يبث اعترافات الحادي عشر من سبتمبر»، رويترز، ٠٢:٥٥ بتوقيت غرينيتش، ٦ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢.

- الخطة المبدئية كانت تتضمن الدخول بالطائرات في مفاعلات نووية...
- اتُّخذ القرار ... بواسطة اللجنة العسكرية لتنظيم القاعدة في أوائل عام ١٩٩٩ ...
- استُدعي عطا ... إلى اجتماع حرب مع خاطفين آخرين في صيف عام ١٩٩٩ ...
- تم إرسال أربع وحدات استطلاع على الأقل إلى أمريكا قبل وصول عطا وبقية الطيارين...
- تواصل عطا مع بن الشيبة باللغة الألمانية عبر الإنترنت. كان يتظاهر بأنه طالب في أمريكا يتصل بحبيبته «جيني» في ألمانيا.
- أطلقوا على الأهداف أسماء كليات جامعية: مركز التجارة العالمي كان «كلية التخطيط العمراني»، والكونغرس كان «كلية القانون»، والبنتاغون كان «كلية الفنون الجميلة».
- تم تجنيد «العضلات» من داخل ما تسميه القاعدة «قسم الاستشهاديين»...
- كان بن الشيبة يريد أن يكون الخاطف رقم ٢٠ لكنه فشل في الحصول على تأشيرة دخول إلى أمريكا...
- في مخبأه، لا يزال يحتفظ بحقيبة مليئة بمواد استخدمت في التخطيط للهجمات...

هذا اللقاء يقدم أول اعتراف كامل من أعضاء رفيعي المستوى في شبكة بن لادن بأن القاعدة هي حقًّا التي نفذت هجمات الحادي عشر من سبتمبر ...[١]

في محاولة يائسة لتجنب اهتمام عالمي غامر غادرت لندن إلى الدوحة مضطرًّا إلى وضع اللمسات الأخيرة على الجزء الثاني في المقر الرئيس للجزيرة. عندما وصلت إلى هناك اكتشفت سببًا آخر وراء إلحاح رئيس مجلس الإدارة، الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني، على اختطافي من أجواء «الاهتمام الغربي» في لندن مع ضيف آخر

(١) نِك فيلدينغ، «زعماء القاعدة يكشفون أسرار الحادي عشر من سبتمبر»، الصنداي تايمز، ٨ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢، ص ١.

هو عبد الباري عطوان، رئيس تحرير «القدس العربي»: لقد وصل لتوه شريط آخر من القاعدة إلى الجزيرة.

حمل الشريط صور المنفذين التسعة عشر مصحوبة بصوت أسامة بن لادن يتلو أسماء بعضهم - بمن فيهم الطيارون - ويمتدح الرجال «الذين غيروا مجرى التاريخ وطهروا الأمة من قذارة الحكام الخانعين». لم يكن من الواضح رغم ذلك متى قام بن لادن بتسجيل هذا الشريط الصوتي الذي أُضيف إلى شريط الصور.

ثم فجأة، أدركت أن هذا لا بد أن يكون الشريط الذي قال لي رمزي إن شركة «السحاب» ستعمل على إنتاجه احتفالًا بالذكرى الأولى. تضمن الشريط أيضًا وصية عبد العزيز العمري، وكنيته أبو العباس، رفيق محمد عطا في الليلة الأخيرة، مؤلف ذلك المخطوط الذي يشرح للخاطفين ما ينبغي عليهم عمله وقوله قبيل عملية الاختطاف وأثناءها.

تضمن الشريط أيضًا مجموعة من اللقطات لعدد من «العضلات» قبل سفرهم إلى أمريكا جالسين على الأرض، في مكان ما في قندهار، منكبين على كتب للطيران وخرائط للساحل الشرقي للولايات المتحدة وغيرها من مواد. دخلت مع صديقي إبراهيم هلال، رئيس تحرير الجزيرة وقتها، إلى إحدى غرف المونتاج وأغلقنا الباب وراءنا. توقفت لدى أكثر من نقطة على الشريط. أعدتها ثم شاهدتها، ثم أعدتها ثم أمعنت. كان ثمة شيء مألوف في تلك المواد التي انكب عليها المنفذون، كما كان ثمة شيء أكثر ألفة في صوت المعلق. فجأة استدرت إلى إبراهيم وهمست في أذنه: «هذا جانب من «ذكريات هامبورج» التي قمت بتصويرها بنفسي في شقة كراتشي، وهذا الصوت ليس سوى صوت رمزي بن الشيبة». لم يكن إبراهيم يريد أن يصدق، لكن ثقته في صديقه كانت أكبر من المفاجأة.

اقتطع إبراهيم جانبًا من الشريط وأذاعه مساء ذلك اليوم، الإثنين ٩ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢، دون الإشارة إلى تلك المفاجأة. كان هو وحده الذي علم باكتشافي في غرفة المونتاج، لكن الجميع كان يعلم أنني تعمدت ألا أضع صوت رمزي بن الشيبة في الإعلان الترويجي للجزء الثاني من تحقيقي. كنت أريد أن أحتفظ بهذه المعلومة

ذات الدلالـة حتى اللحظـة الأخيرة، وقد حلت تلك اللحظـة الأخيرة صباح الأربعاء ١١ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢، قبل يوم واحد من بث الجزء الثاني. في تلك اللحظة فقط أتيح للعالم لأول مرة أن يسـتمع إلى صوت رمزي بن الشـيبة من خلال هذا المقتطف الـذي اخترته له وهـو يصف رد فعل «الأخوة» وهم يتابعون جنـي أيديهم على الهواء مباشرةً يوم الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١:

«... فـكان الجميع يرون العملية ويبكون... ولما بدأت الأخبار وفجأة سـمعنا خبـر اصطـدام الطائـرة الأولى... صـاح الأخـوة: «تكبيـر»، وكبّروا وسـجدوا لله، وبكـوا... وظـن الأخوة أن هذه هـي العملية فقط، فقلنا لهم: «اصبـروا». وفجأة دك أخونا مروان البرج الجنوبي لمركز التجارة دك عنيف جدًّا، يعني بشـكل لا يُتصور. نحن نرى على الهواء مباشرة ونقول: «اللهم سدد، سدد، سدد»».

وأخيـرًا، أذيـع الجـزء الثاني من «الطريـق إلى ١١ سـبتمبر» في اليـوم التالي، يوم الخميس ١٢ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢، مصحوبًا أيضًا بترجمة إنجليزية. حتى قبل موعد البث بخمس دقائق، كنت لا أزال مشغولًا بوضع اللمسات الأخيرة في غرفة المونتاج قبل عودتي إلى الفندق ممنيًا نفسي بقليل من الراحة. في الثانية صباحًا وقع الزلزال.

الصيد في الماء العكر

كان الوقت قد حان، بعد خمسة أشهر من العمل المتواصل والسفر شرقًا وغربًا والمغامرات المحسوبة وغير المحسوبة، كي أعود إلى الفندق ملقيًا بنفسي إلى فراغ مفاجئ يشبه كتلة من ثلج أطبقت فجأة على شعلة من نار، ممنّيًا نفسي باستراحة طويلة كسول على شاطئ الدوحة صباح اليوم التالي والأيام القليلة التالية قبل عودتي إلى لندن. لكنّ ذلك لم يكن سوى أمنية من سحابات الصيف سرعان ما تبخرت.

ففي عز الليل، في الثانية وخمس وثلاثين دقيقة صباحًا أيقظني اتصال هاتفي من رئيس التحرير المناوب، عرار الشرع، يعتذر عن إيقاظي في تلك الساعة ويسألني إن كنت أود أن آخذ حمامًا سريعًا قبل أن ألتحق به في غرفة الأخبار: «لقد قبضوا على رمزي بن الشيبة، وكثير من الناس يتصلون بنا كي يقولوا: «متى ستسلّمون بن لادن أيضًا؟»».

تملّكني الذهول وأنا جالس في سريري فأعدت سماعة الهاتف متمتمًا بكلمات لا معنى لها فإذا به يدق مرةً ثانية. كان إبراهيم هلال نصف نائم وهو يحاول تهدئتي: «لم تتضح الصورة بعد. رأيي أن تحاول الحصول على قسط من الراحة ولا داعي للذهاب إلى المحطة. لقد اتصلت بأبو عبد الله (رئيس مجلس الإدارة) ونصيحته لنا أن نستريح جميعًا إلى أن نلتقي في الصباح».

راحة؟ أي راحة؟! لا أنا حاولت أن أستريح ولا الراحة كانت تنتظر وراء الباب على أي حال. انهمر على ذاكرتي شريط طويل، طويل، يقترب في طوله من خمسة

أشـهر عندمـا وصلنـي أول اتصال هاتفي ممن سـميته «أبو بكر». تدافعـت الذكريات فـرادى وجيوشًـا وأنا أحاول أن أجد معنى لما حدث قبـل لحظات، على ضوء تجربة مرهقـة كانـت مـن وجهة نظـر صحفية أقـرب إلى حلـم رومانسـي تحول فجـأة إلى كابوس ضاغط.

وصل إدراكي إلى سيناريو بعينه يمكن أن يشرح ما حدث، ثم ما لبث أن لمع أمام عينيّ سيناريو آخر محتمل، ثم ثالث، ثم رابع. هذه قصة ربما لن يُكتب للعالم أن يقف على ملابساتها أبدًا. تسرب إليّ هذا الإحساس وقد تراكمت الأفكار في رأسي، لكنّ الذي لا شك فيه ـ كما أدركت في تلك اللحظة ـ أنني لن أستطيع أن ألوم أحدًا يقفز إلى ذهنه احتمال الربط بين زيارة كراتشـي والقبض على رمزي بن الشـيبة. يا لصعوبة الموقـف! بل يا لاسـتحالته ويداي مغلولتان بوعود قطعتها على نفسـي أمام الرجلين قبل إجراء الحوار معهما! كيف يمكن لي الآن أن أدافع عن موقفي دون أن أضطر إلى التضحية بقيمة صحفية أو إنسانية؟

دون مقدمات، صار يسـري فوده فجأةً جزءًا لا يتجزأ من سـبقه الصحفي. وجهت صحيفـة «نيويـورك تايمـز» اللـوم إليه لأنـه «احتفظ بمـا كان لديه من معلومات سـرًّا لأكثـر من شـهرين»، (في الواقع، لأكثر من أربعة أشـهر)، ولأنه «لـم يتصل بأي جهة أمنية أو وكالة اسـتخبارات سـواء قبل اللقاء بـ(خالد ورمزي) أوبعده»[1]. أما صحيفة «واشـنطن بوسـت» فقد نزعت كلماتي من سـياقها وزعمت أن «فوده خائف، بصورة حقيقية، من أن يكون قد فقد شعبيته بين أتباع بن الشيبة إلى حد أنه، لدى هذه النقطة، يخشى العودة إلى مسرح اللقاء»[2].

بين الصحف العربية لم تكن صحيفة «الأهرام» المصرية «شـبه الرسـمية» لتصدق أن آتـي وحـدي بهـذا السـبق الصحفـي. «.. الملاحظـات كثيرة، وهـي إن دلت على شـيء فعلـى أن هـذا الفيلـم الوثائقي العربي الذي سـمح لـه بالتصوير داخـل البنوك ومـدارس الطيـران الأمريكيـة وفي هـذه الظروف لا يمكـن أن يكون قد تـم تصويره

(١) فيليسيتي بارينغر، «نيويورك تايمز»، ١٦ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢.

(٢) دانييل ويليامز، «واشنطن بوست»، ١٦ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢.

بدون تدخل مباشر أوغير مباشر من جهة مخابراتية، ولعل ما أذيع أخيرًا عن القبض على رمزي بن الشيبة يؤكد هذا التعاون، سواء كان رمزي هذا شخصية حقيقية أو من مبتكرات مخابراتية!»[1].

تحت عنوان عريض على صفحتها الأولى يزعم أن «الجزيرة أبلغت المخابرات الأمريكية بالموعد»، ادعت صحيفة لبنانية هاوية أن ما تصفه بمصادر غربية اعتبرت أنه «كان للمحطة القطرية دور فعال في عملية اعتقال بن الشيبة، حيث قامت بإبلاغ المخابرات الأمريكية بموعد المقابلة التي سيجريها مراسلها معه مما سمح بمتابعة مراسل الجزيرة والتعرف على المنطقة الموجود فيها بن الشيبة، الأمر الذي سهل اعتقاله يوم الأربعاء الماضي»[2].

في اليوم نفسه، كان «السيناريو كله» قد هبط من ثنايا الغيب على صفحات جريدة «اليوم» السعودية. تحت عنوان «دور ما راقب هاتف مقدم (سري للغاية) بعد رفضه التعاون مع سي آي إيه»، تزعم الجريدة في تقرير «خاص» أن مصادر دبلوماسية عربية في لندن كشفت عما وصف بـ «دور ما» في اختراق تنظيم القاعدة، خاصةً في الإيقاع برمزي بن الشيبة، «وأضافت أن المخابرات الأمريكية اتصلت على مستوى عال بقناة الجزيرة فور بث برنامج «سري للغاية» الذي يقدمه الإعلامي المصري يسري فوده وطلبت منه ضرورة إقناعه بالتعاون مع الأجهزة الأمريكية لمعرفة مكان بن الشيبة والوسيط الذي رتب اللقاء مع بن الشيبة، وذلك بعد فشل محاولات سابقة لإقناعه بالكلام حيث أكد أنه أقسم على عدم الإدلاء بأي معلومات عن ذلك. وقالت المصادر إن الشخصية الكبيرة اتصلت مباشرة بفوده وطلبت منه التعاون وإلا سيتم فورًا فصله وإبعاده عن القناة مع الوعد بمنصب أكبر ومزايا في حال تعاونه، إلا أن الأخير رفض الإبلاغ عن مصادره وفاءً لقسمه مؤكدًا أن الأمانة الصحفية تفرض عليه عدم الكشف عن مصادره».

---

(١) صلاح منتصر، «مجرد رأي»، «الأهرام»، السنة ١٢٦، العدد ٤٢٢٨٦، ١٥ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢.

(٢) «الكفاح العربي»، السنة ٤٤، العدد ٣٢٨٣، ١٦ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢.

وتمضي الجريدة السعودية في تطوير السيناريو: «وقامت المخابرات الأميركية بمراقبة تلفون فوده الشخصي وتوصلت عن طريقه للوسيط الباكستاني حيث حددت مكانه عن طريق تتبع تلفونه، وبالفعل تم اعتقال الوسيط الذي اعترف بمكان بن الشيبة وعدد من معاونيه حيث تم إلقاء القبض عليهم بعد معركة حامية بالرصاص»[1].

ويبدو أن هذا الخط من التخمينات ـ بريئةً كانت أم مغرضة ـ أوحى لصحفية ألمانية تعمل في المجلة الرصينة «دير شبيجل» أن تقوم بإعداد تقرير حول هاتفي المحمول: لونه، حجمه، طرازه، علامته التجارية، الشركة المصنعة، الشركة المسئولة عن الخدمة، ما إذا كان له جورب أو سماعة أذن، وأي نغمة موسيقية تصدر عنه عند الاتصال به.

غير أن من أكثر ما أثار سخريتي تقرير طويل في جريدة «الشرق الأوسط» عنوانه: «محققون أمريكيون وباكستانيون يستجوبون منسق هجمات ١١ سبتمبر رمزي بن الشيبة وأبو بكر المسئول الإعلامي للقاعدة». ذلك أن هذا المسئول الإعلامي الذي قام بترتيب اللقاءات لم يكن هو نفسه يعلم أنني قررت أن أسميه «أبو بكر» إلا بعد أن شاهد البرنامج. وقد اخترت له هذه الكنية تيمنًا بالخليفة الصدّيق وأملًا في أن يصدق في وعوده. وقع كاتب التقرير في شر أعماله من حيث أراد أن يصطاد في الماء العكر. لكنه، وقد فعل، ترك على الأقل ابتسامة من الثقة الساخرة على فم «أبو بكر» الذي لا يزال حتى كتابة هذه السطور حرًّا طليقًا.

اقتربت الأمور خلال ذلك الأسبوع من حافة الجنون. وبينما امتلأت الصحف شرقًا وغربًا بمثل هذه السيناريوهات الهزلية المأساوية في آنٍ معًا، دخل الأميركيون والباكستانيون في معركة كلامية حول من يستحق أن يزعم شرف «اصطياد» رمزي بن الشيبة. أما القاعدة نفسها فقد أصابها تخبط مؤقت غير معتاد؛ ففي البداية أنكر موقع «الجهاد» الإليكتروني ـ الذي يُعتقد على نطاق واسع أنه ينطق بلسانها ـ وقوع رمزي بن الشيبة في الأسر.

---

(١) «اليوم»، العدد ١٠٦٨٥، ١٦ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢.

جـاء في أول بيانات الموقع يوم ١٤ سـبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢ تعليقًا على ما حدث: «يؤكـد المجاهـدون أن الأخ رمـزي بـن الشـيبة والأخ خالد شـيخ محمـد، حفظهما اللـه، لا يزالان مـع الأخوة المجاهدين في مـكان آمن، وأن الأنبـاء التي تحدثت عن اعتقالهمـا، وبالـذات التركيـز الإعلامـي علـى اعتقـال الأخ رمزي هو محـض افتراء وكذب، وهي مسرحية مكشوفة من هؤلاء الصليبيين وعملائهم في النظام الباكستاني المرتد. ونؤكد هنا أن هذه المسـرحية الهزلية قد أسـاءت وبشكل كبير جدًّا لمصداقية قناة الجزيرة الفضائية على الصعيد الإخباري ومتابعة الحدث. طبعًا هذا الكلام نقوله لعدة أسـباب يعرفها بشكل مباشـر يسري فوده نفسه ... ونتحداه أن يثبت هذا الحوار المباشـر مع الأخوة لأنهم هم بأنفسـهم أصلًا أنكروا هذا الأمـر لنا».[1] بعد قليل كان لا بد لي من أن أقبل التحدي - بشروطي.

(١) انظر www.jehad.net/jehad-news/article.php?ID = 302

صك البراءة

امتطى بعضهم موجة الفوضى التي أحاطت بملابسات القبض على منسق عملية الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، رمزي بن الشيبة، ولم تشفع لي حقيقة أن نحو خمسة أشهر كانت تفصل بين لقائي به في أبريل/ نيسان عام ٢٠٠٢ وسقوطه في سبتمبر/ أيلول من العام نفسه. غير أنني من التواضع بحيث أدركت أنني لم أكن المقصود الأول، بل قناة الجزيرة ودولة قطر. وجدت عزائي وسط ذلك في حقيقة أنني كنت متأكدًا من أن أعضاء القاعدة الحقيقيين الذين قابلتهم، والفئة القليلة من إخوانهم الذين كانوا على علم بالموضوع، لم يتحدثوا بعد. كان من الواضح للجميع أن أطرافًا مختلفة تحاول الاصطياد في الماء العكر، كل منها لأغراضها الخاصة، مثلما كان من الواضح لي أن أصحاب الشأن في ذلك الأسبوع العصيب كانوا مثلي يتبينون طريقهم وسط بحر من الفسق خوف أن يصيبوا قومًا بجهالة.

كان الاحتفاظ برأس بارد خلال ذلك الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢ أشق من التعامل مع مخاطر رحلتي إلى كراتشي نفسها قبل ذلك بخمسة أشهر. لكنني كنت أعلم في الوقت نفسه أن عليّ أن أتحدث إلى العالم إن عاجلًا أو آجلًا، وأن حديثي هذا، الذي لم يكن يصح إلا أن يمر على الهواء مباشرةً من خلال قناة الجزيرة نفسها، ربما يكلفني حياتي.

في مساء الجمعة، ٢٠ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢، قام الزميل محمد كريشان بتقديم حلقة استثنائية من برنامج «أكثر من رأي»، الذي يقدمه عادةً سامي حداد، عن العلاقة

بين وسائل الإعلام وتنظيم القاعدة وما يكتنفها من مخاطر للطرفين. كان ضيوف الحلقة شيلا ماكفيكر، كبيرة مراسلي شبكة «سي إن إن»، في لندن؛ ومحمد صلاح، مدير مكتب جريدة «الحياة» في القاهرة؛ بينما كان إلى جوار كريشان في استوديو الدوحة كل من تيسير علوني، مراسل الجزيرة سابقًا في أفغانستان؛ وأنا.

كان موضوعًا شيقًا اختير لإدارته الصحفي المناسب، ولمناقشته الضيوف المناسبون، في الوقت المناسب، في المكان المناسب، وأتيح فيه المجال لمداخلات من الجمهور على الهواء مباشرة. عبر ساعتين من النقاش والمداخلات تشكّل رأي عام جارف غمرني تواضعًا وأعاد إليّ كثيرًا من ثقتي في أنه لن يصح في نهاية المطاف إلا الصحيح، وفي أن احتفاظ الإنسان بمبدأ لن يضيره أبدًا مهما كانت قسوة الظروف.

أثناء البرنامج كان لديّ إحساس بأن خالد شيخ محمد ربما يكون من بين المشاهدين فبعثت إليه برسالة مبطنة. والأهم من ذلك أنني بعثت للآخرين بفخ آخر. كنت أريد أن أستأصلهم من المعادلة تمامًا، فألقيت إليهم بطعم كنت أتوقع أن بعضهم سيلتقطه، مثلما كنت أعلم أن الطرف الوحيد المحصن ضد هذا الطعم هو خالد شيخ محمد والذين معه. في خضم بحر متواتر من البيانات والتقارير والتخمينات لم أعد قادرًا على تمييز الغث من الثمين، لم أعد قادرًا على الحكم على مدى مصداقية ما يوضع أمامي، لم أعد قادرًا على التأكد مما إذا كان بيان ما صادرًا عن القاعدة الحقيقية أم عن هؤلاء -وقد كانوا كثرًا- الذين انتهزوا الفرصة للاصطياد في الماء العكر.

كانت الطريقة الوحيدة المتاحة أمامي، دون أن أضطر إلى الحنث بأي من وعودي، هي أن أقوم بتغيير أحد عناصر قصتي مع خالد ورمزي، على أن يكون هذا العنصر معروفًا فقط لهما وللفئة القليلة من إخوانهم التي كانت على علم بالموضوع، وعلى أن يكون هذا العنصر من العناصر الأساسية في رواية أي قصة دون أن يؤثر تغييره في مصداقيتها، وعلى أن يكون خالد وإخوانه في موقف يسمح لهما بتعديل التغيير. عندئذٍ فقط أستطيع أن أتأكد مما إذا كان البيان التالي قد أتى فعلًا من القاعدة الحقيقية أم من طرف آخر. وقد انطبقت هذه الشروط كلها على عنصر بعينه هو تاريخ اللقاء في

كراتشي الذي قلت أثناء البرنامج إنه حدث في يونيو/ حزيران ٢٠٠٢ رغم أنه حدث قبل ذلك بشهرين.

صباح اليوم التالي، حمل موقع «الجهاد» بيانًا جديدًا ورد فيه التاريخ الصحيح للقائي في كراتشي بكل من خالد ورمزي. وصلت الرسالة إلى الرجال الحقيقيين، فكانوا على مستوى المسئولية:

بسم الله الرحمن الرحيم

(توضيح من المكتب الإعلامي لتنظيم القاعدة)

«عن علاقة قناة الجزيرة والأستاذ يسري فوده بأحداث كراتشي»

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾. (الحجرات: ٦).

حرصًا من المكتب (الإعلامي) لتنظيم القاعدة على إظهار الحقيقة وقطع الأقاويل والشائعات فإنه يود التأكيد للجميع على أن قناة الجزيرة والأستاذ: يسري فوده مقدم برنامج (سري للغاية) ليس لهم أي علاقة بالأحداث التي حدثت في كراتشي في الأيام الماضية وأن ما حدث إنما هو بقدر الله وحكمته.

ونحن في هذا المجال لا نغفل الدور الإجرامي الذي تمارسه الحكومة الباكستانية بقيادة «برويز مشرف» ومسارعتها لإرضاء أمريكا والغرب على حساب أبناء الأمة المخلصين.

كما نود التأكيد على أن لقاء الأستاذ يسري فوده مع الأخ خالد الشيخ والأخ رمزي بن الشيبة قد تم في شهر صفر (أبريل/ مايو) من العام الحالي لا كما يظن

البعض أنه تم في شهر رجب (أغسطس/ سبتمبر) الجاري وقد تم هذا اللقاء حسب ترتيباتنا الأمنية الخاصة، وقد التزم الأستاذ يسري فوده بجميع العهود والمواثيق التي قطعت عليه، كما أنه كان أمينًا في نقل الأحداث والوقائع التي حصل عليها من جانبنا مع تحفظنا على بعض الفقرات التي وردت في برنامجه!! كما نود التأكيد على أن مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي قد قامت بإحداث تغيرات على صوت الأخ رمزي بن الشيبة مما يعني أن ما أعلن من أنه قد تم التعرف على صوته من خلال مطابقته بالصوت الذي جاء في البرنامج إنما هو محض افتراء لا أساس له من الصحة، كما أن المادة الإعلامية التي استلمها الأستاذ يسري فوده إنما تمت بعد اعتمادنا لها وموافقتنا عليها.

كما نود التأكيد على أن قناة الجزيرة وما بثته من برامج وتحليلات ولقاءات تخص القاعدة إنما كانت تعرض الرأي والرأي الآخر في وقت كان الجميع لا يعرضون إلا رأيًا واحدًا وهو الرأي الأمريكي المفروض.

والله ولي التوفيق

تنظيم القاعدة

(المكتب الإعلامي)

السبت ١٤ رجب ١٤٢٣هـ - ٢١ سبتمبر ٢٠٠٢م

شبكة الجهاد أون لاين الإخبارية

www.jehad.net

هكذا تحدث أخيرًا خالد شيخ محمد الذي لا بد أنه كان يتابع ما يحدث ما أسعفته الظروف. لقد أدرك أن قناة الجزيرة ويسري فوده في موقف لا يُحسدان عليه، وأن دليل براءتهما كان في أيديهما ولم يستخدماه، وأن عليه من ثم أن يفعل شيئًا. ولكن، لماذا ينبغي عليه أن يفعل شيئًا؟!

كان يمكن للذين كانوا يتابعون ما يحدث أن يتأملوا في هذا البيان كي يكتشفوا جملة من الرسائل، منها ما هو ظاهر ومنها ما هو باطن. فرغم أن الموضوع الظاهري للبيان هو الموقف بالنسبة للجزيرة وشخصي أنا، فإن الموضوع الحقيقي في واقع الأمر هو تنظيم القاعدة نفسه.

جاءت الإشارة غير المباشرة إلى مسألة القبض على رمزي بن الشيبة - بوصفها بـ «الأحداث التي حدثت في كراتشي في الأيام الماضية» - تمهلًا في الحكم على الأمور، ودليلًا على إيمان التنظيم بأنه لم يكن ليتأثر بفقد أحد أعضائه مهما كانت أهميته، وإدانةً لا لبس فيها للحكومة الباكستانية التي تقوم بـ «دور إجرامي». وفي هذا إسقاط للتكهنات بأن الأميركيين هم الذين استطاعوا - بواسطة ما لديهم من تقنيات المراقبة - أن يصلوا إلى رمزي بن الشيبة وإخوانه من خلالي. إن الأمر أبسط من ذلك بكثير؛ ففي إشارة إلى حكومات وأطراف عربية أخرى يوحي البيان بأنها حاولت أن تصطاد في الماء العكر، تنصف القاعدة قناة الجزيرة مؤكدةً أنها «إنما كانت تعرض الرأي والرأي الآخر في وقت كان الجميع لا يعرضون إلا رأيًا واحدًا وهو الرأي الأمريكي المفروض».

وتأسيسًا على تاريخ القبض عليه الذي أعلنه الباكستانيون، من المفترض أن رمزي بن الشيبة لم يتمكن من مشاهدة الجزء الثاني من «الطريق إلى ١١ سبتمبر»، بل إنه لا يوجد دليل على أنه شاهد الجزء الأول من التحقيق الذي أذيع قبل ذلك بأسبوع. كنت أتمنى أن أتعرف على رأيه في هذا الفيلم التسجيلي الذي يعود إليه هو نفسه الفضل في اقتراح فكرته. أما خالد شيخ محمد فمن الواضح، كما جاء في البيان، أن لديه تحفظات «على بعض الفقرات التي وردت في برنامجي!!» رغم أنه أبدى إعجابه بالتزام فوده «بجميع العهود والمواثيق التي قطعت عليه، كما أنه كان أمينًا في نقل الأحداث والوقائع التي حصل عليها من جانبنا». كان له هو نفسه أن يسقط في أيدي الأمريكيين بعد ذلك بستة أشهر، لكن تلك قصة أخرى - طويلة.

صور ومستندات

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطوط الرئيسية للبرنامج المقترح

سري للغاية.... نقطة ساخنه

صانعوا أحداث سبتمبر يتحدثون

-يبدا البرنامج بابيات الشيخ

ايقظتم التاريخ بعد رقاده....

وقد أقسموا بالله لن جهادهم سيمضي ولو تحدى كسرى وقيصر

مع ظهور صور الأخوة التسعة عشر

-قولة بوش عن الحرب الصليبية

-قسم الشيخ

*الجانب التاريخي للصراع بين الصليب والأسلام

- مقولة بوش

- تحليل تاريخي عن مراحل الصراع بين المسيحيين والمسلمين

- ـ د /فهد محمود محمد شاكر أو الدكتور /عبدالعظيم الديب.
- الحروب الصليبية مرحلة من مراحل الصراع
- من الممكن تناول وتحليل قضية الصراع
- الضيوف المقترحين :ـ د /عبد العظيم الديب

د / عبد الحليم عويس

د/ جمال عبدالهادي

*دخول أمريكا المنطقة وجرائمها التي ارتكبتها ضد الشعوب

- جرائم ابادة الهنود الحمر
- جرائم وكالة الأستخبارات الأمريكية في أمريكا اللاتينية
- جرائم أمريكا في القارة السمراء
- جرائم امريكا في اسيا فيتنام ،اليابان كوريا الشمالية.
- جرائم امريكا في العراق
- جرائم امريكا فلسطين ودعمها اللامحدود لأسرائيل

الضيوف المقترحين :ـ

د/عبدالله النفيسي

أ /عبدالباري عطوان

د /محمد عباس

د/ سعيد مسفر

الصفحة الأولى من أول خيط من رمزي بن الشيبة عبر أبو بكر بالفاكس.

- كيف يتعامل الأعلام الأمريكي الحر! مع نتائج ٩\١١ في ظل سياسة التعتيم الذي تمارسه الحكومة الأمريكية بمعنى آخر ما الذي لايسمح للعالم أن يراه أويسمعه أو يعرفه عن ١١\ ٩؟
- لماذا لم يتوقع الكثير من المحللين السياسيين والعسكريين والخبراء الأمنيين أن تكون القاعدة من وراء عمليات الحادي عشر من سبتمبر ؟
-

هذه بعض الأفكار والمقترحات لموضوع برنامج قادم من برنامجكم القيم (سري للغاية). ويكون هو موضوع الجزء الأول ويقترح باللقاء بالصحفي عبدالباري عطوان والمحلل السياسي د.عبدالله النفيسي والاستاذ سعد الفقيه والخبير منذر سليمان وغيرهم أما الجزء الثاني فيكون عن :-
عن سيرة حياة الطيارين المنفذين لعمليات يوم الثلاثاء وهم:-

- محمد الأمير عطا مركز التجارة العالمي للبرج الشمالي.
- مروان يوسف الشحي مركز التجارة العالمي البرج الجنوبي.
- زياد سمير الجراح أسقطت طائرته في ولاية بنسلفينيا.
- هاني صالح حنجور مبنى وزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون.

وهذا الموضوع لم يسبق لمحطة فضائية أن قامت به من قبل بشكل موسع ومتكامل. وسنوافيك بعناوين أشخاص ومراكز يمكنكم الاتصال بهم لأنجاز الثاني من البرنامج في حال توافر أستعدادكم لعمل هذا التحقيق.

وتقبلوا جزيل الشكر والأمتنان،،،

الصفحة الثانية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الفاضل / يسري فودة

السلام عليكم ورحمة الله الله وبركاته ...

- نظرا لأهمية العمل الذي تقومون به والرسالة الأعلامية التي توجهونها الى الجمهور العربي والأسلامي على حد سواء .
كان يلزم على العامل في هذا المجال المؤثر على الرأي العام أن يتحرى الأخلاص لله في هذالعمل وأن يجعل غايته في عمله هي أرضاء الله عزوجل وليس أرضاء الناس ولايكون هدفه الكسب المادي فقط أو الشهرة الأعلامية وحسب وانما أيضا يحتسب الأجر في ذلك عند الله عزوجل ،ومراعاة الحقائق التاريخية والواقع الذي يعيشه المسلمون وحجم الظلم والأضطهاد الممارس ضدهم هو أمر أساسي في عرض وجهة نظركم من خلال عملكم الحالي وربط الأحداث الأخيرة 9/11 وما تبعها من الحملة الصليبية على المسلمين في النسق التأريخي والديني للصراع بين المسلمين والنصارى وخاصة الصراع من أجل البقاء الذي يجاهد من أجله أخواننا المسلمون في فلسطين وهذا الربط ضروري جدا حتى تكون الصورة مكتملة عند جمهور المشاهدين وهي أمانة تأريخية بالدرجة الأولى،فليست الحرب الدائرة حاليا هي بين أمريكا وتنظيم القاعدة كما تروج له وسائل الأعلام وانما هي حرب صليبية سافرة ضد الأسلام

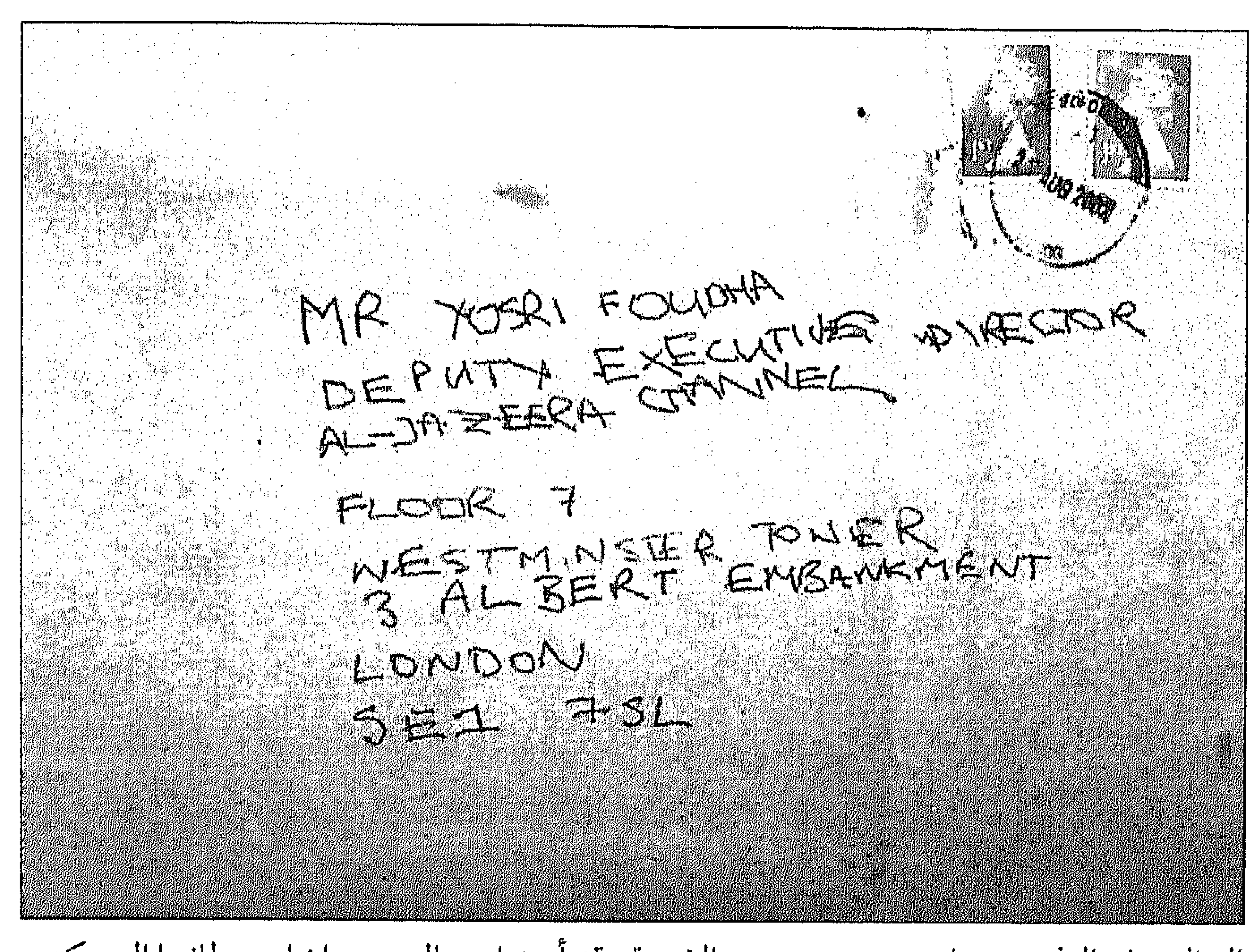
الصفحة الأولى من رسالة رمزي بن الشيبة التي سلمني إياها أبو بكر لدى عودتي إلى كراتشي.

والمسلمين والدلائل على ذلك أكثر من أن تحصى وتعد وأنتم أهل خبرة ودراية بمثل هذه الأمور.
عذرا لهذه الأطالة المهمة والتي كان لابد من توضيحها لكم عسى الله أن ينفع بعملكم هذا المسلمين.

هناك بعض الملاحظات في حالة سؤالكم عن الأ شخاص الذين قابلتهم من المهم جدا أن لاتعطي تفاصيل جديدة لشخصياتهم والتغيير الحاصل لهيائتم والأكتفاء بالملامح الموجودة عندهم في الصور .
- يحبذ أن تكون لكم مقابلة مع الدكتور /عبدالله النفيسي والأستاذ /عبدالباري عطوان .
- هناك أصدارجديد لمؤسسة السحاب ينتهي العمل منه قريبا قد نزودكم بنسخة أولية منه حال الأنتهاء منه.مع بعض أهم المقتطفات للشيخ /أسامة وغيره من القيادات.
- القسم الذي أقسم به الشيخ أسامة يشكل محورا مهما لعملكم أرى أن تضمونه عملكم .
-هناك بعض الأناشيد مثل قوافل الشهداء 1و2و3 يمكن أن تحصلوا عليها من المكاتب الأسلامية .
-يرجى مراعاة عدم مصاحبة الموسيقى للقرآن الكريم أو الحديث الشريف بأي حال من الأحوال .

وجزاكم الله خيرا........

الصفحة الثانية.



المظروف الذي حمل صوت رمزي بن الشيبة وقد أعيد إرساله من داخل بريطانيا إلى مكتبي في لندن.



البطاقة الجامعية لمحمد عطا أثناء دراسته في كلية هندسة القاهرة.



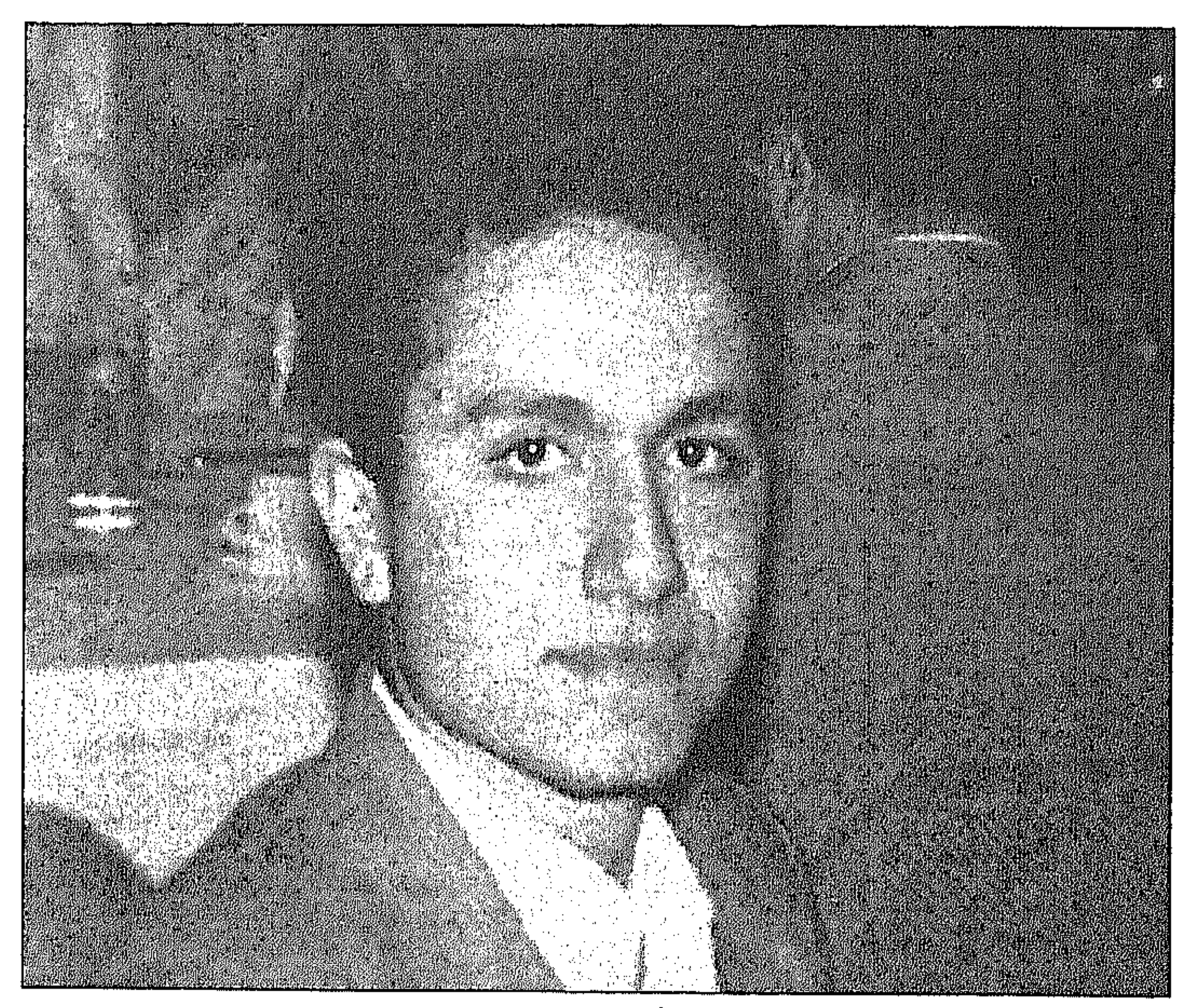
محمد عطا طفلًا مع والديه.



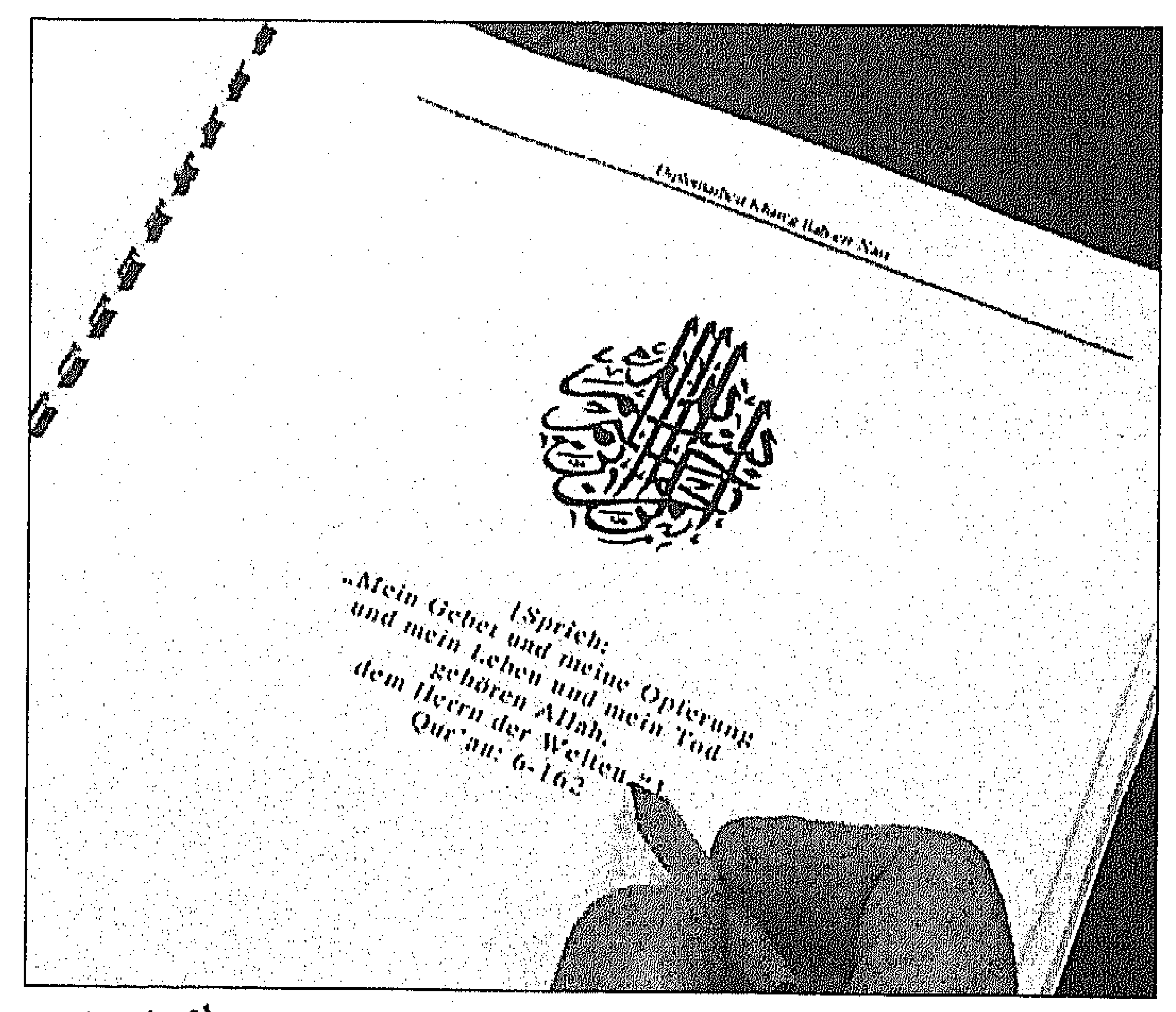
محمد عطا في مدخل منزل العائلة في حي العمرانية بالجيزة.



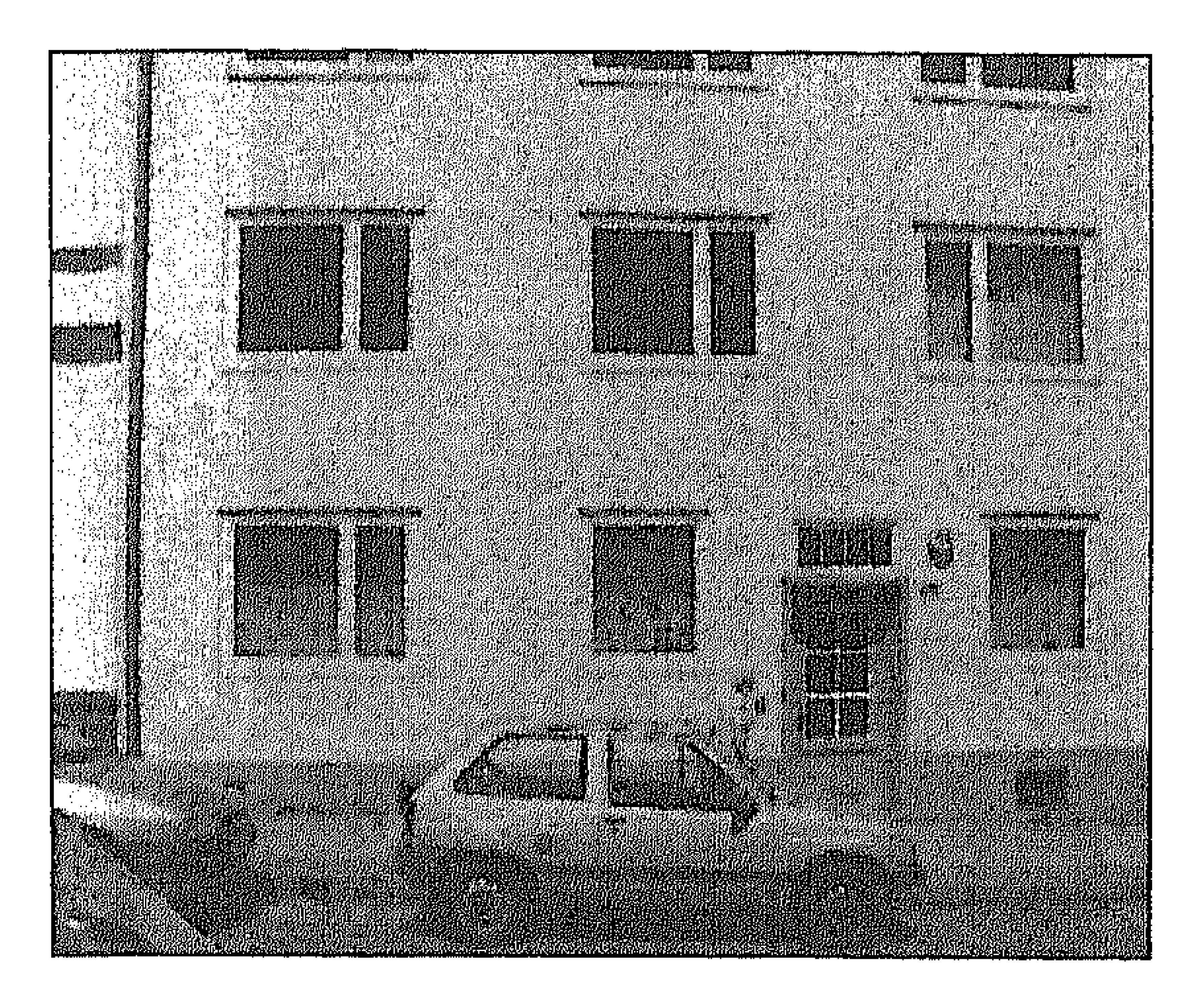
محمد عطا في تركيا في طريقه إلى حلب لجمع مادة علمية في سياق رسالة الماجستير.



محمد عطا قبل مغادرته مصر إلى ألمانيا ضمن برنامج تبادل طلابي.



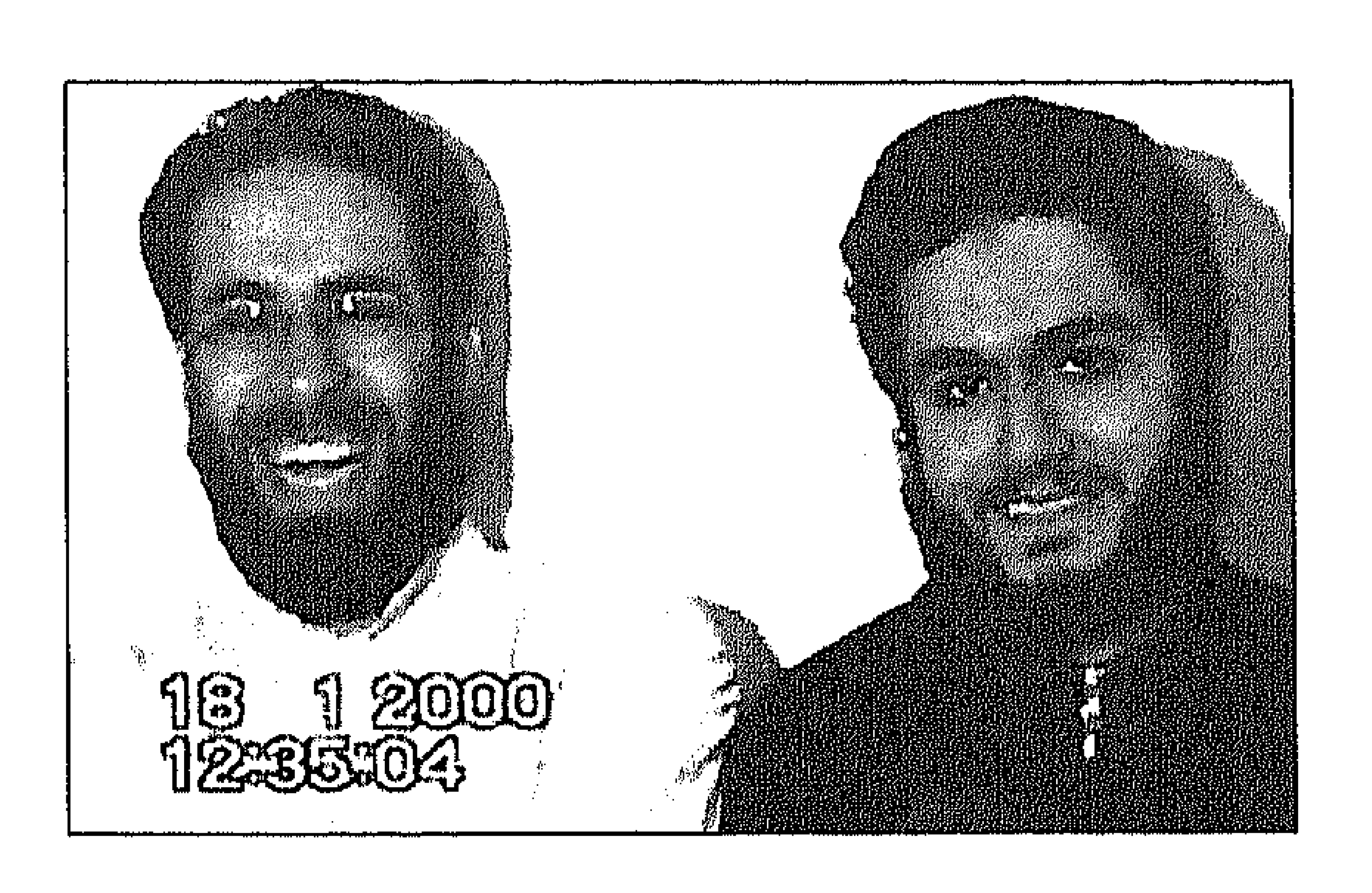
رسالة ماجستير محمد عطا بالألمانية وقد صدرها بهذه الآية: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.



٥٤ شارع ماريانشتراسا في هاربورج قرب هامبورج حيث سكن رمزي بن الشيبة مع محمد عطا وآخرين.



زياد جراح وراء آرني كرويتهوف، صاحب مدرسة الطيران في فلوريدا التي تدرب فيها.



محمد عطا وزياد جراح في أفغانستان قبيل تسجيل وصية كل منهما على الكاميرا في يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٠.



THE SUNDAY TIMES

Driving

NEW: Clarkson launches car section

SPORT

NEW: BRITAIN'S BIGGEST SPORTS SECTION

32 ACTION-PACKED PAGES

style

NEW: Style goes glossy

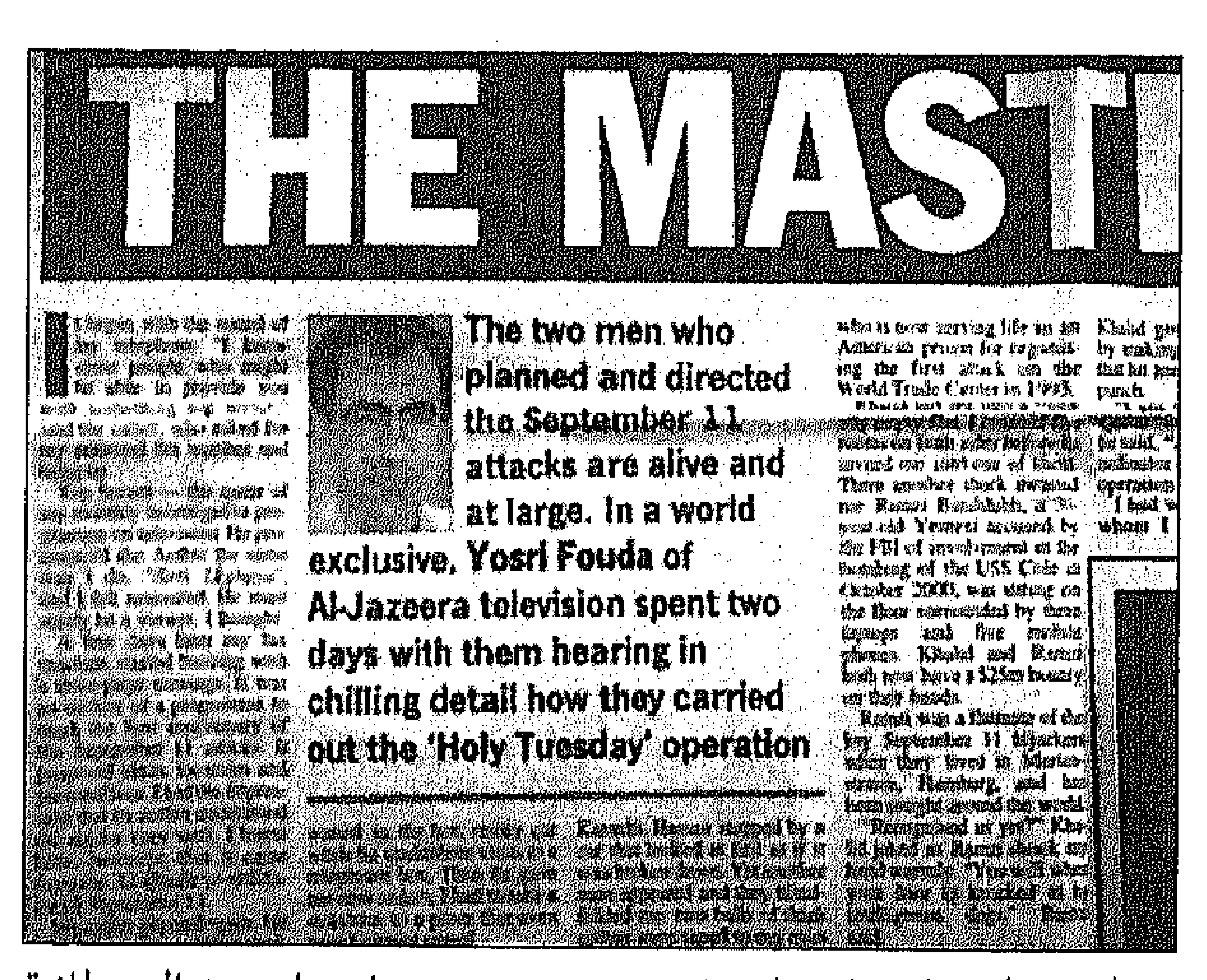
Blair and Bush warn of Iraq threat to UK

Masterminds of 9/11 reveal terror secrets

News Review

Magazine

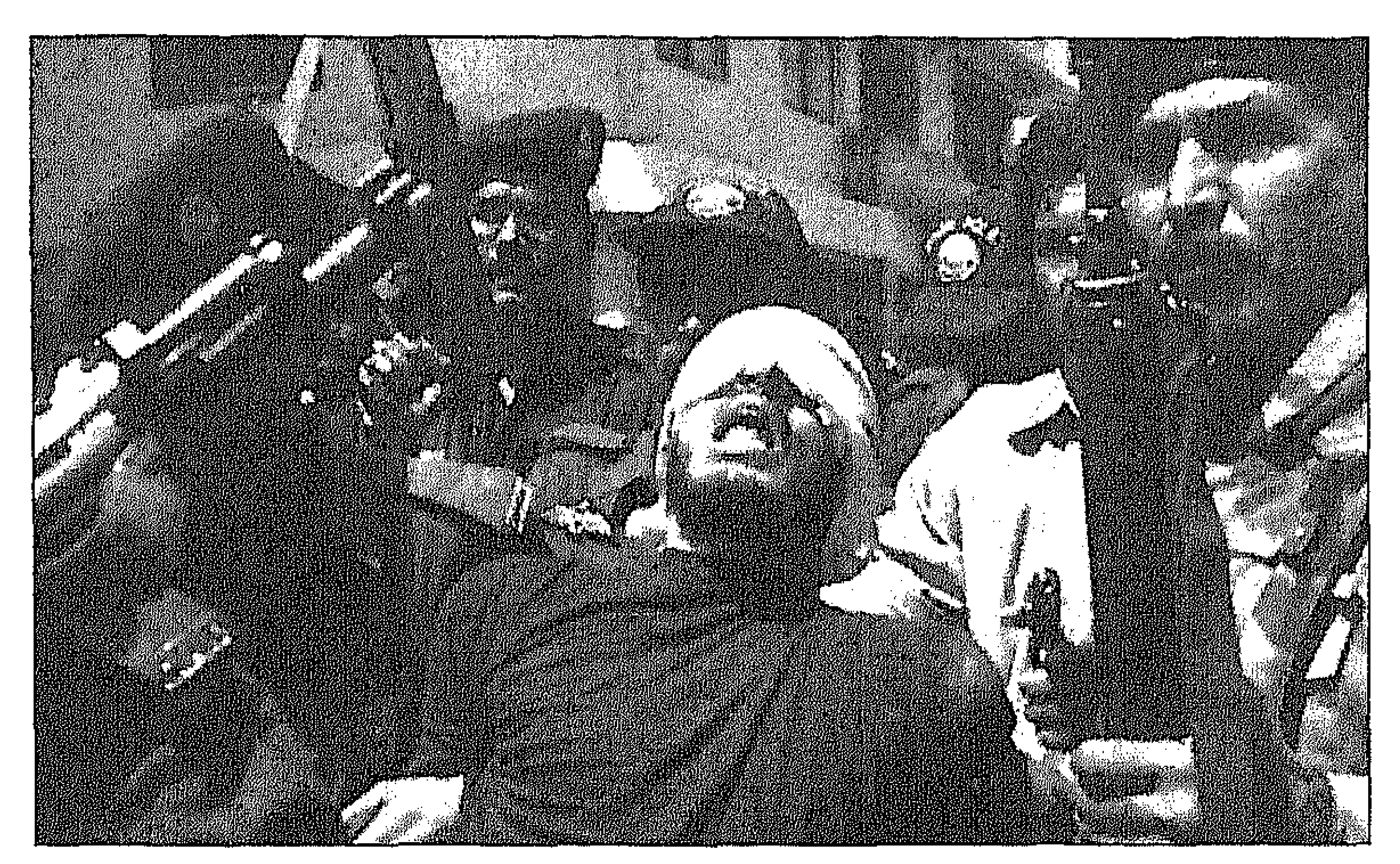
العنـوان الرئيسـي لجريـدة «صنـداي تايمـز» البريطانيـة يـوم ٨ سبتمبر ٢٠٠٢: العقول المديرة للحادي عشر من سبتمبر تكشف أسرار الإرهاب.



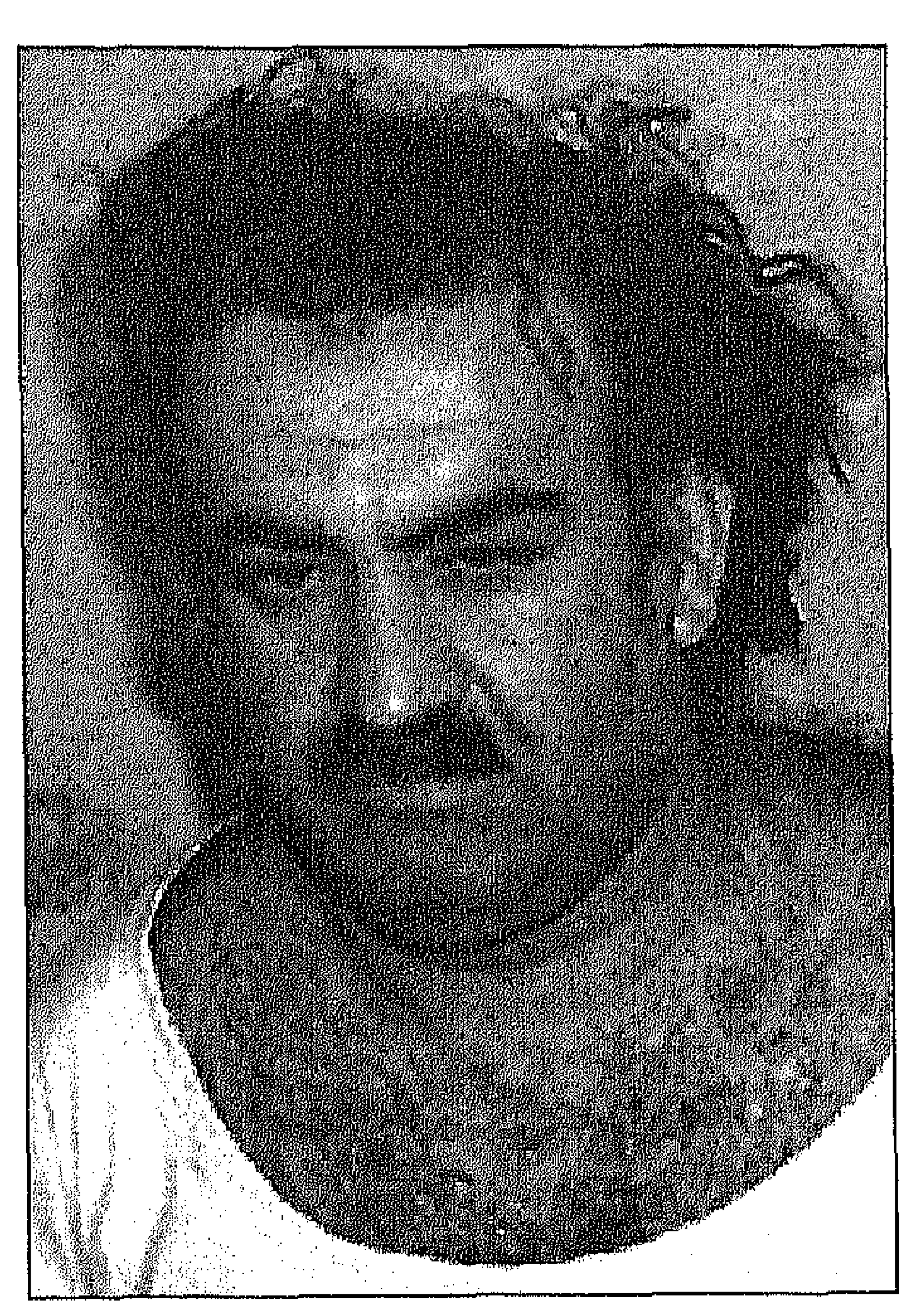
THE MAST

The two men who planned and directed the September 11 attacks are alive and at large. In a world exclusive, Yosri Fouda of Al-Jazeera television spent two days with them hearing in chilling detail how they carried out the 'Holy Tuesday' operation

مقالـي علـى ٣ صفحـات فـي جريـدة «صنـداي تايمـز» البريطانية يوم ٨ سبتمبر ٢٠٠٢.



لحظة القبض على رمزي بن الشيبة في كراتشي، باكستان، سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢.



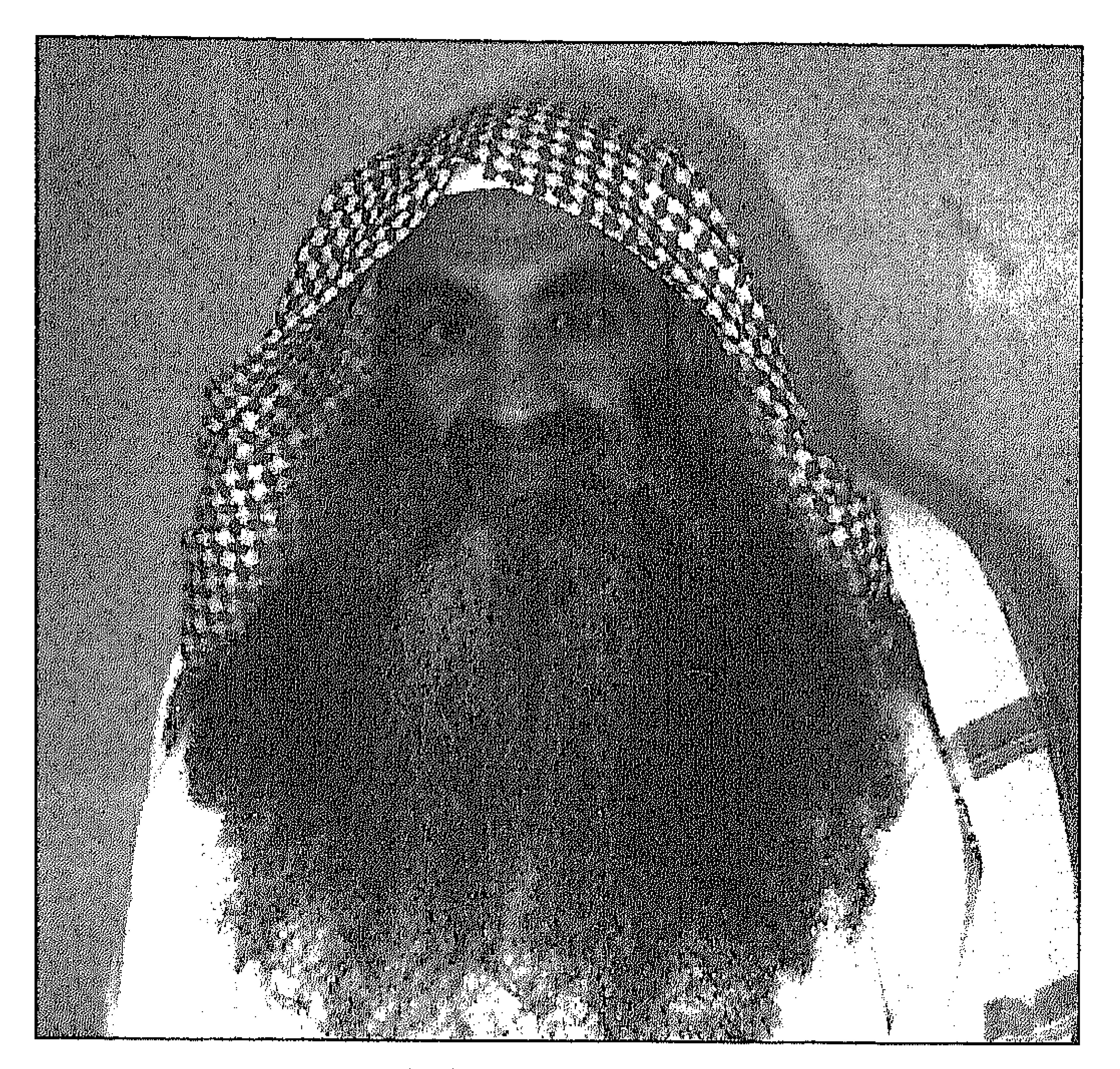
بعد القبض على خالد شيخ محمد في روالبندي، باكستان، مارس ٢٠٠٣.



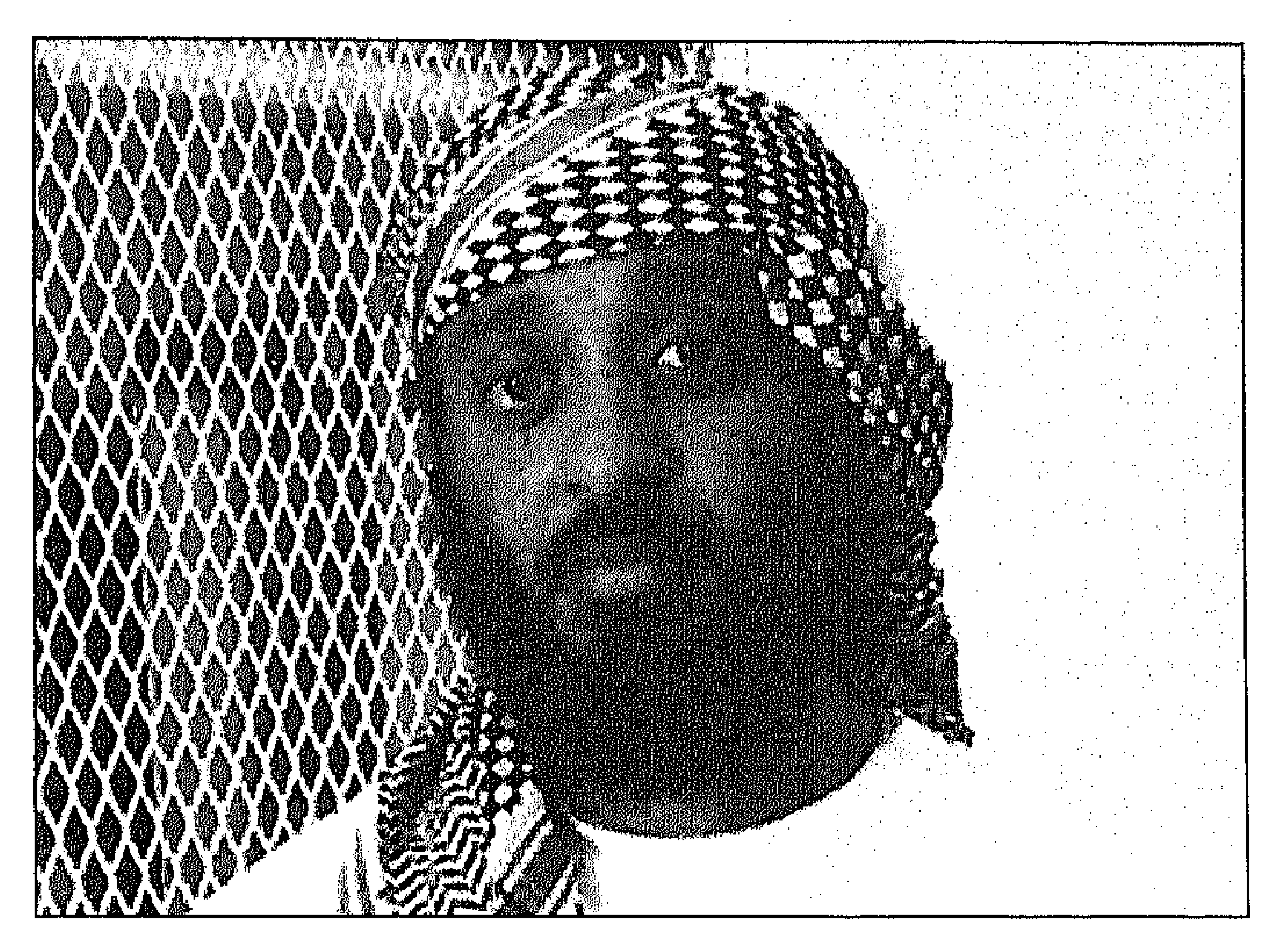
رمزي بن الشـيبة على موقع إف بي آي (FBI) قبل القبض عليه، (الصورة على اليسـار أصلية وعلى اليمين معدلة إلكترونيًّا).



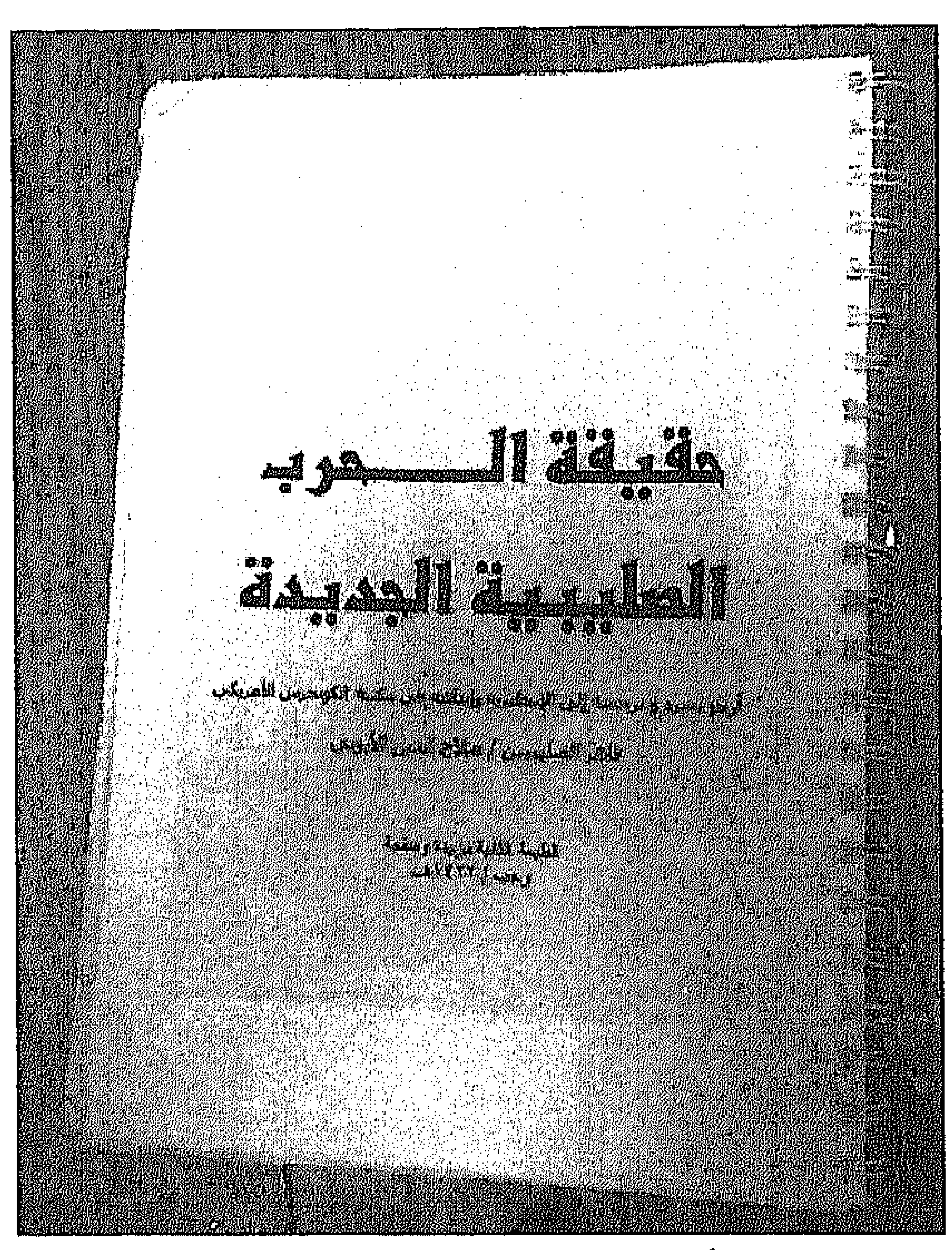
خالد شيخ محمد على موقع إف بي آي (FBI) قبل القبض عليه. (على اليسار أصلية و على اليمين معدلة إليكترونيًّا).



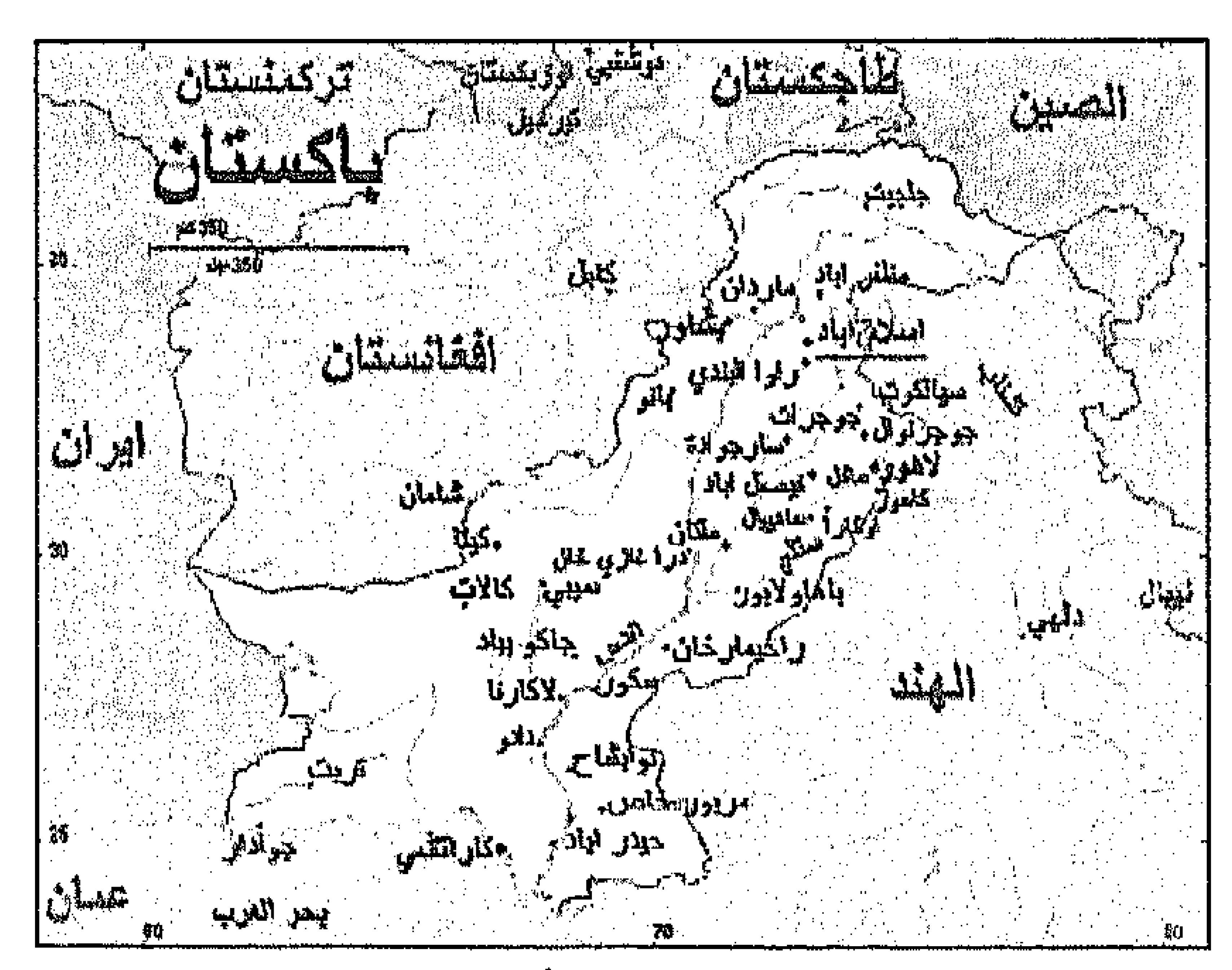
خالد شيخ محمد في معتقل غوانتانامو بعد التعذيب.



رمزي بن الشيبة في معتقل غوانتانامو بعد التعذيب.



الكتيب الذي أهدانيه رمزي بن الشيبة قبل مغادرتي وطلب إيداعه مكتبة الكونجرس الأمريكي.



خريطة باكستان حيث التقيت بأعضاء القاعدة في مدينة كراتشي في أقصى الجنوب.

بسم الله الرحمن الرحيم

(توضيح من المكتب الإعلامي لتنظيم القاعدة)

" عن علاقة قناة الجزيرة والأستاذ يسري فوده بأحداث كراتشي"

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ {6}" الحجرات

حرصاً من المكتب (الإعلامي) لتنظيم القاعدة على إظهار الحقيقة وقطع الأقاويل والشائعات فإنه يود التأكيد للجميع على أن قناة الجزيرة والأستاذ: يسري فوده مقدم برنامج (سري للغاية) ليس لهم أي علاقة بالأحداث التي حدثت في كراتشي في الأيام الماضية وأن ما حدث إنما هو بقدر الله وحكمته.

ونحن في هذا المجال لا نغفل الدور الإجرامي التي تمارسه الحكومة الباكستانية بقيادة "برويز مشرف" ومسارعتها لإرضاء أمريكا والغرب على حساب أبناء الأمة المخلصين.

كما نود التأكيد على أن لقاء الأستاذ يسري فوده مع الأخ خالد الشيخ والأخ رمزي بن الشيبة قد تم في شهر صفر/مايو من العام الحالي لا كما يظن البعض أنه تم في شهر رجب/ سبتمبر الجاري وقد تم هذا اللقاء حسب ترتيباتنا الأمنية الخاصة، وقد التزم الأستاذ يسري فوده بجميع العهود والمواثيق التي قطعت عليه، كما أنه كان أميناً في نقل الأحداث والوقائع التي حصل عليها من جانبنا مع تحفظنا على بعض الفقرات التي وردت في برنامجه!! ،

كما نود التأكيد على أن مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي قد قامت بإحداث تغيرات على صوت الأخ رمزي بن الشيبة مما يعني أن ما أعلن من أنه قد تم التعرف على صورته من خلال مطابقته بالصوت الذي جاء في البرنامج إنما هو محض افتراء لا أساس له من الصحة، كما أن المادة الإعلامية التي استلمها الأستاذ يسري فوده إنما تمت بعد اعتمادنا لها وموافقتنا عليها.

كما نود التأكيد على أن قناة الجزيرة وما بثته من برامج وتحليلات ولقاءات تخص القاعدة إنما كانت تعرض الرأي والرأي الآخر في وقت كان الجميع لا يعرضون إلا رأياً واحداً وهو الرأي الأمريكي المفروض .

والله ولي التوفيق

تنظيم القاعدة

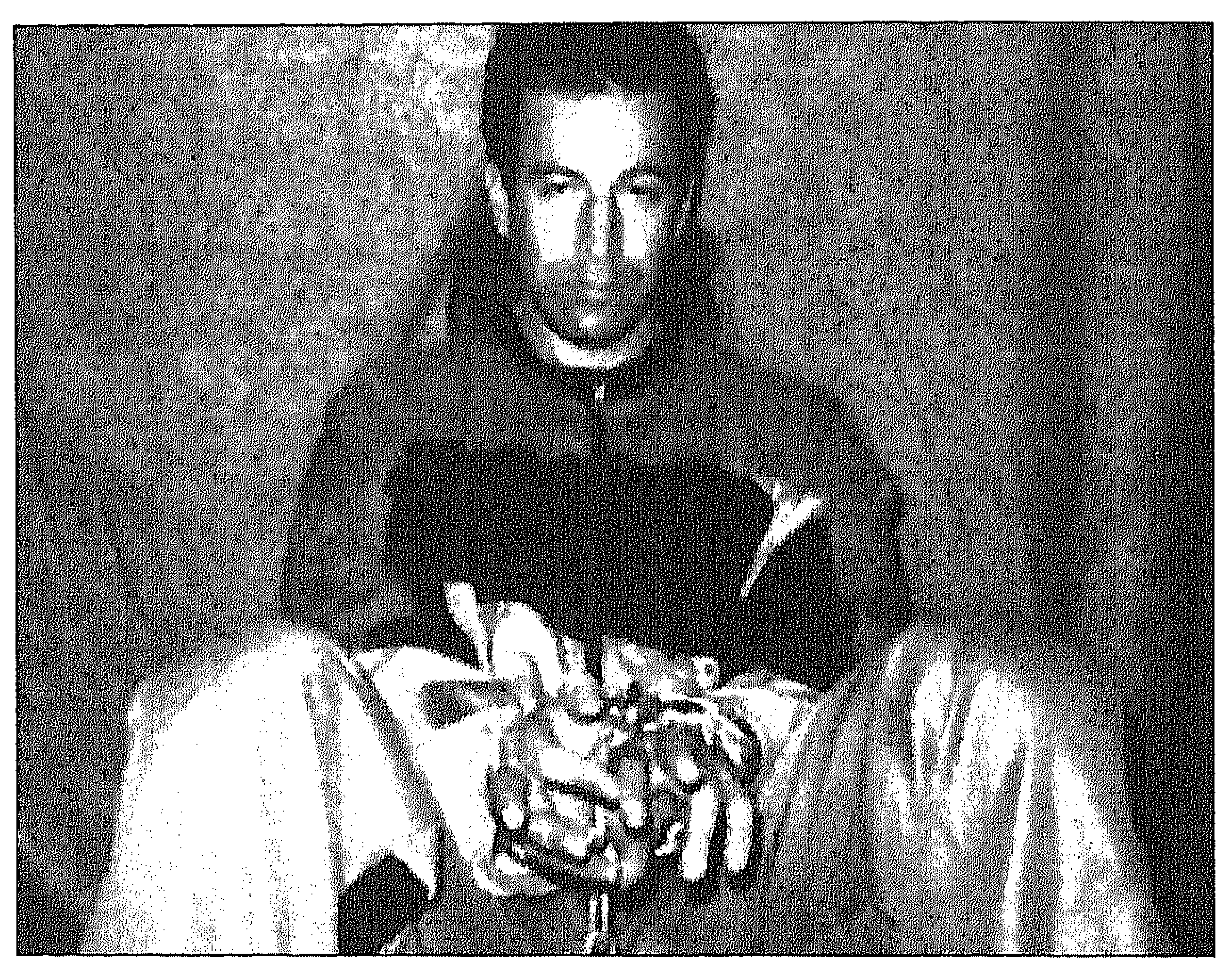
(المكتب الإعلامي)

السبت 14رجب1423هـ - 21سبتمبر2002 م

شبكة الجهاد أون لاين الإخبارية

www.jehad.net

بيان القاعدة الذي برأ ساحتي من شبهة الإرشاد عن رمزي بن الشيبة.



صحفي «وول ستريت جورنال»، دانييل بيرل، الذي يقول خالد شيخ محمد إنه ذبحه بيديه قبل أسابيع من لقائي بخالد.

04-JUN-2002 16:37 P.01

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ الفاضل / يسري فوده . المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحياتي وأشواقي إليكم ، وأتمنى من الله أن يوفقكم من عملكم وفي
حياتكم لما يحبه ويرضى ،

قابلت بالأمس الرجل الذي كان معنا في المطار وحدثته عن الموضوع
وإن شاء الله خلال أيام نقوم بإرسال الأغراض إليكم ، ولكن شخصيًا
سوف أتابع معهم وأتواصل معكم بالهاتف .

وبادرت مسافرًا إلى مصر إلى طنطا فأتمنى أن تحضر لي حلاوة المولد
ولكم جزيل الشكر ، وكذلك أريد بعض الكتب و إن شاء الله

إحدى رسائل أبو بكر في سياق ملاحقتي شرائط اللقاء بأعضاء القاعدة.

الجزء الثاني

العبور إلى المجهول

بداية الرحلة

كان الوقت بين العصر والمغرب يوم الجمعة، ٢١ إبريل/ نيسان ٢٠٠٦، عندما عدت من حلب إلى دمشق، يسيطر على هيئتي كثير من التعب وبعض الضيق. هل بدأت أغير نظرتي إلى ما أعتقد أنه توجه جديد يبدو لأول وهلة أكثر إيجابية عمدت الحكومة السورية إلى تبنيه في السنوات القليلة الماضية؟

الذي يمكن ملاحظته بالعين المجردة أن سيلًا مرتبًا من الاتهامات الأمريكية لدمشق - منذ عام ٢٠٠٣ حتى ذلك الوقت - بأنها تغض الطرف عامدةً عن تسلل المجاهدين عبر حدودها للالتحاق بفصائل المقاومة في العراق، وضغوطًا كثيفة في أعقاب مقتل رئيس الوزراء اللبناني، رفيق الحريري، عام ٢٠٠٥ قد أفلحت في فتح سوريا إلى حد ما. مثلما يمكن ملاحظة أن الرئيس السوري الشاب، بشار الأسد، يحاول من وقت لآخر حقن الجسد السوري ببعض الإصلاحات، الصادقة أوغير الصادقة، التي لا تأتي دائمًا على هوى مؤسسة أمنية معقدة ورثها عن أبيه الذي رحل عام ٢٠٠٠ مخلفًا وراءه تركةً واضحة المعالم وإن كانت من أصعب ما يمكن أن يورَّث في بلد تتمكن منه رائحة القمع والفساد.

وكما يبدو الأمر، فإن البعض في سوريا يحاول أن يكون كاثوليكيًّا أكثر من بابا الفاتيكان وأن يكون ملكيًّا أكثر من الملك ذاته، وهي نتيجة لا تدعو إلى كثير من التعجب في ظل تركة كهذه. نتيجة أخرى طبيعية كنت أحاول مقاومتها: أنني الآن في زيارتي هذه لبلاد أحبها كثيرًا خاضع للرقابة. في هذه اللحظة لم يعد لدي شك.

«يعني الوضع في سوريا لا يختلف جوهريًّا عن الوضع في العراق (قبل الغزو)، والمقدمات التي ساقت إلى الحالة العراقية متوافرة بكاملها عندنا في سوريا، إن كنت تريد أن تتحدث عن مسألة تغييب المجتمعات». أيكون هذا الرأي الذي عبر عنه بجرأة على كاميرا الجزيرة الدكتور عبد الرزاق عيد من جمعية إحياء لجان المجتمع المدني عندما قابلته في منزله في حلب، هو الذي مس وترًا حساسًا؟ بطريقة ما، وصلت كلماته إلى دمشق تقريبًا على الهواء مباشرة. «وبالتالي يعني أن السلطات هي التي فرضت وصايتها أن تكون بديلًا للجميع. وبالتالي يعني كان الدرس العراقي بالنسبة لنا مثل وسيلة إيضاح. ... لا يمكن لمجتمع أن يدافع عن سيادته الوطنية الخارجية بدون تحقيق سيادة وطنية داخلية ... وإلا فالناس لا تدافع عن سيادتها وإنما عن سيادة حكامها أو سادتها».

في اليوم التالي – وقد عدت إلى دمشق – اضطررت إلى تبرير «تصرفاتي» على مأدبة غداء «ودية» دعاني إليها أحد كبار المسؤولين في وزارة الإعلام في أحد بيوت الشام القديمة التقليدية الذي تحول إلى مطعم فاخر في ما يُسمى حتى اليوم «حارة اليهود». «النظام في سوريا ليس هدفي»، عمدت مباشرة إلى طمأنته، ولم أكن مضطرًّا إلى المجاملة. «لكنك لا تستطيع تكميم أفواه الناس». لم تُرفع المائدة إلا وكان قد بدأ يقتنع بأنني مهموم بشيء آخر؛ بما سيؤول إليه حال هذه المنطقة الحساسة جراء ما حدث في العراق. هذه هي أطروحتي: إذا كانت أفغانستان قد منحتنا «القاعدة ـ التنظيم»، وإذا كان الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول قد منحنا «القاعدة ـ الذهنية»، فما عسى يمنحنا العراق؟

في سياق بحثي كانت قد استوقفتني «نبوءة» لرجل في أواسط العمر وُلد في حلب ويشار إليه كأحد أبرز منظّري تنظيم القاعدة وأحد أذكى عقولها الإستراتيجية. اسمه مصطفى ست مريم نصر، الشهير باسم أبو مصعب السوري، وأحيانًا باسم عمر عبد الحكيم. وهو يقسّم ما يصفه بـ «حركة الجهاد العالمي» إلى مراحل إستراتيجية، ويقول إن المرحلة الحالية منه موجودة بالفعل في بلاد الشام وإنها ستتطور إلى مرحلة تالية يقترب المجاهدون أثناءها من حصار إسرائيل[1].

---

(١) مزيد من المعلومات عنه وعن أفكاره من خلال هذا الرابط http://www.tawhed.ws/a?a=hqkfgsb2

«أي كلام فـي الباذنجـان»، ربما تظن، لكنْ للظن أن يسـتحي قليلًا عندما تعلم أن وزيـر الداخلية اللبناني بالوكالة، أحمد فتفت، سـرب لصحيفة ليبيراسـيون الفرنسـية فـي مقتبل عام ٢٠٠٦ أن القاعدة موجودة فعلًا في بلاده[1]، وأن الرئيس الفلسـطيني، محمود عباس، أعلن بعدها بأسابيع أن الشيء نفسه يحدث في غزة والضفة الغربية.

نبـدأ عندئـذ في إلقـاء نظرة أكثر جدية إلـى إعلان أبو مصعب الزرقاوي مسـؤولية تنظيمه، «القاعدة في بلاد الرافدين»، عن إطلاق حفنة من الصواريخ من جنوبي لبنان على شـمالي إسـرائيل في يناير/ كانون الثاني من العام نفسـه، عام ٢٠٠٦. ثم تتعمق فـي الحفر في دلالة مجموعة متعاقبة من العمليـات القتالية التي خُطط لها في العراق ونُفذت ـ أوشُرع في تنفيذها ـ بعد ذلك في أرجاء مختلفة من بلاد الشام، خاصةً في الأردن. ثم لا تسـتطيع في النهاية أن تقاوم طرح هذا التسـاؤل: ما الذي ينبغي له اليوم أن يقلقنا أكثر: «الطريق إلى بغداد» أم «الطريق من بغداد»؟

بقدر استطاعتي، أحاول الآن أن أكون منفتحًا مع المسؤول السوري الذي يكرمني على الغداء، لكن من المستحيل أن أطلعه على ما يدور في ذهني في هذه اللحظات.

مسـاء ذلك اليوم كنت أجلس في بار البهو الداخلي لفندق شـيراتون دمشق، أتابع وحدي فريقي المفضل، تشيلسـي، يخرج مرة أخرى على يد ليفربول من بطولة كأس الاتحـاد الإنغليـزي. يا لقلبـي الذي لا يكف عن الانكسـار! لا أحد غيري بـدا منتبهًا عندمـا انحدرت فتاتـان تبدوان من هيئتيهمـا الصارختين وكأنهما مـن بائعات الهوى الرخيـص. اتخذتـا مكانيهمـا علـى قـرب مقعدين مـن مقعدي، ثـم ـ بطريقـة بدائية ـ تأكدتـا مـن أن حديثهما قابل للسـماع ومن أن سـيقانهما قابلة لنظرة مختلسـة. كما توقعـت، كان لسـانهما عراقيًا. جسـد المرأة عادةً نتيجة حتمية، مـن بين نتائج أخرى، لمعظم الصراعات.

صـدق أو لا تصـدق، لـم أحدق في السـيقان طويلًا. كانـت عيناي للناظـر مثبتتين في اتجاه شاشـة التلفزيون، لكنهما في الواقـع كانتا في بؤرة أفكاري، وكانت هذه في رأسي تترى كالطوفان أو كحصان جامح أفلت لتوه من الأسر.

---

(١) عدّل الوزير اللبناني أقواله بعد أن أثارت ضجة كبرى حينها لكنه لم ينفها تمامًا.

قبـل دقيقتيـن من نهايـة المبـاراة، وفريقي يبـدو مهزومًا بهدف للا شـيء، أي بعد نجـاح الفتاتيـن فـي اختطاف شـاب صغيـر بدا وجهـه خليجيًّـا بنحو سـاعة.. وصل أخيـرًا صديقـي، عُدي، حاملًا «البضاعة» التي كنت طلبت منه أن يشـتريها من سـوق الحميديـة: حقيبتا كتف إحداهما طبق الأصل من الأخرى؛ شـالان عراقيان؛ معجون أسنان؛ شامبو؛ بكرتا ورق تواليت؛ خرطوشة سجائر مارلبورو أحمر (تحولت بعدها بشـهر إلى الأبيض عسى أن أقلع عنها)؛ وصندوق سـنيكرز صغير (قوالب شيكولاتة بالفول السـوداني يسـد واحد منها رمقك حتى موعد الوجبة التالية، وهي التي أنقذت حياتي لأسبوع كامل أيام حرب البوسنة).

«مستحيل! إما أن نتحرك غدًا صباحًا وإما ألا نتحرك على الإطلاق»، همس عُدي بينما كان يتخذ مقعده إلى جواري، «ليس أمامنا الآن سـوى الخطة البديلة؛ فلا داعي إذًا لارتداء الشال، وأيضًا .. من الأفضل أن تقصّر لحيتك كثيرًا».

ضابط الاتصال والخطة (ب)

كنت قد اضطررت إلى إطلاق لحيتي بناءً على نصيحة «أبو ثائر»، وهو ضابط اتصال في إحدى كبريات فصائل المقاومة العراقية، إن لم تكن كبراها على الإطلاق، عندما التقيته سرًّا في دولة مجاورة لا أستطيع الكشف عنها الآن. بملامحه القاسية وسمْته غير المتسامح، حدد لي من وراء نظارة شمسية ضخمة أثناء لقائنا الخاطف في سيارة مسرعة ما كان على طاولة جماعته من عرض خاص. من الواضح أن الطريقة البوليسية التي دعاني بها تنظيم القاعدة ـ قبل ذلك بأربعة أعوام ـ إلى سبقي الصحفي مع أقطاب الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول قد أوحت إليه بأفكار غريبة الشكل لم أجد معظمها ضروريًّا، على أقل تقدير. وكلمة «ضروري» أقل ما أشترطه فيما أسميه «حساب المخاطرة» على مقياس يبدأ عادةً بكلمة «حاسم» وينتهي بكلمة «غبي»، وبينهما مفردات أخرى كثيرة، مثل «حيوي» و«مستحسن» و«نمطي» و«غير مستحسن» و«عبثي». وكان ما يقترحه عليّ أقرب إلى العبثية.

غير أنها لم تكن فكرة سيئة تلك التي يقترحها عليّ الآن صديقي عُدي؛ فأنا لست معتادًا على الحياة بلحية ولا على هذا الضيق الذي بدأ بسبب كثافتها يتسرب إلى بشرتي. ثم فجأةً وجدتُني ألعن حظي، قاطب الجبين وأنا أشيح بوجهي عنه ثم أعود إليه. «ماذا عن لهجتي إذا اضطررت إلى أن أرد التحية على أحد؟».. لم يمض وقت طويل قبل أن يطمئنني صديقي العراقي الهادئ الذي كان وُلد قبل ذلك بخمسة وثلاثين عامًا لأب شيعي وأم سُنية وله لسانان فصيحان: عربي وكردي. هو أيضًا موسوعة تسعى على قدمين حين يتعلق الأمر بفصائل المقاومة العراقية المختلفة

ولـه معرفة معجِبة باختـراق البلاد من عرضها في عز النهار دون أن يلتقطه أحد، وهي معرفة اسـتفادت منها كثيرًا قناة الجزيرة من خلال مكتبها في بغداد إلى أن أُغلق فجأة في أغسطس/ آب ٢٠٠٤ على يد الحكومة المؤقتة التي تمثل العراق «الحر».

فـي محاولة لتبرير ضرورة التحرك بسـرعة واللجوء إلـى الخطة (ب)، لفت عُدي انتباهـي إلـى أن البلبلة التي أحاطت بتشـكيل حكومة عراقية جديدة للشـهور الأربعة الماضيـة كانـت اليـوم تـكاد توشـك علـى الانقشـاع؛ إذ إن رئيـس الـوزراء، إبراهيم الجعفـري، وافـق أخيـرًا قبـل يوميـن على التخلـي عن منصبـه ممهدًا بذلـك الطريق لتشـكيل حكومة وحدة وطنية. ومن ثم لا نسـتطيع الآن في ظل هذا التطور أن نمضي في رحلتنا وفق الخطة (أ) لأن الأطراف السياسية المختلفة منشغلة جميعها بالتنافس على نصيبها من الكعكة. لم أفهم تمامًا العلاقة بين هذا وذاك، ولم يكن عُدي في حِل من الاستفاضة.

كانـت الخطـة (أ) تقضـي بأن ينتهي بي الحـال مبدئيًّا ـ بعد عبـور الحدود ـ في إحـدى المناطـق القبليـة في العـراق. مرتديًا زي شـيخ عربي سـيقوم أحدهـم عندئذ بإمدادي ببطاقة هوية محلية تثبت هذا. ثم ـ من تحت الشـال العربي ـ يقومون بربط عُصابة طبية تمتد من حول الرأس والأذنين والفكين إلى أسـفل الذقن. من شـأن هذا بالتالـي أن يمنح الشـيخ الـذي يبدو مريضًا ـ ربما بألم في الأسـنان ـ حجة تعفيه من الـكلام، ومـن ثم تقل فرص اكتشـاف أنني لسـت عراقيًّا. يعقب ذلك رحلة بالسـيارة محفوفة بالمخاطر، طويلة طول المسـافة من تلـك المنطقة القبلية قرب الحدود حتى العاصمـة بغـداد. الهدف من الرحلة: «العلاج» طبعًا. لم أكـن أعلم في أي منطقة بعد الحدود سأهبط في العراق، ولا من أي نقطة في أي بلد مجاور ستنطلق رحلة العبور. ولم أكن أعلم من سـيكون في اسـتقبالي ولا من سـيقود بي السيارة إلى بغداد ولا أين تمامًا لدى نهاية الرحلة ستتوقف السيارة.

أذكـر رغـم ذلـك مـن لقائـي المختصر بـه أن أبـو ثائر وعدنـي بحوار خـاص مع «أمير الجماعة» الذي سيسمح لي أيضًا بحضور وتصوير عدد من «المشاهد الملتهبة» مـع مجموعة من المقاتلين لا أدري أين. ولكن، لماذا لا يسـتطيع «الأمير» أن يقابلني في منتصف الطريق؟ «يسـتطيع، بكل تأكيد»، رد أبو ثائر مفعمًا بالثقة مستاءً من سؤال

يوحي ظاهره بأن «أميره» قد يكون عاجزًا عن فعل شيء ما، «لكننا نريد أن نثبت للعالم أننا استطعنا تهريب يسري فوده إلى وسط بغداد!». انطلقت من بين أسناني فجأة كلمة إنغليزية شهيرة مكونة من أربعة أحرف، أولها F وآخرها K. «وماذا عن هذه المشاهد الملتهبة؟ مضغوطًا نحو إجابة واضحة، خلع أبو ثائر نظارته لدقيقة وطرح الأمر عاريًا وهو يهمس: «لأول مرة في تاريخ أي تنظيم سنفتح لك الباب لحضور وتصوير جلسة يقوم بعض الإخوة أثناءها بالتخطيط لإحدى العمليات العسكرية ثم نصطحبك معنا أثناء التنفيذ». في أقل من ثانية صدمته إجابتي: «شكرًا جدًّا؛ ماعطّلكش!».

مضى كل منا إلى سبيله وبيننا فجوة عميقة من اختلاف الرؤية. استطعت أنا أن أتفهم حماسه وحرصه وخياله الجامح، ولم يستطع هو أن يتفهم أنني - رغم شغفي الشخصي وقلبي الذي مات من زمان - لا أستطيع قبول عرض كهذا. كان الأمر يتعلق بأسباب أخلاقية وتحريرية وسياسية، ناهيك عن محاذيره الأمنية **غير الضرورية**. وحتى إن قبلت جدلًا فلست متأكدًا من أن وسيلةً إعلامية كانت ستتبنى هذا السبق الصحفي، بما فيها قناة الجزيرة نفسها. رغم ذلك تركته راضيًا مقتنعًا باهتمامي بالعرض إذا استطعنا أن نجد طريقة أخرى تحقق الهدف أو جانبًا منه وتحفظ لي في الوقت نفسه صدقيتي المهنية/ الأخلاقية وأمني الشخصي.

كان هذا قبل نحو ستة أسابيع على أي حال. من يومها وعُدي وأنا نعمل على تضييق الفجوة. بدأت أنا أقتنع تدريجيًّا بأن سبقًا هائلًا كهذا يستحق المخاطرة، وإن كنت لم أصل بعد إلى تحديد «نقطة الاتزان»، وبدءوا هم يقتنعون بأن عودتي حيًّا لعمل المونتاج لم تكن فكرة سيئة على الإطلاق. على هذا اتفقنا في مؤخرة رؤوسنا اتفاقًا غير مكتوب. لكنه كان اتفاقًا - بمعنى من المعاني - أشبه باتفاق أوسلو؛ إذ إننا تركنا جانبًا حاسمًا من الموضوع في خلفية الرؤوس وكل منا يُمنّي نفسه بأنه حين نصل إلى مربط الفرس سيتحقق ما «يتمناه» - خطأ فادح كان لي أن أدفع ثمنه فيما أعقب ذلك من أحداث.

إلى جانب الأمور المهمة، كانت هناك تفاصيل كثيرة انكفأت عليها مع عدي ونحن نراجع الخطة (ب) للمرة الثالثة في بهو الفندق. استأذن هو بعدها كي يعود

إلـى فنـدق سـميراميس على مشـارف حي صـلاح الدين الشـعبي، بينمـا صعدت أنا إلـى غرفتي بالطابق السـادس بحثًا عن قليـل من الراحة. لم أجدهـا. تعودت في مثل هـذه اللحظـات على الاتصال بأمي كي أطمئن عليها، وتعودت هي ألا تطرح أسـئلة. «بس اتجوز وريّح قلبي»، أمنيتها التي لا تنقطع كدعواتها الفردوسية التي لا نظير لها: «سافر يابني مهما تسافر ربنا يحبّب فيك حصى الأراضي».

أحـاول الآن أن أقتنص قسـطًا من الراحة وأنا أعلم أنني بحلـول الصباح الباكر لن ألقي بحياتي مرة أخرى إلى طريق الأذى وحسب، بل إنني سأقوم لأول مرة في حياتي بعمـل هـو من كل الزوايا خارج إطار القانون والشـرعية وأنني ـ إن وقعت الفأس في الرأس ـ لن أستطيع الدفاع عن نفسي.

في السـابعة والنصف صباح يوم الأحد الموافق ٢٣ إبريل/ نيسـان من عام ٢٠٠٦ جـررت حقيبـة السـفر الكبيرة التي أتيـت بها من لنـدن والتحفت حقيبـة الكتف التي اشـتراها مـن هنـا عُدي ودلفت بسـرعة داخل سـيارة أجرة هبـط منهـا للتو أحد نزلاء الفندق. «جامع صلاح الدين»، همست للسائق المحظوظ الذي دسست في يده لدى نهاية رحلة لم تستغرق أكثر من خمس دقائق ١٠٠٠ ليرة سورية (كانت تساوي وقتها حوالـي ٢٠ دولارًا أمريكيًّـا)، وهـو خطأ قد يكون جسـيمًا ـ من حيـث احتمال لفت الأنظار ـ حاولت إصلاحه بتأكيد حقيقة أنه لم يكن معي ورقة مالية أصغر.

ها هو عُدي بحقيبتيه ينتظر في زاوية هادئة قرب المدخل الرئيس للجامع. التحقت بـه في تلك الزاوية لدقائـق معدودة فكان منظرنا هكذا يبعث على قليل من الريبة رغم خلـو الشـارع من المارة تقريبًا في هذه السـاعة المبكرة. انبثق مـن وراء جدار الجامع فجـأة رجل في أواسـط العمر وانحدر فـي اتجاهنا فأدرت وجهـي ونصف كتفي إلى الناحية الأخرى. مازلت أسمع وقع خطواته يقترب. «لا تقلق!» همس عُدي في أذني مطمئنًا، «إنه رجلنا وأعتقد أنه تأكد للتو من أن المنطقة نظيفة». دون أن يتوقف، أشعل سيجارة، ودون أن يلتفت، ألقى في اتجاهنا بأمر التحرك. «خذا تاكسي إلى ميدان ... وسأراكما هناك». يبدو إذًا أن ثمة مزيدًا من «التنظيف» لا يزال.

هنا خالد بن الوليد

لـم نكـد نهبط من التاكسـي في إحدى زوايـا ذلك الميدان في دمشـق حتى تلقفتنا سـيارة من نوع GMC (يسـميها العراقيون «جيمس»). من موقعـه في المقعد الخلفي مد أبو ليث – وهذا اسـم رجلنا، الذي أنا متأكد أنه اسـم حركي – يديه فجذب أمتعتنا قبل أن يساعدنا على الدخول بسرعة إلى المقاعد الخلفية.

«أعطونـي كل ما معكم – بـدءًا بالهواتف المحمولة»! أتى صـوت آمر من المقعد المجاور لمقعد السائق أمامنا. لم يكن ليقدم نفسه، ولو حتى باسم حركي، فقررت أن أسميه «بابا». بينما انطلق السائق بنا مسرعًا.. هز عُدي رأسه مطمئنًا فبدأت في إخراج ما في جيوبي: هاتف محمول، بطاقات ائتمان، بطاقات صحفية، بطاقة التأمين القومي البريطانيـة، بطاقـة الخطـوط البريطانية، أوراق ماليـة (حوالي ١٥٠٠ جنيه إسـترليني معظمها من فئة الخمسين جنيهًا) وقلم أعتز به.

بينمـا بدأ الرجل الغامض في فك هواتفنا وتفريغها من بطارياتها لاحظت أن عُدي سـلّمه جـواز سـفره العراقي. عندئذ نظـر بابا إلـيّ: «وأنت؟ جـوازك!». ولأنني كنت أنتظر السـؤال فقد أجبته سـريعًا: «أنـا مواطن أنتمي إلى العالم، ثـم إن لديك بطاقاتي البريطانية». كنت أقصدها على سبيل الدعابة لكنه لم يكن ليمزح. «أنت حر؛ لو وقعت في مأزق فلن نعرفك»! لكنني كنت مصرًّا على الاحتفاظ بجواز سـفري في حوزتي. في الواقع كان معي اثنان، أحدهما مصري والآخر بريطاني، خبأتهما بطريقة مبتكرة.

فيمـا بـدا خطة مرسـومة، توقفت السـيارة في مكان ما في وسـط دمشـق. لف بابا عنقه في اتجاهنا مسـتعدًّا لإصدار أوامره الأخيرة بينما كان يشير بأصابعه إلى أبو ليث وإلـى السـائق. «ليس لكمـا أن تتحدثا مع رجالي عن هذه التي تسـمونها أمور الجهاد والمجاهديـن. نحـن لا ننتمي إلى هذه الشـركة التي سـنقوم بتسـليمكما إليها»! حدد الرجل لنا بلهجة صارمة زادت صرامة بينما استطرد: «كل ما تحتاجان إلى معرفته أننا مهربون محترفون نأكل عيشنا من العمل عبر الحدود، وإذا لم تنصتا جيدًّا إلى ما أقول فإن الفرصة لا تزال أمامكما للهبوط من السيارة الآن»!

كان له هو أن يهبط من السـيارة في خفة وهو يتابع إيماءة الطاعة المستسـلمة على وجهـي ووجـه عُـدي. أخذ متعلقاتنـا عدا حقيبتـي الكتـف ونقلها جميعًا إلى سـيارة أخـرى انحدرت فجـأة إلى جوارنا من خلـف أحد الأبنية. «ليس لديكمـا مانع في أن نفتش متعلقاتكما، أليس كذلك؟». هكذا صرخ همسًـا بينما تحركت بنا السيارة وكأن لدينا خيارًا.

«هـذا هو أبو هادي»، قالهـا أبو ليث الذي اتخذ الآن المقعد الذي كان يشـغله بابا وهو يشـير إلى السـائق، «سـيقودنا إلى منطقة الحدود لكنه لن يعبر معنا». على الأقل يخبرنـا أحدهم الآن بشـيء مـا مقدمًا. رحب بنا أبـو هادي، الذي يبـدو عمره حوالي ثلاثين عامًا، بإيماءة صادقة عبر المرآة الصغيرة داخل السيارة دون أن ينطق بكلمة.

ركـزت عينيّ على لوحات الإرشـاد المنتشـرة علـى جانبي الطريق بينمـا كنا نترك العاصمـة دمشـق فـي اتجـاه الشـمال الشـرقي. «تدْمُـر»، أعلنـت إحـدى اللوحات. اسـتدرت برأسـي في اتجاه عُدي الذي قرأ سـريعًا ما كان يدور بها فـي تلك اللحظة. إذًا فنحن متوجهون إلى نقطة «البوكمال» الحدودية ومنها نعبر إلى منطقة «القائم» في العراق. كان هذا تخميني بناءً على شـهادات كثيرة أسـر لي بها مجاهدون التقيتهم في مواقع مختلفة من بلاد الشام.

كان أبـو ليـث وأبو هـادي لا يزالان في سـباق محمـوم، أراد كل منهما من خلاله أن يثبـت للآخر أنه أسـرع منه في تدخين السـجائر. ورغم أنهما كليهمـا عراقيان فقد

كان أحدهما يدخن سيجارة ماركة «الجمهورية»، وهي سيجارة يطول تدخينها بحيث يمكن بسهولة لمدخنها أن يغلبه النعاس ولم يبلغ منتصفها بعد. بينما كان الآخر يدخن نسخة مزيفة من سيجارة فرنسية ماركة «جيتان» التي صار لها ـ مع «غولواز» وعدد آخر من الماركات الفرنسية ـ شهرة كبيرة في هذا القطاع من العالم كشكل من أشكال المقاومة الشعبية للهيمنة الأمريكية. قال لي أحدهم بعد ذلك إن هذه النسخ المزيفة من الماركات الفرنسية وغير الفرنسية يتم إنتاجها في قبرص عبر شركات إسرائيلية قبل تصديرها إلى دول عربية! لم يكن لدي وسيلة للتأكد.

في هدوء التقطت كاميرا الفيديو الصغيرة من حقيبة الكتف ووجهت كلامي إليهما: «لا علاقة لهذا بكما. كل ما أحتاجه عدد قليل من اللقطات لجانبي الطريق». في إشارة إلى أن ثقةً بدأت تنبني بيننا اتخذ أبو ليث قرارًا فوريًّا. «لا بأس، فقط أخبرْنا كل مرة قبل أن تضغط على زر التشغيل». وكلما فعلت توقف كلاهما عن الكلام وحمى وطيس معركة التدخين.

عبرت بنا على جانب الطريق سلسلة ممتدة من الجبال سلّمنا كل منها إلى الآخر في وداعة: حيمور والرواق والنقنقية، إلى أن قادنا آخرها إلى مشارف المدينة التاريخية ذات السحر الخاص، «تدْمُر». ركن أبو هادي سيارته على قارعة الطريق لدقائق معدودة بينما بدا أبو ليث خبيرًا محنكًا وهو يحرك بؤبؤ عينيه من مرآة السيارة الداخلية إلى المرآة الخارجية إلى جانبي الطريق دون أن يترك مقعده ودون حتى أن يحرك رقبته. ران على الجالسين صمت مطبق قبل أن يمزقه أبو ليث موجهًا حديثه إلى السائق: «حُمْص».

عقدت المفاجأة لساني، ولكن فقط إلى أن وجدتُني ألتفت إلى عُدي الذي كان هو أيضًا يلتفت إليّ وقد اتسعت فجأةً عيناه: «حووومص؟!!!» لقد كنا الآن على مرمى ١٩٠ كيلومترًا شمال شرقي دمشق بينما كان معنى ما قاله أبو ليث للسائق هو أن يقودنا إلى الشمال الغربي في الاتجاه العكسي لمسافة ١٥٠ كيلومترًا، في حين أننا كنا سنوفّر على أنفسنا ٢١٥ كيلومترًا لو كنا توجهنا مباشرةً من دمشق شمالًا إلى حمص.

عبرنـا قلب حمص، وكنت محظوظًا أننا فعلنا؛ فها هو ذا مثوى الصحابي الجليل، القائد العسـكري الأسـطورة، خالد بن الوليد، الذي أسبغ عليه الرسـول، ﷺ، لقب «سـيف الله المسلول». بلغت عبقريته العسـكرية وفتوحاته الأسطورية حدًّا دفع ثاني الخلفاء الراشـدين، الفـاروق عمر بن الخطاب، إلى عزله مـن منصبه مخافة أن يفتتن المسـلمون بـه، واختار بـدلًا منه صحابيًّـا جليلًا آخـر هو «أمين الأمـة»، أبو عبيدة بن الجراح، الذي يفصل مثواه الآن، في مفارقة شـديدة السـخرية، بين الأردن وإسرائيل. وما هو أكثر إثارةً أن اسم «أبو عبيدة» استُعير، بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمن، كي يكون الاسـم الحركي لمنسـق عملية الحادي عشر من سـبتمبر/ أيلول، رمزي بن الشـيبة، بينمـا صار «ابن الجراح» الاسـم الحركـي لأحمد الحزنوي الـذي كان له أن يحمـي ظهر زياد الجراح أثنـاء اختطافه الرحلة رقم ٩٣ للخطـوط الأمريكية، يونايتد إيرلاينز. أما زياد الجراح نفسـه فحظي بالاسـم الحركي «طارق» تيمنًا بفاتح شـمالي إفريقيا والأندلس، طارق بن زياد.

أمـام البوابـة المؤديـة إلى مثواه نُقشـت كلمة لخالد بـن الوليد تهـز الأعماق قالها وهـو علـى فراش المـوت: «لقد شـهدتُ مائة زحـفٍ أوزُهاءَها وما فـي بدني موضعُ شـبرٍ إلا وفيه ضربةٌ بسيف أو رميةٌ بسـهم أو طعنةٌ برمح، وها أنا ذا أموتُ على فراشي حَتْفَ أنفي؛ فلا نامت أعينُ الجبناء». كان خُلُقُه خلق الفرسان النبلاء مضروبًا في ألف بفعل حلاوة الدين الجديد، وكان مبتغاه منه إحدى الحُسنييْن: النصر أو الشهادة. هذا المبتغـى هو أيضًـا وقود المجاهدين حتى اليوم. هكذا يرون أنفسـهم على الأقل. كل ما يحتاجونـه فرصة، وقد قدم لهم الرئيس جورج دبليو بوش الصغير فرصةً على طبق من فضة في العراق للجهاد ضد الكفار والصليبيين.

فجـأةً أفقـت على حقيقة أن هـؤلاء المهرّبين وأمثالهم ربما لا يقـدّرون، ولا حتى يدركون، معنى ما يقومون به من نشاط عبر الحدود، ولا مقدار أهميته التاريخية. إنهم بمثابة الجسر إلى الفرصة، وهو جسر في هذه الحالة لا يقدّر بثمن. تمامًا كحال المسلم

الذي لا يستطيع لأي سبب من الأسباب أن يشارك في الجهاد بشكل مباشر فيقوم بدلًا من ذلك بمساعدة من يستطيع. ألم يقل الرسول، ﷺ: «من جهّز غازيًا فقد غزا»؟

وهذا بعينه ما كان يدركه شاب سوري واعد، يشجع فريق ليفربول لكرة القدم ويستمتع بموسيقى الهيفي ميتال، كنت قد التقيته في حلب قبل ذلك بأسبوعين. عندما فار دمه مما يراه في وسائل الإعلام قرر أن يقوم بنصيبه مما يعتبره واجب الجهاد. ولأنه لم يكن يملك حتى ما يقابل تكاليف السفر قصد صديقًا ميسور الحال وقص عليه حديث الرسول فكان في بغداد بعدها بأربع وعشرين ساعة.

تورا بورا لبنان

لا تـزال كلمـات خالـد بـن الوليد الأخيرة تـرن في سـمعي بينما نعبر مـا تبقّى من حمص الآن في طريقنا إلى حماه. لسـبب ما تسـيطر على مخيلتـي في هذه اللحظات صورة المجاهد الذي خرج من أرض جزيرة العرب، سـمير صالح عبد الله السويلم، المشـهور اختصارًا باسـم «خطّاب»، يردد الكلمات نفسـها وقد دس له الروس السم فـي طعامه في الشيشـان في مارس/ آذار ٢٠٠٢ بعد حياة حافلـة بالجهاد. كان هو قد انفصل عن أسامة بن لادن أثناء جهادهما معًا ضد السوفييت في أفغانستان لأنه ـ كما يقول لي حذيفة عبد الله عزام، ابن معلم بن لادن ـ وجد أن «مجموعة المصريين قد سيطرت عليه» وبدأت تدفع باتجاه أجندة مختلفة.

لكـنّ المثير حقًّا، وقد انتقل إلى الجهاد في طاجيكسـتان ثم الشيشـان، أن خطّاب كان دائم التفكير في بلاد الشام. يمكنني الآن أن أكشف النقاب عن رسالة كتبها بخط يـده إلى «الأخوة المجاهدين الأفاضل في بلروسـيا»، يتحـدث فيها أولًا عن تفاصيل إحـدى معاركه ضد القوات الروسـية في الشيشـان، ثم يمضي قائـلًا (والنص هنا كما ورد تمامًـا بأخطائـه اللغويـة): «هناك طلب، أريد من الأخوة من لبنـان اثنين يأتوا إليّ للمشـورة فـي عمل خـاص وأنا أتكفـل بتكاليف السـفر بحيث يكـون الأخوة هؤلاء يعرفـون الكثير عن وطنهم. فقط لمدة يومين ثلاث أو أسـبوع يزوروني في الشيشـان ثم يرجعون إن شاء الله».

لـدى نهاية عـام ١٩٩٨/ بداية عـام ١٩٩٩ دق الهاتـف في منزل أحد المسـلمين السُّـنة قرب طرابلس في شـمالي لبنان. كان صاحب المنزل يُعرف في المنطقة باسـم «أبـو عائشـة» (اسـمه الحقيقي بسـام كنـج) وكانـت المكالمـة مكالمة شـخصية من زعيـم المجاهدين العرب في الشيشـان. يقول لي أحد أقرب المقربين من أبو عائشـة (وقد سـميته «أبو رضوان») إن خطّاب طلب مـن صديقه «إن كان من الممكن لبعض الأخوة العرب في الشيشـان، خاصة أن معظمهم من بلاد الشـام، أن يجدوا طريقًا إلى جنوبي لبنان وأن يصلوا إلى حدود فلسطين المحتلة كي يقوموا بعمليات جهادية ضد العدو الإسرائيلي».

لـم يمـر وقـت طويل قبـل أن يضطر بسـام كنج إلـى تغييـر كنيته إلـى «أبو أحمد» عندما بدأ السـوريون ينشـرون عيونهم في طرابلس وحولها بحثًا عن شـخص اسـمه «أبو عائشـة». والذي يبدو، في رأي أبو رضوان، أن طرفًا ما تمكن من رصد المكالمة والتنصـت على محتواها. «ما إذا كان هذا الطرف روسـيًّا أوأمريكيًّا فإن وفدًا أمنيًّا من موسـكوزار لبنان فـي ذلك الوقت واجتمـع بالرئيس إميل لحود وبعض المسـؤولين الأمنيين». في ذلك الوقت أيضًا، بداية سبتمبر/ أيلول ١٩٩٩، هبطت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت من دمشـق إلى بيـروت واجتمعت برئيس الوزراء اللبناني آنذاك، سـليم الحص. عقب الاجتماع أشـارت إلى ما وصفته بـ«الاحتلال السوري» للبنان و«القنبلة الموقوتة» الممثلة في اللاجئين الفلسطينيين.. لكنها أضافت إلى ذلك شيئًا آخر لفت انتباه أبو رضوان. «قالت إن الأصولية الإسلامية في شمالي لبنان تهديد حقيقي لعملية السلام». كانت هذه هي المرة الأولى التي يعتبر فيها مسؤول على هذا المستوى الرفيع ما يحدث في شمالي لبنان (لا جنوبي لبنان) تهديدًا لعملية السلام.

قُبيـل ذلـك كان أبو عائشـة قد عـاد لتوه إلى لبنـان من أمريكا حيـث كان في منحة دراسـية دفع ثمنها، يا للمفارقة، رئيس الوزراء اللبناني السُّـني الذي قُتل بعد ذلك في ظـروف غامضـة، رفيق الحريـري. وكان طموحه لـدى تلك المرحلـة، وفقًا لصديقه أبو رضوان، أن يسـاهم في نهوض حركة إسـلامية تنتصر لأوضاع المسـلمين السُّـنة فـي لبنـان. وكان هـؤلاء قد وجـدوا أنفسـهم تدريجيًّا في موقـف يـزداد إحباطًا، بين شـعورهم باضطهاد منهجي من الجانب السـوري وشـعورهم بتهميش مؤسساتي من

جانب الطوائف الدينية والمذهبية والعرقية الأخرى في الداخل، وشعورهم بنظرات الشك الإستراتيجي من جانب القوى الإقليمية. ذلك رغم أنهم وجدوا أنفسهم فجأة (من حيث العدد على الأقل) ثاني كبرى الطوائف (بعد الشيعة) في بلد تم اختراعه أصلًا للمسيحيين.

بينما بدأ أبو عائشة في وضع الأسس لما يمكن وصفه بـ «قندهار الصغيرة»، أو نسخة مصغرة من قندهار، معقل القاعدة في أفغانستان، وقعت حوادث متفرقة في عدد من الكنائس في طرابلس. يزعم أبو رضوان أنها كانت من تدبير «عناصر من المخابرات اللبنانية»، وأنها قدمت «ذريعة للسوريين لشن حملة أخرى من القمع». ولأن عددًا كبيرًا من رجال أبو عائشة كانوا قد جربوا المعتقلات السورية في فرع فلسطين وفي صيدنايا وفي تدمُر وغيرها فقد كان لديهم الآن إجماع على تفضيل الموت على العودة إليها مرة أخرى.

في تلك الأثناء كانت الدوائر الأمنية في الشرق وفي الغرب، وبصفة خاصة في أمريكا، قد دخلت في حالة طوارئ مع قرب نهاية الألفية الثانية. توالت في تلك الفترة تقارير متفرقة عن احتمال قيام تنظيم القاعدة وإسلاميين مرتبطين به وغير مرتبطين بعمليات متراوحة الحجم في بعض مناطق الشرق الأوسط وفي الولايات المتحدة الأمريكية. كانت هذه هي الخلفية الكبرى التي في إطارها بدأ الجيش اللبناني يستعد للانقضاض على نحو ثلاثين أصوليًا سُنِّيًا لبنانيًا اتخذوا مواقعهم في أعالي جبال «الضنّية» قرب طرابلس تحت إمرة أبو عائشة ومعه أبو رضوان. كانت تلك أشبه بـ «تورا بورا» مصغرة قبل أن يسمع العالم بعد ذلك بسنوات عن تورا بورا بن لادن في أفغانستان. وكان شهر رمضان قد حل بالمسلمين عندما أقام هؤلاء الأصوليون المسلحون معسكراتهم على قمم الضنية المطلة على المدينة. بالنسبة لهم جميعًا كان الأمر يتعلق فقط بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. انتهى الأمر بمعظمهم إلى الثانية.

بينما كان شريط الأحداث هذا يمر في مخيلتي أفاقني عُدي فجأةً وهو يشير بيديه من نافذة السيارة: «انظر! حماه!» لكنني لم أكن الآن في حال تسمح لي باستعادة

شـريط آخـر طويل مـن الأحداث التـي وقعت هنا للإخوان المسـلمين عـام ١٩٨٢. «اثنيـن كيلو كباب واثنين كفتة»، هكذا صاح أبو ليث غاضبًا على الهاتف في شـخص ناداه باسم أبو راشد، «ومن الأفضل لك أن تُسرع فسوف نعبر في اتجاهك بعد عشرين دقيقة». وبعد عشرين دقيقة كانت سيارتنا تقطع قلب مدينة حلب التي بدت في تألقها كعروس ليلة الزفاف. هذا العام، عام ٢٠٠٦، اختيرت حلب عاصمة للثقافة الإسلامية.

في حديث نبوي مثير للجدل، اختلف العلماء في تفسير معانيه وإحداثياته وأطرافه ستقع معركة كبرى حاسمة بين المسلمين وتحالف ضخم العدد والعدة من الكفار في مكان ما قرب ثاني كبرى المدن السورية. يستشف بعض العلماء منه أنها ستقع بين منطقة «ربيعة»، وهي أول ما يقابلك حين تعبر الحدود من العراق إلى سوريا، ومنطقة «حلب»، وأن تحالف الكفار سـيضم ثمانين راية، تحت كل راية مائة وعشـرون ألف مقاتل[1].

«تسـعمائة وسـتون ألف مقاتل»، يتعجب الإمام المفوّه في أحد مساجد طرابلس، الشـيخ بـلال البـارودي، «لعل البعـض يظن أنه رقـم كبير مخيـف، لكنه مـن الناحية العسـكرية ليـس كذلك. إننا نسـمع اليوم أن الغرب يسـتعد لمعركة نهايـة العالم التي سـتمهد لظهـور المخلّص؛ فمـا يفعله الأمريكيـون مبني علـى إيمانهـم التوراتي بأن المخلّص لن يهبط من السماء قبل بناء دولة إسرائيل. ولهذا تراهم يحاولون جاهدين حمايـة دولة إسـرائيل لعل هذا يعجـل بظهور عيسـى المخلّص. دعهـم يفعلون فإننا نرحب بظهور عيسـى المخلّص لأننا عندئذ فقط سـنرى من سـيتبعه من هؤلاء الذين يتظاهرون بحب المسيح عليه السلام».

---

(١) يقـع هـذا الحديث في صلـب فكر ما يعرف الآن بتنظيم دولة الإسـلام في العراق والشـام (داعش)، وهذا نصـه كـما ورد في صحيح مسـلم: «حدثنا زهير بـن حرب حدثنا معلى بـن منصور حدثنا سـليمان بن بلال حدثنا سـهيل عن أبيه عن أبي هريرة أن رسـول الله قال لا تقوم السـاعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم خلوا بيننا وبين الذين سـبوا منا نقاتلهم فيقول المسـلمون لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهـم أبدًا ويُقتل ثلثهم أفضل الشـهداء عنـد الله ويفتتح الثلث لا يفتنون أبدًا فيفتحون قسـطنطينية فبينما هم يقتسـمون الغنائم قد علقوا سـيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان إن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذلك باطل فإذا جاءوا الشام خرج فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة فينـزل عيسـى بن مريم فأمهم فإذا رآه عـدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء فلـو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته».

حافة العبور

كانت الحقول الخضراء حولنا الآن قد بدأت تبعث في نفسي أملًا متجددًا بأننا نقترب حثيثًا من الهدف بعد تسع ساعات من السفر المتعرج الذي يبدو عشوائيًّا لمن لا يعرف. هكذا يتحرك المهربون، خاصةً في أوقات حساسة كهذه. الحرب، أي حرب، تفعل الكثير. استأجرناهم لمهمة محددة فاتفقت مصلحة لدينا بمصلحة لديهم. لكنّ شروط الاتفاق كانت واضحة: الهدف لدينا وطريقة الوصول لديهم، ولا أسئلة من جانبنا عن الطريقة ولا أسئلة من جانبهم عن الهدف.

وصلنا أخيرًا إلى «القامشلي»، أبعد بلدة في أقصى الشمال الشرقي لبلاد الشام. إلى أين من هنا إذًا؟ إلى تركيا؟ أم مباشرةً إلى العراق. لم نستطع وقتها، لأسباب أمنية، أن نحدد بدقة في تحقيقنا التلفزيوني من أين عبرنا، لكنني أستطيع الآن أن أكشف النقاب عن أننا عبرنا مباشرة من سوريا إلى العراق.

بعد مغامرة صغيرة وجدنا أنفسنا في منزل آمن على بعد حوالي خمسة عشر كيلومترًا من حدود سوريا مع العراق. لحسن الحظ، هذا مثلث من أمة الإسلام يرفض ببساطة أن يعترف بالحدود. عربًا وأكرادًا، مسلمين وغير مسلمين، سُنّةً وشيعةً وطوائف أخرى، لم يسمع أي منهم قبل ذلك بالمستر سايكس ولا بالمسيو بيكو. يتصادف أيضًا أن هذه الذهنية تدخل في صميم معتقدات القاعدة والأصوليين بشكل عام. «لقد قلت لك مرارًا إن العربي الكافر عدولنا وإن البريطاني المسلم أخ لنا»، هكذا تأكد أحد المجاهدين السلفيين في لبنان من أن الرسالة قد وصلت إلى رأسي.

غيـر أنهم جميعًا سـمعوا بـكل تأكيد عن الآنسـة كوندوليزا رايس والسـيد دونالد رامسـفيلد. كان هـذان قـد هبطا فجأةً فـي ذلك اليوم علـى العراق. وكمـا هبطا فجأةً عليـه انحلت فجـأةً أزمة رئيس الوزراء، إبراهيم الجعفري، وفقًـا لقناة «العراقية» التي نشـاهدها الآن ونحن جالسـون على الأرض في المنزل الآمن نحتسي شايًا ملء كوبه سكر وقهوة مُرة مرارة العلقم.

«أيـن رأيتـك قبل هـذا؟» ألقى صاحـب المنزل السـؤال في اتجاهي شـغوفًا وهو يتفحـص ملامحي بمهارة بدوية. تعلـو ملامحه هو ملامـح الكرم والدهـاء واهتمام فطري بأمور السياسة. دخل عُدي على الخط سريعًا كما اتفقنا حين ينشأ موقف كهذا فبـدأ يتحدث عن تاريـخ العراق. قاطعه مضيفنـا بعد قليل باقتباس مـن أحد أحاديث الرسـول ﷺ مـؤداه أن يومًـا سـيأتي علـى أمتي تطلـب فيه نُصـرة الكافر، ثـم أضاف سـاخرًا متحسرًا: «تمامًا مثلما نسـتجدي منهم العون اليوم، لماذا إذًا لا يستولي بوش على أرضنا؟».

بصـق الرجـل عن يمينه ثم التفت ناحيتي بعينين ضيقتيـن زادهما ضيقًا. «أنا متأكد مـن أننـي رأيتك قبل اليوم». اسـتثاره صمتـي أكثر وأكثر رغم أنه لم يخل من ابتسـامة ودودة. قفـز أبـو ليـث في هـذه اللحظـات باقتبـاس ديني آخـر: «وُلد الإسـلام غريبًا وسـينتهي غريبًـا، فطوبـى للغرباء». ونحـن الغرباء بتنـا ليلتنا على حـدود ثلاث دول مسـلمة بعدما وصلت الرسالة من شـبكة المهربين على الجانب الآخر: ساعة الصفر غدًا قبيل غروب الشمس.

لحظات من الترقب زادها شـغفًا سيلٌ من الاتصالات المشفّرة بين المهربين على الجانبين. اسـتغلالًا للوقت بدأنـا نغير الملابس التي كنا نرتديهـا بتلك التي طُلب منا إحضارها. اللون الأبيض علامة خطر، وكذلك اللون الأسود. كانت ملابسي الداخلية عبـارة عن اللباس الأساسـي للمنتخب الإنجليزي لكرة القـدم الذي صرت أتفاءل به منذ قصتي مع تنظيم القاعدة. ذلك أبيض – في منتهى البياض. لكن المشكلة انحلت عندما ارتديت فوقه بدلة تدريب زرقاء اللون، وفوق ذلك كله دشداشـة (جلباب) من نـوع تلك التي يستعملها العراقيون في المناطق التي كنـا نتوقع أن نمر بها. كان اللون

وفقًا لتعليمات المهربين أخضر داكنًا. الشيء نفسه فعله عُدي وأبو ليث (باستثناء لباس المنتخب الإنجليزي) بينما قبعنا نترقب وصول التعليمات الأخيرة.

بعد قليل جاءت سيارة نصف نقل صغيرة من نوع دايهاتسو نقلتنا سريعًا من المنزل الآمن إلى حافة الحدود. يسترنا الآن كوخ صغير يملكه مهرب آخر اسمه أبو زيد. همس لنا أننا سنبقى هنا قليلًا انتظارًا لتلك البقعة العمياء من الزمن بين غروب الشمس وحلول الظلام، وهي فترة لا هي بالليل ولا هي بالنهار، تستمر عادةً دقائق معدودة وتصعب الرؤية أثناءها بالعين المجردة كما أن الأضواء الكاشفة لا تكون قد غطت المنطقة بعد. عندها، وعندها فقط، سيكون علينا أن نهرول هرولة الخبب شبه منبطحين لمسافة أربعمائة متر تقريبًا في اتجاه هذا الساتر الترابي الذي يقع في منتصف المنطقة الفاصلة والذي نستطيع الآن تمييزه من بعيد. بعدها سيكون علينا أن نتسلق الساتر كي نهبط منه ونستكمل المسيرة بالطريقة نفسها على الناحية الأخرى.

«يلاّ! يلاّ!» همس أبو زيد بنبرة حاسمة متعجلة وقد اتخذ طريقه أمامنا في بداية رحلة العبور. كان منظره كمنظر رعاة الغنم وقد حمل عصا في يده اليسرى يخترق بها الحشائش أمام قطيع من ثلاثة أغنام كنت أنا أولهم، ووراءه مباشرةً، كتفي اليمنى تكاد تلمس كتفه اليسرى، بينما تبعني عُدي ثم أبو ليث في خط مستقيم. كان من الواضح أن أبو زيد يعلم تمامًا أين تقع نقاط المراقبة. أدار رأسه للخلف نحونا ثم للأمام في اتجاه الجنوب الشرقي حيث يلمع ضوء خافت، وأصدر أمرًا لا يقبل المناقشة: «امشوا في خط مستقيم ورائي مباشرةً في اتجاه هذه النقطة».. لكنه كان أيضًا قائدًا واعيًا فأدار رأسه إلينا مرةً أخرى وهو يقدم لنا حيثيات الأمر همسًا: «بهذه الطريقة نبدو جميعًا كما تبدو نقطة صغيرة لو أصابنا ضوء لا قدر الله». اعتدلت على الفور فوضعت كتفي اليمنى وراء كتفه اليمنى.

كانت ذاكرتي لا تزال تحتفظ بمجموعة من النصائح الثمينة أهداني إياها مجاهد من لبنان. هو أيضًا كان قد سبقنا إلى العبور إلى العراق من النقطة نفسها. يتردد بؤبؤ عيني الآن دون سيطرة مني يمينًا وشمالًا كما يتردد بندول ساعة حائط أثرية بينما ترن في سمعي كلمات المجاهد الذي سميته عبد الجليل وهو يحكي لي تجربته: «كان

الطريـق واسـعًا ونحن نتبع بقعة ضوء فـي وادٍ كبير، وكانت أصـوات الكلاب الضالة ترعبـك، كمـا كانت الطيور البرية تختبئ بين الحشـائش، وحين تطير فجأة كنا نُصاب بالذعـر. ثم زاد الطين بلة عندما تاه دليلنا فلم نعد ندري أين نحن تمامًا. اضطررنا إلى السـير هكذا لمدة سبع سـاعات في ظلام دامس لـم تكن تستطيع أثناءه أن تميز أصابع يديـك. فقـط عندما مرت الدبابـات الأمريكية بنا على بعد لا يزيد على عشـرين مترًا. انبطحنا على بطوننا وكتمنا أنفاسنا».

لحسن الحظ، لم تكن ثمة رائحة لدبابة أمريكية فيما بدا دليلنا وكأنه يحفظ الطريق عـن ظهر قلب. غير أن الكلاب الضالة كانت حولنا من كل اتجاه، وكانت تنبعث منها أصوات عالية قبيحة تهتك سـتر الليل وتصيبنا بالرعب حتى بدأت أخشـى من أنها إذا لـم تنهش لحومنـا أحياء فلن يمر وقت طويـل قبل أن نقع في قبضة أحد ما. «أسـرع! أسـرع!» التفتُّ ورائي وأنا أحث عُدي بلهجة حازمة بعد أن لاحظت اتسـاع المسـافة بيننا. وعندما أبطأت من خطوي كي يلحق بي اكتشـفت أنه، وقد بدا متعبًا، كان يسـتند في مشيته إلى كتف أبو ليث.

«بعيد عنّك»

وسط ذلك ودون مقدمات انفجر هاتف أبو زيد ممزقًا صمت الظلام، معلنًا عن مكالمة هاتفية بنغمة من إحدى أغنيات سيدة الغناء العربي، أم كلثوم: «بعيد عنّك حياتي عذاب». أفلحت بصعوبة في كتم ضحكة أوشكت أن تفضحنا. اقتربت من عُدي للتأكد من حالته بينما كنت أسمع أبو زيد يهمس في هاتفه: «خمس دقائق الآن، خمس دقائق .. انتظرونا خلف الساتر .. خلف الساتر يا أخي وليس فوق الساتر». لدى تلك النقطة كان عُدي قد هوى إلى الأرض وهو يقول لي بصوت منكسر: «لقد خذلتُك!». اقتربت منه وأنا أتحسسه منبطحًا فارتطمت أصابعي بما شعرت أنه دمعة انحدرت على جانب من وجهه. «إيه شغل العيال ده؟!».. لكنه سرعان ما أجبرني على الشعور بالقسوة وانعدام الإحساس عندما استطرد معترفًا: «كان ينبغي عليّ أن أخبرك من البداية أنني أعاني من مرض الربو». وإضافةً إلى هذا، يزن عُدي تقريبًا ضعف وزني.

توجهت بحديثي إلى أبو زيد الذي كان عندئذ قد اتخذ وضع القرفصاء القلق إلى جوارنا على الأرض: «من الأفضل الآن أن تُخبر أصدقاءك أننا لن نصل إلى الساتر قبل عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة». لكنّ المهرب المحترف انفجر في وجهي: «مستحيل يا أستاذ؛ إذا تأخرنا كل هذا الوقت ستفشل الخطة كلها»! لكنه حتى قبل أن يكمل اعتراضه كان قد قرأ في عينيّ أنني لم أكن لأترك صديقي خلفنا مهما كلفنا الأمر.

قضّيت الدقائق الثمينة التالية في تدليك عُدي من صدره إلى ساقيه وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة. وفي أثناء ذلك كنت أقص عليه بعض النكات المصرية. استطاعت إحداها، وكانت عن أحد المساطيل، أن تقف به على قدميه. حمل أبو زيد حقيبة عُدي بينما حملت أنا عُدي نفسه بمساعدة من أبو ليث ونحن نمضي في طريقنا متوقفين كل عشر خطوات لمزيد من التدليك.

«بعيد عنّك حياتي عذاب» انطلقت مرة أخرى ونحن نجر أقدامنا نحو حافة الساتر الطيني. قطعنا الآن نصف المسافة تقريبًا من مساحة الأرض المحايدة على حدود الدولتين. في ذلك الوقت كانت قد ضاعت منا تلك اللحظات الذهبية من ساعة الغسق بين النهار والليل. كتم أبو زيد هاتفه عندما أحس بأنفاسي تحاصره لاهثة من الإرهاق: «ديك أم الـ ...». قلتها بكل ما بقي لديّ من دبلوماسية وأدب، «دعنا نلتقط أنفاسنا هنا لدقيقة أو اثنتين».

وكأنما مر علينا دهر من الزمان قبل أن أسمع ردًّا متأففًا من المهرّب الذي أفسح المجال في الوقت نفسه لمؤخرته كي تهبط بكل ثقل جسمه، وبكل خبرة في آنٍ معًا، على تلك النقطة التي تلتقي لديها قاعدة الساتر الطيني بالأرض التي امتلأت بالحشائش. «حسنًا!» قالها بلهجة طفل غاضب اختطف أحدهم لعبة من يديه للتو، «أنتم محظوظون». تنفس الآخران الصعداء؛ إذ إن ارتفاع الساتر يبلغ نحو خمسة أمتار بينما يبلغ عمقه حوالي أربعة أمتار. كان هذا كل ما يفصلنا الآن عن شركاء أبو زيد الذين كانوا ينتظروننا على الجانب الآخر من الساتر للدقائق العشر الأخيرة.

وما لم نكن نعلمه حتى تلك اللحظة أن مجموعة صغيرة من السعوديين كانت من المفترض، وفقًا لتخطيط المهربين، أن تلتحق بنا عند تلك النقطة كي تعبر معنا في صحبة المهربين. انفتح صوتي رغمًا عني: «نعععمم! ومن عساه يكون هذا الألمعي الذي أتى بهذه الفكرة؟ ألم تحصلوا منا على ما يكفي من المال كي يدفعكم الجشع إلى...». وهنا قاطعني أبو زيد وقد أحس بحرج موقفه: «على مهلك يا أستاذ، وعلى أي حال فقد انتظروا طويلًا على الجانب الآخر ولكنهم بفضل ما حدث لزميلك اضطروا إلى مواصلة السير وحدهم». انفصلت قناة الجزيرة عن المجاهدين مصادفة

في ذلك المكان الخطر في تلك اللحظة الحاسمة بفضل مرض الربو الذي يعاني منه عُدي. وعندها تعمدت أنا أن أبالغ في رد فعلي على تلك الخطة التي لم نكن نعلم عنها شيئًا، بينما كانت تدور في ذهني فكرة مثيرة: «يا لها من فرصة إذا استطعت أن ألتقي بهؤلاء المجاهدين كي أسألهم سؤالًا أو اثنين!».

وفيما يشبه مشهدًا مستعارًا من فيلم «أكشن» رديء، أو أحد مانشيتات قناة فوكس الأمريكية الأكثر رداءة، بدأنا نصعد الساتر: عُدي أولًا لأسباب واضحة. رفع رجله اليسرى حاشرًا قدمه في الطين ومد ذراعه اليمنى عن آخرها متشبثًا بجسد الساتر بينما كنت أدفع بكتفي مؤخرته من أسفل. والنتيجة: انهيار نحو ١٠٠ كيلوجرام من اللحم البشري دفعة واحدة فوق رأسي. كان هذا موقفًا كاريكاتوريًّا ساخرًا جعلني لا أستطيع التوقف عن الضحك.

بمساعدة من أبو ليث، استجمعت ما استطعت من قوة للدفع بمؤخرة عُدي إلى أعلى بينما كنا جميعًا نناضل لتثبيت رؤوس أقدامنا في الطين. بعد قليل وصلنا منهكين إلى قمة الساتر الترابي حيث كان أبو زيد في انتظارنا، وفيما يشبه انهيارًا جليديًّا مفاجئًا تركنا عندها العنان لأجسادنا ونحن على ظهورنا كي تنزلق على الطين من أعلى الساتر إلى أسفله. حتى مع ما يحيط بالأمر كله من رهبة وترقب، لم أستطع في تلك اللحظات مقاومة فلاش باك لذكريات جميلة أيام كنا أطفالًا نلهو في قريتنا الصغيرة.

ارتطمت أقدامنا بالأرض أسفل التل وقد ملأتها الحشائش وأنفاس رجلين يرتدي كل منهما ثوبًا أبيض عليه إزار من الجلد البني يمتد من الكتف اليسرى قطريًّا إلى أسفل كي يلتف حول الخصر. بدا كل منهما في هذا اللباس النمطي كأنه حارس بدوي أو جندي هجانة. وحتى في عتمة الليل لمع المسدس الصغير الذي اتخذ موضعه على الجانب الأيسر من الخصر.

دون مقدمات، استنهضنا أحدهما قائلًا: «ستذهبون مع زميلي بينما سأتولى أنا أمر المجاهدين». كان هؤلاء قد اختبئوا بين الحشائش أمامنا بمسافة قصيرة. لم أكن متأكدًا من رد فعله لكنني جربت حظي على أي حال: «هل لديك مانع في أن أصطحبك إلى حيث المجاهدون؟» ولحسن حظي لم يكن لديه مانع.

كان مـن الواضـح أنه أعجـب باهتمامي وشـجاعتي وكان من الأوضـح أنه فخور إلـى أبعد حـد بما يقوم به من مهمـة صعبة عبر الحدود. أخذ يحكي لي كيف سـاءت الأمـور فـي العراق من وجهة نظره بينما كنت أقتفي أثر أقدامه بين الحشـائش الطويلة في طريقنا إلى المجاهدين الذين أتوا من جزيرة العرب. تجاهلت تحليلاته السياسـية وسألته: «كم عددهم؟ اثنان؟ ثلاثة؟» قال باعتزاز: «كلا، بل خمسة، وهم من جنسيات مختلفة، بارك الله فيهم!».

عنـد هـذه النقطـة كنا قد بدأنـا ندخل في ظلام حالـك، وكانت الرياح قد سـكنت سـكونًا مخيفًا إلى حد أن وقع كل خطوة من خطواتنا بين الحشـائش كان في صدورنا كوقـع رصاصة أطلقت في واد عميق أجوف. عندما اقتربنا منهم كانوا كلهم جالسـين قبل أن ينتفضوا فجأة في خوف وترقب. مدركًا ذلك بحسـه الأمني الفطري، عاجلهم الدليل الذي كان يقتادني بتحية الإسلام فنزلت عليهم بردًا وسلامًا وطمأنينة ـ ولكن فقط حتى قدمني إليهم.

الجيش الإسلامي في العراق

في البداية تملكهم صمت رهيب. ملثمًا بشال عربي نمطي نظر كل منهم إلى الآخر في حيرة وجزع منتظرًا أن يبدأ غيره بالتعليق على موقف لم يكن يتوقعه. بعد قليل تقدم أحدهم نصف خطوة في اتجاهي وهو ينظر إلى أسفل ويقول في لطف وأدب: «أخي، لدينا كل الاحترام لك ولقناة الجزيرة، لكننا لا نفضل الحديث إلى وسائل الإعلام»! لكن ردي كان مفاجأة استخلصت بشكل واضح تنهيدة ارتياح من صدورهم جميعًا: «ولا أنا أفضل الحديث إليكم في هذا الظرف، فكل ما في الأمر أن قطارًا واحدًا جمعنا بالصدفة في نفس الاتجاه». تقديرًا لهذا الرد كما يبدو انبرى آخر كي يطمئنني: «إنه ليسعدنا كثيرًا أن نتحدث إليك يا أخي، لكننا نحتاج أولًا إلى تصريح من أميرنا». لكن أميرهم في داخل العراق. من وأين ومتى؟ لا يفصحون. حتى متى سيبقون في العراق؟ حتى «إحدى الحسنيين». هل يتوقعون أن يلحق بهم مزيد من الأخوة؟ نعم، كثير منهم.

يقودني دليلي الآن كي ألتحق بفريقي مرة أخرى قبل أن يتسرب القلق إليهم. يبدو هذا الرجل في إصرار غريب وفي ثقة أغرب وهو يعرف مدقاته عن ظهر قلب، كأنما يقوم بهذا العمل عشر مرات كل ليلة. مشهد يدفعك إلى التساؤل: لا يمكن للمال وحده أن يكون باعثه على اتخاذ مثل هذه المخاطرة، هل يمكن؟ لقد تركت وراء ظهري للتو حفنة من الشباب المتقدين إيمانًا من «جزيرة العرب» في طريقهم إلى

الجهاد في العراق. رغم أنهم لم ينطقوا إلا بكلمات معدودة فقد كان من الواضح أن مؤثر بن لادن يغمر شالاتهم وما تيسر من وجوههم وكلماتهم وأنفاسهم. كيف يمكن لي في المقابل أن أفسر بواعث المهربين؟ والأهم من ذلك: كيف لي أن أفسر بواعث الغالبية العظمى من جماعات المقاومة في العراق التي ترفع راية الإسلام وتنطق بلكنة بِنْلادِنِيَّة؟

«إنما نحن فقد عُبِئنا قبل أن تأتي أمريكا وقبل أن تأتي بريطانيا (إلى العراق)، وقد عُبِيء ذلك من خلال قراءتنا للقرآن، ومن خلال فهمنا لسنة النبي عليه الصلاة والسلام، ومن خلال ما أردنا من هذه العبادة: أن ندخل الجنة. فنحن علمنا أن هذه الجيوش عندما تقاتل بعقيدة الأرض تختلف عن الجيش الذي يقاتل بعقيدة السماء».

تلك كلمات القائد العسكري لجماعة «الجيش الإسلامي في العراق»، أبو مشتاق الزبيدي، الذي يتحدث لأول مرة لوسيلة إعلام في إجابة مصورة على أحد أسئلتي. فما حدث بعد إصراري على موقفي من الناحيتين الأخلاقية والصحفية أننا توصلنا بعد ذلك إلى حل وسط قمت في إطاره بإمدادهم بأسئلة مكتوبة قرأها عليه أحد أعوانه ثم أرسلوا لي بعد ذلك بإجاباته المصورة على شريط.

وعلى الشريط نفسه سجلوا بعد إجاباته ما كنت أخشاه: اجتماعًا لعدد من القادة الميدانيين للجيش الإسلامي يخططون لعملية كبرى، تم تصويره «حصريًّا» لصالح التحقيق الذي كنت أقوم به. يظهر هؤلاء القادة في الشريط ملثمين، لا بتلك الشالات العربية ذات اللونين الأحمر والأبيض ولكن بأقنعة سوداء من الواضح أنها فصلت خصيصًا لهذا الغرض. حوالي دستة من القادة جلسوا، لا على الأرض بل على مقاعد مريحة حول طاولة طويلة أنيقة كأنها في قاعة اجتماعات لشركة حديثة، لا في كهف ناءٍ بل في غرفة عادية مزدانة. أمام كل منهم جهاز كمبيوتر متنقل (لابتوب) وفي منتصف الطاولة الممتدة عرش من الأزهار وخريطة ورقية معقدة، وأمامهم جميعًا على الحائط شاشة بلازما عرضها ٥٠ بوصة تنبعث منها خريطة حديثة لوسط بغداد. بهذه التفاصيل كلها لا يجد الذهن صعوبة في إدراك أنك داخل غرفة عمليات.

علـى رأس الطاولـة يجلس الآن رجـل ظهره إلـى الكاميرا وصوته ينبـئ بأنه ربما يكون قائد القادة. يفتتح الاجتماع بآيات من القرآن الكريم قبل أن ينقله المونتاج إلى: «إذًا، نعلم الآن أن ساعة الصفر هي الساعة الواحدة ليلًا .. ليلة الخميس على الجمعة الساعة زيرو مية. لقائد القوة مجموعتان من كتيبة الديرة ومجموعتان من كتيبة سلمان لمهاجمة قطاعات العدو في منطقة .. (قطع في المونتاج) .. أريد أن أعرف كم قذيفة لديك كي أسـجلها عنـدي؟» يبدأ رجل يجلس في المنتصف الإجابة: «بالنسـبة لي»، فيقاطعـه القائد مفصلًا السـؤال: «قذائف ٦٠ ملليمترا، كم رأسًـا تقدر أن تؤمّن لي؟» فيسـتطرد الرجل في الإجابة: «أقدر أؤمّن لك ٣٠ رأسا»، فيكررها القائد للتأكيد وهو يسجل في أوراقه: «٣٠ رأسا ٦٠ ملليمترا».

تبدو «اللكنـة البنلادنيـة» مختلفة قليلًا هنا، أليس كذلـك؟ فمنذ متى كانت تحتوي على مفردات ومصطلحات من مثل «السـاعة زيرو ميـة» و«كتيبة» و«قطاعات العدو» و«قذائـف ٦٠ ملليمترا»؟ مفردات القاموس العسـكري المحترف من شـأنها فقط أن تؤكـد إيحاءات بأن عناصر من الجيش العراقي المسـرّح ومـن البعثيين ومن القوميين اسـتطاعت أن تجمـع شـتات حركة مقاومـة جادة داخـل العراق. ورغم أنهـا علمانية القلـب والـروح فقد اسـتطاعت أن تفاجئ نفسـها وتفاجئ المتابعيـن عندما اجتذبت حماسـة الشـارع المقاوم، لكن ذلك لم يكن ليحدث في نظر كثيرين إلا عندما علقت راية الإسلام على مدخل المكان.

يكفـي اسـمها، «الجيش الإسـلامي في العـراق»، لجـذب المئات مـن المقاتلين والمجاهديـن وطـلاب الشـهادة ولتحويلهـا فـي وقـت قصير إلـى كبـرى جماعات المقاومة وأكثرها فتكًا. يسـتطيع جورج بوش الصغير أن يسـتخدم كلمة «بعثيين» في سـياق سلبي كل مرة يرهق نفسه لتزيين غزو العراق، لكن هؤلاء من الأميركيين الذين يعلمون حقيقة الأمر سـيجدون في اسـتعداد المئات، بل الآلاف، للشهادة تحت لواء الإسلام ولو كان الذين يرفعونه بعثيين، هزيمة لمشروعه في بلاد الرافدين.

أمـا هذه التي يُنظر إليهـا باعتبارها ثانية كبرى جماعات المقاومة في العراق فتتخذ خطوة أوسـع بربط اسـمها بشـكل مباشر باسـم حركة المقاومة الإسـلامية (حماس)

رغم اختلافهما إلى حد بعيد في سياق التكوين وفي النهج وفي الهدف. «كتائب ثورة العشرين» ـ كما تسمي نفسها ـ تعد مثالًا حيًّا على مدى سهولة التجنيد باسم الله لمحاربة «أعداء الله». خاطَر قائدها العسكري، أبو صالح القيلاني، بما كان يمكن ببساطة أن يتحول إلى كارثة تودي به عندما أصر على لقاء واحد من زملائي لدى إحدى النقاط الحدودية. بالنسبة له ثمة معنى واحد لما يوصف بالديمقراطية:

«إن كنت تقصد الديمقراطية الأمريكية، فإن الإجابة نعم، نحن عقبة في طريق الديمقراطية الأمريكية، وإن كنت تقصد مشروعًا للإنسانية ونهجًا للبشرية، فإن الإسلام كان أول من احترم حقوق الإنسان وكان أول من قدم مشروعًا للحضارة الإنسانية. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾.. هذه كلمات الله عز وجل، وحده قادر على تأسيس مجتمع يسوده العدل».

على الجانب الآخر

بينما تصاعد نباح الكلاب بصورة مخيفة وسط ظلام دامس وهدوء قابض، انبثقت فجـأة أمامنا علـى مرمى البصر صورة ما بـدا لي نوافذ خافتة الإضـاءة من بين جدائل الحشـائش. «ارجـع .. ارجـع»، صاح دليلنـا بصوت هامـس وإن كان عنيفًـا في أحد الـكلاب الـذي كان بوجه خـاص مصممًا على طردنـا من المنطقة، إن لـم يكن أكثر. وفي خضم لحظة من الرعب، همس دليلي في أذني معلنًا: «أهلًا بك في العراق يا أخ يسـري». على حدود المنطقة العازلة، كما تبين الصورة الآن، تتناثر حفنة من الأكواخ اللبنية على مسطح محدود كي تشكل أول قرية عراقية على الحدود.

اقتادنـي الدليـل إلـى أحد تلك الأكـواخ حيث وجـدت عُدي وأبو ليـث وأبو زيد جالسـين علـى الأرض وإلى جوارهم وجه جديد. لأول وهلـة، يمتلأ الكوخ بإعصار من الإحسـاس بالإنجاز والرضا، واليوفوريا كذلك في بعض اللحظات. «فعلناها!.. فعلناهـا!»، قالها عُدي باللغة الإنغليزية مهللًا وهـو ينتفض على قدميه كي يحضنني. بعدها قدمني أبو ليث للوجه الجديد باسطًا في الوقت نفسه جانبًا من تفاصيل الخطوة القادمة. «سـنبيت ليلتنا هنا، وسـيأخذنا أبو نور في الصباح الباكر إلـى نقطتنا التالية». وقبـل أن يختفي من حياتي إلى غير موعد، توجه أبو زيد مع صديقيه إلى كوخ مجاور قبل أن يعودا هما لنا بطاولة العشـاء: بيض مخفوق، زبادي طازج، وخبز عراقي شهي يسيل له اللعاب.

كان الإحساس بالأمر يقترب، بمعنى من المعاني، من إحساس مسافر أرهقه السفر في طريق صحراوي شبه مهجور قبل أن يلمح، ربما في صحراء نيفادا، واحدًا من تلك الموتيلات المنعزلة التي تثير الشك والجزع لكنها في الوقت نفسه لا تخلو من جاذبية وشغف. «بي أند بي»، أو سرير وإفطار، مع لقمة دافئة تضاف إلى ترتيبات من نقطة إلى نقطة تبدو حتى الآن جيدة، مع استقبال جيد وأسعار جيدة، تجعلها جميعًا «باكيدج جيدة».

أبو نور فخور بما يقوم به .. فخور بدوره الذي يستطيع أن يضعه ببساطة غريزية على خريطة ما يحدث في العراق، وفخور بكل تأكيد بإنجازات «الجيش الإسلامي في العراق» على مدى السنوات الثلاث الماضية. وفقًا لإحصاءات هذا التنظيم، التي لا نستطيع تأكيدها من مصادر أخرى: استطاع أعضاؤه أن يقتلوا ١٥٩٣ جنديًّا أميركيًّا و١١ ضابطًا. كما استطاعوا تدمير نحو ٣٠٠ سيارة من نوع «هامر»، و٤٦ سيارة مدرعة و١٥ دبابة. هذه الأرقام، وفقًا لهم، فقط حتى نهاية عام ٢٠٠٥. ولو صح هذا، فإن الأمر لا يحتمل إلا واحدًا من اثنين: فإما أن وسائل الإعلام تغط في سبات عميق أو تواطؤ أعمق، أوأن البيت الأبيض يقوم بمهمة «رائعة» في التضليل. وأيًّا ما كان أيهما أو مزيجًا منهما، فإن من شأن أمر كهذا أن يزعج أبو مشتاق الزبيدي.

«باعتباري رجلًا في الميدان، أرى بأم عيني أعداد القتلى وكم الخسائر (الأمريكية). أرفع جثة بيدي هاتين، جثتين، ثلاث جثث، بيدي هاتين، وأعرضها على العيان وأنتظر. هل يجد هذا طريقه إلى وسائل الإعلام؟ هل يعلق الجيش الأمريكي؟ وأقسم بالله لا يتحدثون عن شيء. إنها بالمئات ولكن الجيش الأمريكي لا يعلن عنها».

بعد صلاة الفجر بقليل، دلفنا في هدوء إلى سيارة أبو نور الصغيرة التي كانت مختفية وراء الكوخ. أبو ليث في مقعد القيادة وصديقه إلى جواره يتولى شؤون الملاحة، بينما استترت مع عُدي في المقعد الخلفي مغطيًا زجاج نافذتي بمنشفة صغيرة يتيح جانب منها كوة صغيرة أستطيع من خلالها استقبال العراق المختلف الذي يأتيني الآن رويدًا رويدًا مع كل لفة من إطارات السيارة. لأول مرة أراه منذ عام ٢٠٠٣، تحديدًا قبل الغزو بأيام قليلة عندما كنت أعد تحقيقًا عن التلاعب الإعلامي سميته

«العد التنازلي». كان معي وقتها المدير العام لقناة الجزيرة، محمد جاسم العلي، والزميل فيصل القاسم. وكانت تلك نقطة التحول في مسيرة قناة الجزيرة بعد ذلك بفترة وجيزة، وهو موضوع يطول شرحه.

لم تزل ذكرياته تداهمني بينما أكتشف الآن عراقًا مختلفًا في طرق ملتوية، بعضها صحراوي وبعضها جبلي، تبعد بنا قدر الإمكان عن الطرق الرئيسية والمدقات المعتادة. يتطلب الأمر، بكل تأكيد، خبيرًا محليًا يعرف طريقه جيدًا بين مضارب القبائل والعشائر. هذه المنطقة وما حواليها أصبحت فيما بعد الحاضنة الطبيعية لتنظيم مثل تنظيم دولة الإسلام في العراق والشام (داعش).

يبلغ الأمر من التعقيد مبلغًا تجزع معه كلما لاحت في الأفق قرية أو منزل منعزل. لا تعلم إن كانت عربية أم كردية، سنية أم شيعية، أزيدية أم غير ذلك. أسئلة مخيفة تلاحقك وأنت تلاحق الطريق. على أي جانب سيكون هذا الذي ربما يصادفك فجأة في طريق مهجور؟ ماذا سيظن بك؟ وهل ستكون دورية أمريكية بالصدفة من حظنا؟ هل يلفت منظرنا أعين الحرس الوطني العراقي الذي لم يكن لدينا فكاك من المرور بإحدى نقاط تفتيشه في طريق خروجنا من ممر فرعي إلى ممر آخر؟ والأخطر من هذا كله، هل نسقط بين أيدي أحد تجار الرؤوس المحليين، ربما لما نمثله من صيد ثمين أو لمجرد الأحذية التي نرتديها؟ الإجابة عن تلك الأسئلة كلها وغيرها كانت تعني ببساطة حياتنا، أوعلى الأقل حريتنا إلى حين.

حتى الخبير المحلي، أبو نور، في أجواء قابضة كهذه، بينما كان يحاول جاهدًا أن يقودنا بعيدًا عن الطرق والمناطق المشتبهة، نجح في أن يضلل نفسه فوجدنا أنفسنا معه فجأة في متاهة عظيمة. كنت قبلها قد بدأت لا أستريح له لاعتماده على التخمين أكثر من المعرفة. صحيح أنه كان في معظم الأحيان تخمينًا ذكيًا، لكنه فصلني عنه عندما وجد في نفسه من اللامبالاة في تقدير خطورة الموقف حدًا دعاه إلى أن يقترح فجأة أن نتوقف لدى أقرب منزل بحثًا عن طعام.

«إيه؟ أكل؟ دلوقتي؟! إحنا عارفين إحنا فين أصلًا؟».. بدأت أعصابي تنفلت وأنا أمطره بأسئلة أدركت بعد قليل أن قدرتها على الإحباط وإثارة الذعر أكثر من قدرتها

على احتواء موقف سخيف في تجربة خطيرة. هدأت نفسي قليلًا قبل أن تنطلق مشتعلة مرة أخرى، هذه المرة عندما طلب عُدي وهو يهز كتف أبو نور بيده حثيثًا ويمسك بطنه بيده الأخرى أن يأخذنا هذا إلى أي مكان بسرعة كي يقضي حاجته. «نعععععم يا بابا؟! اعملها هنا في العربية ومش عايز أسمع صوتك تاني»، انفجرت فيه، «واحد عايز ياكل وواحد عايز .... ونتا (ناظرًا لأبوليث) مش عايز شيشة؟». انفجروا ضحكًا بينما لم أجد أنا ما يثير الضحك.

تُهنا، هكذا تُهنا. ظل أبو ليث يقود بنا على غير هدى، ثم بعد قليل ظل يقود بنا على غير هدى على الإطلاق. لمعت في وسط ذلك فكرة في ذهن أبو نور فأمر أبو ليث باتخاذ طريق بعينه وهو يكاد يفقأ عينه بيده التي كانت تشير إليه وهو يردد له مكررًا أن له صديقًا في قرية سنية على مقربة من هنا. ذلك الطريق الذي أشار إليه كان يعني، مثلما سنكتشف بعد قليل، صعود جبل سنجار. ناضلت السيارة الصغيرة القديمة المتهالكة وهي تنحر قلبها صعودًا بينما لا أتوقف أنا عن ترديد آيات من القرآن كي أكتشف أنني مازلت أحفظ منه الكثير.

نبوءة أبو مصعب السوري

الحمد لله، استمرت السيارة في الصعود، وكلما صعدت زادت كثافة الضباب حولنا إلى أن بلغنا نقطة من الجبل لم نكن نستطيع لديها أن نرى أمامنا بأبعد من مترين. ليت الطريق كله كان كذلك. عندئذ طلبت من أبو ليث أن يركن جانبًا ودفعت عُدي إلى خارج السيارة: «اتحرك، روح ... وارجع بسرعة»، بينما أسرعت أنا والباقون في اتجاهات مختلفة نفعل الشيء نفسه.

يا لذلك الإحساس المفعم بالراحة، عندما تتلخص كل أماني الإنسان في أن يقضي حاجته في ظروف كهذه وليكن من بعد ذلك ما يكون. لكنه، حين يتخلص من عبء أمور كهذه يبدأ عقله في البحث عن أمور أخرى «أكثر رقيًا». عقلي أنا في تلك اللحظة بدأ يتساءل لماذا أضطر إلى التعمق في هذه المسافة كلها في دهاليز العراق بينما عصب القصة التي أحاول هضمها موجود في بلاد الشام. كثير من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين والأردنيين، كما يمكن أن يخبرك أبو نور، اتخذوا طرقًا كهذه التي نتخذها الآن في طريقهم إلى محاربة الأمريكيين. كم كان يحلولهم أن يحاربوا الإسرائيليين في فلسطين بدلًا من ذلك بشكل مباشر. وبكل تأكيد، ثمة من يحاول، وبعضهم يبدو في طريقه إلى إحراز تقدم ربما يكون لبنة لما هو أكثر من ذلك على مدى العقدين القادمين.

وربما ينظر بعضهم إلى إحدى نتائج الحرب الأخيرة ذلك العام (٢٠٠٦) بين الإسرائيليين وحزب الله باعتبارها أخبارًا جيدة لتنظيم القاعدة وما يشبهه من تنظيمات

وجماعات وأفراد. ذلك أن الغالبية العظمى من هؤلاء الذين ينتمون إلى، أو يتفهمون، السلفية الجهادية بمختلف مشاربها وسيوفها سيتفاءلون بحقيقة دفع حزب الله إلى مسافة أبعد عن الحدود بين لبنان وما يسمونه دائمًا فلسطين المحتلة. ومهما بلغت قوات الأمم المتحدة على الحدود من قوة فإنها لن تستطيع حتى أن تقترب من دهاء وعزيمة حزب الله الشيعي في السيطرة على ممرات الوصول إلى الإسرائيليين من تلك الناحية. اسأل أيًّا من هؤلاء ولن تجد منه سوى كل لعنة على حزب الله لوقوفه في الطريق لسنوات طويلة «محتكرًا» بطريقته الخاصة المحسوبة بدقة شرف الجهاد ضد أعداء الله والدين.

وحتى تلك المرة الوحيدة التي شنت القاعدة أثناءها هجومًا بحفنة من الصواريخ من جنوب لبنان على شمالي إسرائيل قبيل نهاية عام ٢٠٠٥، خاضعة لتساؤلات وشكوك. تعبر لي بعض المصادر القريبة من مواقع سياسية وأمنية في سوريا ولبنان عن اعتقادها أن حزب الله كان على علم مسبق بذلك الهجوم وأنه اختار أن يغض الطرف. يقول رئيس تحرير جريدة الديار، شارل أيوب، إن «حزب الله أراد أن يبعث (من وراء ذلك) برسالة بسيطة (مفادها أنه) إذا كان المطلوب هو الضغط على حزب الله لنزع سلاح المقاومة فإننا لن نكون مسؤولين. هذا هو البديل، وهذه هي مجرد البداية؛ القاعدة على حدود فلسطين المحتلة».

= التي لا يستطيع أحد أن يتوقع ما يمكن أن تفعله؟

● «صحيح».

= مقارنةً بحزب الله؟

● «تمامًا».

لكن الذي لا شك فيه أن الصواريخ وقعت على «كريات شمونة» وأن امرأة إسرائيلية ظهرت على قناة إسرائيلية تعدد مدى الضرر الذي أصاب منزلها جراء ذلك، وتؤكد أن القاعدة هي التي فعلت ذلك «لأنني رأيت التلفزيون الإسرائيلي يقول ذلك»! صح أم لم يصح، الظاهر أن القاعدة، وأفكارها تحت أي مسمى آخر، تتسلل حثيثًا إلى النفسية الإسرائيلية. يقول نائب وزير ما يوصف بالدفاع الإسرائيلي، إفرايم إسنيه،

إنهم «حاولوا أن يتسللوا إلينا ففشلوا، والآن يحاولون استخدام الصواريخ. فعلوها من قبل في العقبة عندما أطلقوا صواريخ على العقبة وعلى إسرائيل، وسيطلقونها غدًا على مكان آخر».

غير أن الأمر لا يقتصر على مجرد تكتيك «اضرب واركض»؛ ففي ديسمبر من عام ٢٠٠٥ كانت منطقة التلة الفرنسية في القدس هدفًا لما بدا أنه عملية تحمل بصمات القاعدة. قبلها بأيام قليلة كانت السلطات الإسرائيلية قد ألقت القبض على الفلسطينيين، عزام أبو العدس وبلال حفناوي، بعد عبورهما من الأردن إلى الأراضي المحتلة، ووجهت إليهما تهمة الانتماء لتنظيم القاعدة. يزعم نائب وزير ما يوصف بالدفاع الإسرائيلي أن «ثمة موجة من الإرهاب تتدفق من العراق إلى الأردن، ولحسن الحظ فقد نجح الأردنيون إلى حد بعيد في التصدي للإرهاب».

مصممًا على أن يقود بي سيارته بحذاء أطول خط للحدود يجمع دولة عربية بالدولة العبرية، يلقي حذيفة عبد الله عزام، نجل أحد أبرز معلمي أسامة بن لادن، نظرة مفعمة بالمشاعر الجياشة على ما وراء الحدود الأردنية الإسرائيلية وهو يركن سيارته كي يلفت انتباهي إلى أمر ما. «انظر! انظر إلى حراس حدودنا! انظر إلى العار! انظر كي ترى إلى أي ناحية يوجهون أسلحتهم».

لم تكن فوهات الأسلحة في اتجاه القادم إلى البلاد، مثلما يمكن أن تتوقع، بل في اتجاه أبناء البلد الذين ربما ينوون عبور الحدود. ورغم أن الأردن كان، ولا يزال، في موقف جغراسياسي حساس لا يحسد عليه، زادت حساسيته بكل تأكيد بعد الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول وغزو العراق، فإن وضعًا مقلوبًا كهذا لا يمكن إلا أن يخدم أي طرف تستنفره عزة العروبة والإسلام، ومن أبرز هذه الأطراف بكل تأكيد القاعدة وما شابهها من تنظيمات. كم متطوعًا يمكن أن يلتحق بأي تنظيم راغب وقادر من جراء مشهد كهذا؟

بكل مشاكلها مع شعوبها فيما يتعلق بأمور كثيرة، على رأسها محض «الشرعية»، سيبدأ التعامل مع الأنظمة العربية ضمن المرحلة الرابعة من إستراتيجية تطور حركة

الجهاد الإسلامي العالمية[1]. وفقًا لأبو مصعب السوري فإن الاشتباك بشكل مباشر أوغير مباشر مع العدو الإسرائيلي ومن يدعمونه في بلاد الشام سيضع ضغوطًا لا تطاق على الأنظمة العربية، مما يؤدي في النهاية إلى تعريتها أمام شعوبها وإلى إثبات أنها لا تهتم بحمايتهم بقدر ما تهتم بحماية شعوب الأعداء. ومن شأن هذا أن يمد جسورًا بين قطاعات عريضة من الشعوب العربية من ناحية والقاعدة ومن شابهها من ناحية أخرى. وكما يبدو، يلمح المتابع ريحًا من وجاهة نظرية كهذه فيما آلت إليه مشاعر كثيرين في الشارعين العربي والإسلامي بعد إدانة غير مشروطة لحزب الله من جانب الأنظمة المصرية والسعودية والأردنية أثناء جولة أخرى دموية من المواجهة مع الإسرائيليين استمرت أكثر من شهر من يوليو/ تموز إلى أغسطس/ آب ٢٠٠٦ وخلفت ١٣٠٠ قتيل لبناني في مقابل ١٦٥ إسرائيليًّا ودمرت البنية التحتية في لبنان، ناهيك عن تشريد نحو مليون مواطن.

(١) وفقا لرؤية أبو مصعب السوري، تتلخص المراحل الثلاث الأولى في استهداف أمريكا في عقر دارها، ثم استدراجها إلى بلاد المسلمين، ثم الاشتباك معها بشكل مباشر، وهي مراحل اكتملت جميعا بعد الغزو الأمريكي للعراق.

رأس الأفعى

من ناحيته، يجد الأردن غير المحظوظ نفسه في كثير من الأحيان مطحونًا بين فكي رحى؛ فمن سلسلة من التفجيرات القوية أدارتها عقول عبر الحدود مع العراق قبل نهاية عام ٢٠٠٥ إلى مجتمع متذمر من السلفيين الجهاديين ينتظر فرصة في الداخل.. يبدو هذا البلد وكأنه يجلس على قنبلة موقوتة. ورغم أن استهداف الفنادق في عمان لم يلق استحسانًا لدى عموم الشارع، فإن قطاعات أعرض كما يبدو، وخصوصا بين الشباب، تبدي تفهمًا متزايدًا لمواقف هؤلاء الذين يجرؤون على تحدي ما يوصف بالمشروع الأيديولوجي الأمريكي في المنطقة. ماذا يحدث إذًا لو وفر أحد زعماء القاعدة أو ما شابهها قنبلة وخريطة نحو هدف إسرائيلي أوأمريكي؟ كم أردنيًا يتطوع؟

«أقسم بالله سيجد كثيرين، كثيرين جدًّا الذين سيتعاطفون معه ويؤيدونه ويساعدونه ويدعمونه»، يقولها حذيفة عبد الله عزام قولًا واحدًا ردًّا على سؤال لي يعتبره «رائعًا» قبل أن يستطرد موضحًا: «لقد ذاق هؤلاء الأمرّين من السياسات الأمريكية والإسرائيلية. لا يا سيدي؛ اضرب رأس الأفعى وسيسقط الذنَب!».

= أمريكا؟

• «اضرب رأس الأفعى، نعم، اضرب رأس الأفعى.. رأس الأفعى هو إسرائيل وأمريكا في المنطقة. اضرب رأس الأفعى وسيسقط الذنَب في التو واللحظة».

باستثناء استهداف المدنيين و/ أو الأمريكيين خارج حدود العالمين العربي والإسلامي، لا تختلف كثيرًا هذه الكلمات، التي تأتي من إسلامي معتدل مثقف منفتح لين الجانب، عن كلمات قالها زعيم القاعدة، أسامة بن لادن، قبل ذلك بثماني سنوات. اليوم يقبع في أحد سجون الأردن معلم آخر لزعيم آخر لإحدى أبرز تجليات القاعدة في العراق وفي هذه المنطقة كلها، لكن الشيخ أبو محمد المقدسي، معلم أبو مصعب الزرقاوي، لم ينقطع أبدًا في محبسه عن العالم الخارجي. بالنسبة له لن يتعدى الأمر أكثر من ثلاث سنوات قبل أن تجد القاعدة موطئ قدم لها في فلسطين.

ورغم أن فلسطين من هذه الزاوية تهيمن عليها حركة المقاومة الإسلامية (حماس) التي هي في معظمها انبثاق عن جماعة الإخوان المسلمين التي هي جماعة نشأت أصلًا في مصر عام ١٩٢٨ متغلغلة في قواعد المجتمع، متخذة من مظاهر العمل السياسي تكأة مرحلية لا تمنعها في الوقت نفسه من استخدام العنف، فإننا لم نجد صعوبة كبيرة في لقاء عدد من شباب غزة المنتمي لتنظيم القاعدة على حد تعريفهم بأنفسهم. وسواء كانوا أعضاء منتظمين في القاعدة أولم يكونوا فإن من الواضح وجود فكر السلفية الجهادية المهموم بشؤون تتعدى مجرد ما يخص القضية الفلسطينية بكل ما لها من محورية في الضمير العربي الإسلامي. لديهم تنظيمهم على الأرض ولديهم أيضًا موقع على الإنترنت.

غير ذلك، ثمة أيضًا من يجدون أنفسهم على أقصى يمين حماس، الذين من المتصور أنهم سيكونون، إن عاجلًا أو آجلًا، قاربًا سهل الاندفاع في اتجاهات شتى أمام تيار قوي يحمل بين طياته مزيجًا من إحباطات الواقع والحسابات السياسية لحماس و«النجاحات» المتوالية للإسلاميين المتشددين أمام الأمريكيين والإسرائيليين ومن والاهم. ذلك على أي حال أن سيد قطب، وهو أحد أقطاب السلفية الجهادية الحديثة، كان أصلًا أحد أقطاب جماعة الإخوان المسلمين في مصر. ومما يثير المفارقة أن صورة نمطية للزعيم جمال عبد الناصر، الرجل الذي أُعدم سيد قطب في عهده، تزين أحد مقاهي غزة فتبعث في أرجائها نكهة من نوع خاص تزيد حدتها عندما ينخطف بؤبؤ عينيك فجأة إلى يمينها فترى صورة أخرى لزعيم تنظيم القاعدة، أسامة بن لادن. إلى هذا الحد تختلط الأمور في هذا القطاع من العالم.

عـودًا إلى العراق.. ينطلق قائد سـيارتنا أبو ليث، وقد اسـتراح كثيـرًا بعد أن قضى حاجته، في ترديد نشيد بالعامية مفعم بالعاطفة. هكذا غنّاه على مسامعنا:

«أميرِنا المُلا / عن دينُه ماتْخلّى

كل الجنود بايْعوه / أرواحِنا لله».

ولم يلبث أبو نور عندئذ أن انضم إليه في الإنشاد:

«قائدْنا بن لادن / يا مُرهب أمريكا

الشيخ أبو مصعب / أخدنا للجنة».

اختلـف الطريق الآن بعد أن وصـل بنا أبو نور إلى منزل صديقه المهرب المحلي. دس بيـن يديـه ورقة بنكنوت خضـراء، مقدارها مائة دولار أمريكـي، كانت كافية كي يقفز هذا مسـرعًا إلى سـيارة ربع نقل من نوع تويوتا ويقودها أمامنا مرشدًا. بالنسبة لنا لـم تكن تلك صفقة سـيئة رغم أن كل ما فعله كان أن قاد سـيارته فـي اتجاه الصحراء لمسـافة لا تزيد على عشرة كيلومترات، لوّح لنا بعدها إلى الأمام بينما عاد هو أدراجه من حيث أتى.

أومـأ لنا أبـو نور الآن مطمئنًا بأنـه يتذكر الطريق من هنا. لكـن الطريق من هنا كان سلسـلة أخرى من العذاب لمدة سـاعتين مـن القيادة على «اللاطريـق» معجونين في عاصفـة لا نهايـة لها من التراب والرمال .. إلى أن وصلنـا أخيرًا إلى قرية صغيرة يقال لهـا «الخضر»، وهي قرية عشـائرية تقع على الضفة الغربيـة لنهر الفرات، وقد كان لها دور مشـهود به أثناء الثورة على الاحتلال البريطاني عام ١٩٢٠ عندما بدأت العشـائر السـاكنة في هذه المنطقة بتخريب خطوط سـكة الحديد والتلغراف ولم يستطع جنود الاحتلال أن يتصدوا لهم فانسـحبوا صاغرين. ويعد فخذ الخضر في منطقة الموصل امتدادًا لفخذ المكن في سوريا رأس العين. وقد تكاثر فخذ الخضر هنا إلى ما يقارب ٧٥ عائلة يسكن أكثرهم محافظة الموصل في منطقة حي الثورة وباب سنجار ووادي العين الشمالي وحي الصحة وحي الحدباء ومناطق أخرى متفرقة.

هنا ترجل أبو نور مصطحبًا إيانا إلى غرفة منفصلة قائمة بذاتها إلى جوار ما أكتشف الآن أنه منزله. كانت إشـارة الهاتف الخلوي شـبه منعدمة، لكن أبو ليث اسـتطاع بعد

محـاولات حثيثة أن يلتقط إشـارة نحو رقم في بغداد مسـتخدمًا واحـدًا من البطاقات الرقميـة الكثيـرة التي يحتفظ بها أبو نور. أحدهم إذًا، كمـا نفهم من ذلك المصدر في بغـداد، سـيكون في انتظارنا غـدًا صباحًا علـى قارعة الطريق كـي يصطحبنا من منزل أبو نور إلى بلدة «بيجي» على الطريق من الموصل إلى بغداد.

أنّى لي في تلك اللحظات أن أتخيل نفسـي محتضَنًا في منطقة من العراق صارت بعد أقل من عشر سـنوات حاضنة طبيعية لمن صار تنظيم القاعدة بالنسبة لهم حمامة سـلام.. داعـش؟ الفواصـل بين ما هو مسـلم وما هو مسـيحي، وبين ما هو سـني وما هـو شـيعي، وبين ما هو عربي وما هو كردي، كانت جميعًـا إلى جانب فواصل أخرى حاضـرة أثنـاء هـذه المغامرة الفريدة في كل خطـوة من خطواتها. وأنّـى لي أن أتخيل الآن أن لحظـة من التواطـؤ الإمبريالي في أعقاب الحرب العالميـة الأولى قادت إلى قصـم ظهـور قبائل وعشـائر وأفخاذ علـى جانبي حدود تعسـفية رُسـمت على موائد العشـاءات الفاخـرة فـي لنـدن وباريس، سـتقود بعد نحو قـرن من الزمـان إلى غصة متراكمة تتيح نفسـها ببسـاطة إلى وافد في صورة «داعش» وسط أجواء سياسية محلية وإقليمية معقدة؟

أخطر موقف

احتفظت لنفسي بإحساس بأن ما يحدث الآن لدى هذه النقطة من المغامرة لن يفضي في النهاية إلى إنجاز عظيم يقارن بما يبدو أنه مخاطر أعظم. لدى هذه النقطة على أي حال كان بين يديّ كثير مما كنت أطمح إليه بينما كان ترمومتر الخطر يتجه إلى أعلى في كل خطوة. حتى هذه اللحظة أستطيع أن أعد ثماني حوادث/ صدف كانت أيها كفيلة بما لا تحمد عقباه، وبكل تأكيد -كما هو واضح- سيكون هناك المزيد، وثمة كل احتمال أن يكون أكثر خطورة كلما تعمقنا داخل هذا البلد. ثق بغريزتك واكبح جماح شغفك.

فرضت مقاييسي في حساب المخاطرة نفسها على تفكيري بينما مضينا في طريقنا في الصباح الباكر وفقًا للخطة. لا توجد إشارة هاتفية في طريقنا في هذه المنطقة. يركن أبو ليث على قارعة الطريق. يفتح الباب ويخرج من السيارة بحثًا عن إشارة ربما تكون مختبئة بين طيات الهواء الصحراوي. لا يوجد. يصعد لدهشتي فوق سقف السيارة عسى أن توجد إشارة في طبقة أعلى! كوميديا ساخرة لولا أنها غير مضحكة في موقف كهذا. لقد كان هذا بالنسبة لي ولما عودت نفسي عليه ضربًا من الجنون يخرج سريعًا عن السيطرة بصورة ضارة غير ضرورية. ثم بلغ الجنون بأبو نور مبلغه عندما قادنا إلى صديق له كان قد تعرف عليه في السجن، يقود الآن عصابة لقطع الطريق، عسى أن يسمح لنا باستخدام هاتف الثريا الفضائي الذي يعلم الله من أين

حصل عليه. وبعد مخاطرة كبرى كهذه اكتشفنا أن صديقًا آخر له استعار الهاتف في مهمة لن يعود منها قبل المساء.

يتسرب الوقت الآن من بين أيدينا بينما كنا في أشد الحاجة إلى إقامة اتصال مع دليلنا الجديد قبل فوات الأوان. قدنا أنفسنا على غير هدى إلا من مجرد التخمين والدعاء لأنفسنا بالتوفيق حتى إشعار آخر. يزيد الطين بلة بعد أخرى باضطرارنا للوقوف من وقت لآخر كي نسأل «أولاد الحلال» عن الطرق الفرعية؟ كم إنسانًا يعلم الآن بوجود هؤلاء الغرباء في المنطقة الذين يسألون عن طرق فرعية بطريقة مشبوهة؟ أكثر كثيرًا مما يمكن أن تحتمل حسابات أي رجل عاقل.

نهيم لا نزال على وجوهنا فيستغل رفاق الدرب الفرصة لتعليمي بعض المفردات بالعامية العراقية الدارجة:

● قول: إيش لونك يابا؟

= إيش لونك يابا؟

+ شاكو ماكو؟

= ماكو شي.

● عافية .. عافية.

= مظبوط؟

+ لا تقول: مظبوط .. زين .. قول: زين.

= زين .. زين

● أنت مرتاح؟

= مرتاح

● لا، لا، قول: الحمد لله

= الحمد لله

أخيرًا تطوع رجل بدا شـهمًا فاستل بندقيته الكلاشينكوف وقاد سيارته اللاندروفر العتيقـة المتربـة أمامنـا إلـى أن وجدنا أنفسـنا فيمـا بدا لـي أعماق أعمـاق الصحراء. هذه منطقة، كما هو واضح، لا تمر بها روح اللهم إلا ربما كل عام، فماذا إذًا بسيارتين في آن معًا؟

فجأة، سمعنا أزيزًا يشبه أزيز طائرة هليكوبتر. سمعناه يقترب منا. التفتّ إلى حيث ظننـت أنه مصدر الصوت، لكنني لـم أر شـيئًا بينما يسـتمر الصـوت في الاقتراب أكثر وأكثر. أدركت لأول وهلة أن طائرة في الغالب تطير على ارتفاع منخفض وأنها ستنبثق فجـأة في أي لحظة من وراء التلال. تجمد رجل الكلاشـينكوف بسـيارته اللاندروفر أمامنـا فتجمدنا خلفـه. «ماحدش ينطق ولا كلمة ولا حركة خالص». هتفت بهم بينما سـلمت أمري إلى اللـه. كتم رفقاء المصيـر في هذه اللحظات أنفاسـهم. من مقعدي فـي الخلف لم أسـتطع مقاومة أن أدير بؤبـؤ عيني في اتجاه مصـدر الصوت. تصاعد الصـوت الآن كثيفًـا مروعًا، ثم فجـأة انبثقت طائرتان أدركت مباشـرة أنهما من طراز «بلاك هوك»، واحدة في ذيل الأخرى، وخلفهما مباشرة عن يمين وعن يسار طائرتان أخريان من طراز «أباتشي».

فـي هذه اللحظة اختطف عُدي أذني هامسًـا: «أنا أعلم هذا التشـكيل، أعلم معنى هذا التشكيل؛ أكو شخصية مهمة». نهرته: «ششششششش»، بينما عيناي لا تزالان هناك وفكرة واحدة تسيطر على ذهني: قذيفة واحدة ونكون جميعًا خبر غد وتاريخ بعد غد.

ثـوانٍ معدودات تتجمد الآن أمام ناظريّ كأنهـا دهر. انبثاق الطائرات الأربع فجأة مـن وراء التـلال وهـي تطير على ارتفـاع منخفض لا يتجـاوز نحو عشـرة أمتار يدفع فكـرة إلى ذهني بدت مطمئنة لكنها سـرعان ما زادت من القلـق: يطيرون على ارتفاع منخفـض لتقليـل فرص أن يراهم أحد مـن بعيد؛ فهم إذًا مثلنـا خائفون. تطمئن لأول وهلة حين تخمن أنهم ربما يكونون مثلك خائفين، وسـرعان ما يتضاعف قلقك حين تدرك أن الخوف ربما يدفعهم إلى فعل أي شيء اتقاء أي احتمال في لحظة من الذعر. شـريط من ثوانٍ معدودة أشـاهده الآن بالسـرعة البطيئة وهم يطيرون فوقنا من اليمين

إلى اليسار ونحن في السيارة نناقش القدر وبؤبؤ العين ملتصق في حركته بتطور حركة قائد إحدى الطائرات.

تلاوة القرآن سرًّا تفرض نفسها تلقائيًّا والتسليم بقضاء الله، فماذا عساك تفعل إن قرر ذلك الطيار، ذعرًا منا أوغير ذلك، أن يضغط على زر إطلاق قذيفة واحدة من طائرة كهذه من ارتفاع كهذا؟ عُدي يحاول أن يطمئن نفسه بتمتمات لا أفهمها وأنا أرد بصوت مستريح مشجع: «إن شاء الله، إن شاء الله». إنهم يمرون فوقنا تمامًا الآن.. فوق سطح السيارة.. لا نراهم لوهلة.. إنهم ينبثقون مرة أخرى من الناحية الأخرى.. نراهم الآن مرة أخرى.. تحمد الله.. ثم تحمده كثيرًا كثيرًا في كل جزيء من برهة من ثانية وهم يستمرون في الطيران.. بعيدًا.. ثم بعيدًا بعيدًا.. ثم ران على رؤوسنا جميعًا صمت عميق صارخ.

«...» كلمة غير مهذبة من ثلاثة حروف بالعامية المصرية انفجرت فجأة من فمي دون كثير من الوعي، مع جملة كانت هذه المرة أمرًا مباشرًا أكثر من أي شيء آخر: «لف بالعربية، إحنا راجعين». بُهت أبو ليث الذي لم يكن قد أفاق بعد من الصدمة فتحرك بالسيارة حركة الإنسان الآلي عائدًا الأدراج. حتى رجل الكلاشينكوف الشهم لا أذكر إلى الآن إن كنا شكرناه على مجهوده.

نقطة التحول

بعـد نحو عشـرين دقيقـة توقفنا لدى أحـد المحال التـي تبيع وقود السـيارات في براميل بلاسـتيكية صغيرة. هبط أبو نور لشـراء واحدة فاقتنصت الفرصة لحديث جاد مـع أبو ليث. أمسـكت به من كتفه برفق وقلت لـه بصوت هادئ: «أعلم أن مهمتك أن تسـلمنا آمنيـن إلى دليلنا القادم، أعلـم ذلك، ولكنني أعلم أيضًـا أنك مهرب محترف تشـم رائحة الخطر من على بعد أميال». طأطأ الرجل رأسـه مستسـلمًا بينما واصلت الحديـث: «انظـر إلـى وجهي .. ضـع عينيك في عينـيّ وقل لي الآن بربـك أين تضع مسـتوى الخطورة في هذه اللحظة على مقياس من واحد إلى عشـرة؟» رد أبو ليث في نبرة منكسرة وهو يسحب عينيه مرة أخرى إلى أسفل: «مو أقل من سبعة».

هكـذا بـدأت أكسـب الرجل، على مسـمع من عُـدي، نحو قـرار اتخذتـه بصورة حاسمة ولم أكن مستعدًّا لأن تثنيني عنه أي حجة. «خلاص .. زي ما جينا زي ما نرجع حالًا»! سـيطر على الرجـل فجأة خليط متنافر من التفهـم والرفض والجزع والخوف والاسـتعطاف في آنٍ معًا: «لكنك لا تدري ماذا سـيفعلون بي؟» ثم صمت قليلًا وهو يتأكد من نظرة انتباه وشغف في عيني قبل أن يوضح في إحساس بائس: «سيحولونني إلى محكمة شـرعية». هذه إذًا هي القواعد لديهم، ولا بد لي من احترامها، ولا بد لي من تقديم كل شيء في وسعي لحماية رجل سهر على حمايتنا بقدر ما أوتي من معرفة وإدراك دون أن يؤثر هذا في قراري. «لا تخف يا أخي، سأتحدث إليهم بنفسي، وإلى أي أحد تريدني أن أتحدث إليه».

لدى عودتنا إلى منزل أبو نور في قرية «الخضر» كانت مفاجأة ظريفة في انتظارنا. نقلت الأنباء أن وزير الدفاع الأمريكي، دونالد رامسفيلد، قام اليوم بزيارة سرية إلى إحدى القواعد العسكرية الأمريكية في شمالي العراق. كان هو إذًا بشحمه ولحمه فوقنا بعشرة أمتار. يا للهول!

لم أكن أعلم وقتها أن القدر كان يخبئ لي موعدًا آخر أكثر غرابةً وأكثر «حميمية» مع من كنت، ولا أزال، أعتقد أنه حية رقطاء تفننت في صعود الشر على جانبي الكرة الأرضية. فبعد ذلك بأقل من عام ونصف العام، تحديدًا في سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٧، كنت مدعوًّا إلى مؤتمر ضخم في مدينة أسبن في ولاية كولورادو الأمريكية. كانت قائمة المدعويين مذهلة وهي تضم أكثر من مائة من كبار صناع السياسة والاقتصاد والثقافة والإعلام والفن والرياضة والتكنولوجيا في الولايات المتحدة والعالم.

من بين هؤلاء على سبيل المثال دونالد رامسفيلد (الذي كان عندئذ قد دُفع دفعًا إلى الاستقالة من منصب وزير الدفاع)، وكولن باول (الذي كان عندئذ قد تطوع بالاستقالة من منصب وزير الخارجية معتذرًا عن فضيحة التغرير به في الطريق إلى غزو العراق)، والجنرال جون أبي زيد (الذي كان قد انتهت للتو مهمته قائدًا للقيادة المركزية للجيش الأمريكي)، وجورج شولتز (وزير الخارجية الأمريكي الأسبق)، والملكة نور (عقيلة العاهل الأردني الراحل)، وبنظير بوتو (رئيسة وزراء باكستان العائدة إلى الأضواء والتي اغتيلت بعد ذلك بثلاثة أشهر)، وإيريك كاندال (الحائز على جائزة نوبل في طب الأعصاب)، إضافة إلى عدد مهول من كبار المسؤولين الأمنيين وأصحاب ومديري كبريات الشركات والمؤسسات ومراكز البحث ورؤساء التحرير والنافذين في مواقع مختلفة.

كان دوري على مرأى من هؤلاء جميعًا أن أشترك في ندوة يديرها المذيع الأمريكي الأشهر، تشارلي روز، الذي حاور الرئيس المصري الأسبق حسنى مبارك تسع مرات كانت آخرها قبيل خلعه بأسابيع، مثلما حاور الرئيس الحالي، عبد الفتاح السيسي، أثناء زيارته إلى نيويورك بعد ذلك بسبع سنوات. كان عنوان الندوة «حرب الأفكار: الإسلام الأصولي في الداخل والخارج»، وقد اشترك في المناقشة إلى جانبي كل

مـن فيليـب مد، نائـب مدير شـعبة الأمن القومـي في مكتـب التحقيقـات الفيديرالي (إف بي آي)، وفؤاد عجمي، مدير برنامج دراسـات الشـرق الأوسط في جامعة جون هوبكينـز، وسـتيفن إميرسـون، مؤلف كتاب «اتحاد شـركات الجهاد: دليل الإسـلام المتشدد في الولايات المتحدة».

وكان من الواضح أن صوتي كان نشازًا بين أصوات لا ترى لما يحدث حلًّا سوى القوة. فبينما كنت أدعو إلى إسـتراتيجية أكثر شمولًا لا تهمل القوة على أي حال على المـدى القصير وهـي تحاول فهـم الآخر وتسـتبين الفواصل بين الأطيـاف المتعددة للإسـلام السياسـي علـى المدى المتوسـط وصولًا إلى عالـم أكثر عدالة فـي التعليم والاقتصاد على المدى البعيد، جلس كولن باول متواضعًا بقميص متواضع في الثلث الأخيـر بين الجمهور، بينما جلس دونالد رامسـفيلد أمامي مباشـرةً في الصف الأول منتفخًا، وعلى بعد ثلاثة مقاعد منه في الصف نفسـه جلس جورج شـولتز. لم أسـتبن ردود فعل باول، لكن التذمر على وجه رامسـفيلد كان يزداد تدريجيًّا فيما كان شـولتز حريصًا على إقامة اتصال بصري دائم معي كلما أمكنه وهو يومئ مشجعًا.

لـم يكـد تشـارلي روز يعلن انتهاء النـدوة حتى قفز رامسـفيلد فـي اتجاهي وملء وجهه ابتسـامة صفراء قبل أن يهمس في أذني: «توقفوا عن التحريض على العنف!». لم أصدق أذني لكنني رددت ابتسـامته بابتسـامة أقبح: «شـكرًا لك على أي حال على ما قـام بـه رجالك أمس مـن أجلي»، بينمـا أنقذتني في تلك اللحظـة الملكة نور وهي تشدني من ذراعي برفق: «شكرًا لك بالحروف العريضة (كابيتال ليترز)».

في اليوم السابق كنت قد وصلت إلى مدينة أسبن بعد رحلة طويلة أثرت على نظام الذهن والجسـد. ذلك، إضافةً إلى انخفاض مسـتوى الأوكسـيجين بصورة ملحوظة نظرًا لارتفاع المدينة عن مستوى سطح البحر بنحو ٨٠٠٠ قدم (٢٤٠٠ متر) ومعاناتي منـذ صغري من انخفاض ضغط الدم، جعلني وأنا أحضر حفل الاسـتقبال واقفًا على قدمي طول الوقت أشعر بتدهور مفاجئ في الدورة الدموية. استندت إلى أقرب مقعد ولا أدري ما حدث بعد ذلك.

أرى الآن في صور باهتة مشوشة حشدًا من الوجوه تتدلى فوق رأسي. أنا إذًا ممدد علـى الأرض. كـم صار لي وأنا هكذا؟ قال أحدهـم إن دقيقة أو هكذا مرت منذ غبت عن الوعي بينما يمنعني برفق من النهوض. «استرح .. رأسك لا بد أن يبقى في مستوى أقل من قدميك .. ذهنك يحتاج إلى دم». ثم قالت أخرى: «قدمنا لك إسـعافات أولية وضغطك الآن بدأ يعود إلى مستوى مقبول، والنبض أفضل». كانت هذه التي تمسك رسـغي بإحدى يديها وتمسك جبهتي بيدها الأخرى هي الدكتورة جولي غيربيردينغ، مدير مراكز منع الأمراض والسيطرة عليها على مستوى الولايات المتحدة كلها. ومن يكـون الآخـرون؟ ردت وهي تدلك جبهتـي: «هؤلاء جزء من الفريـق الطبي المرافق للوزير دونالد رامسفيلد».

انتفضـتُ على قدمـي كمن لدغته حية رقطاء مصرًّا علـى النهوض فأجبروني على الجلوس على مقعد كحل وسط. «أشعر بتحسن كبير، انتهى الأمر، شكرًا لكم». لكنها أصرت بدورها على أن سـيارة إسعاف مجهزة في طريقها الآن لنقلي إلى المستشفى. لم تفلح مقاومتي؛ فلم أكن أشعر بتحسن كبير ولـم يساعدني خبر أطباء رامسفيلد على التحسـن على الإطلاق. كيف بحق السـماء يمكن أن يصدر خيـر عن ذلك الذي كان في مكتبه داخل وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) صباح الحادي عشر من سبتمبر/ أيلـول ٢٠٠١ يشـخبط في ورقة أمامـه ثم يكتب هذه الكلمات: «بـن لادن.. صدام.. اسـأل وولفوفيتـس؟» هكـذا انتقلت هـذه المعلومة إلـي عن طريق صديقـي الكاتب الأمريكي الرصين، بيتر بيرغن، القريب من دوائر صنع القرار.

اسأل وولفوفيتس

كان قطب الصهيونية السافر، بول وولفوفيتس، وقتها نائبًا لرامسفيلد، ويشير سياق التطورات داخل البيت الأبيض، في الساعات التي أعقبت الهجوم على واشنطن ونيويورك، إلى أنه هو الذي دفع أساسًا في اتجاه اقتناص الفرصة لغزو العراق. في كتابه الشائق، «ضد كل الأعداء: داخل حرب أمريكا على الإرهاب»، يشرح الرجل الذي كان يشد شعره لسنوات تحذيرًا من القاعدة، ريتشارد كلارك، الذي كان وقتها مستشار البيت الأبيض لشؤون مكافحة الإرهاب، كيف فوجئ بموقف الرئيس، جورج بوش الصغير، عندما لاحظ أن هذا الأخير بدأ يتبنى موقفًا غريبًا.

مساء الثاني عشر من سبتمبر/ أيلول، بينما كان كلارك غارقًا في محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه عبر الفيديو كونفرانس مع المسؤولين عن المواقع الحساسة في أمريكا، جذبه بوش مع بعض معاونيه بعد اجتماع أزمة نحو غرفة في البيت الأبيض وأغلق الباب. «أعلم أنك مشغول إلى آخر ذلك .. ولكنني أريد منك بأقصى سرعة أن تراجع كل شيء، كل شيء. ابحث لعلك تجد أن صدام هو الذي فعل هذا. ابحث عن أي علاقة له بما حدث بأي شكل من الأشكال».

= «ولكن، سيادة الرئيس، القاعدة هي من فعل هذا»!

• «أعلم هذا، أعلم هذا .. ابحث لعلك تجد أن صدام كان متورطًا. فقط ابحث. أريد أن أعرف كل تفصيلة».

= «حاضر، سنبحث .. مرة أخرى .. ولكنك تعلم أننا بحثنا مرات عديدة في احتمال رعاية أي دولة للقاعدة ولم نجد أي رابط مع العراق. ربما أدت إيران دورًا إلى حد ما مثلما تفعل باكستان والسعودية واليمن».

- «انظر في أمر العراق، صدام»!

بعدما غادر الرئيس فغرت إحدى مساعدات كلارك فاها غير مصدقة وتمتمت: «يا إلهي! لقد تمكن منه وولفوفيتس»[1].

شريط يمر بخاطري في سياق موقف غريب الشأن كهذا في دقائق معدودة كانت كافية لوصول سيارة إسعاف مليئة بأجهزة معقدة في طريقي إلى مستشفى مليء بأجهزة أكثر تعقيدًا. لنحو خمس ساعات، أخضعوني لفحوصات متنوعة على الرأس والصدر والقلب والدم والأعصاب إلى أن قرروا أن حالتي تسمح بالعودة إلى الفندق. عندما أدخلوني إلى غرفتي لاحظت أن هواءً طازجًا ينبعث من مكان ما. كان هذا في الواقع جهازًا لتوزيع محتوى أسطوانة أوكسجين كبيرة في أنحاء الغرفة. من أين أتى؟ عاجلني أحدهم: «إنه الجهاز الخاص بالسيد دونالد رامسفيلد، وهو يتمنى لك صحة جيدة»!

سكنت قرية «الخضر» هدوءًا في تلك الساعة المتأخرة من ليل إبريل/ نيسان ٢٠٠٦ فترامى إلى سمعي واضحًا، وأنا في الغرفة الآمنة بجوار منزل مضيفنا المحلي أبو نور، صوت زميلي ورفيق الدرب، عُدي، متهدجًا. كان خارج الغرفة على الهاتف مع أحدهم، خمنت أنه ربما يكون أبو ثائر، المنسق الأصلي لهذه الرحلة كلها في طريقنا إلى أمير الجيش الإسلامي في العراق الموجود في مكان ما في بغداد أو بالقرب منها. أزعجتني جملة بعينها رددها عُدي أكثر من مرة وهو يكاد يبكي: «لا يمكن أن تفعل هذا بنا .. لا يمكن أن تفعل هذا بنا يا شيخ!».

التقط أبو ليث الهاتف عندئذ من عُدي الذي عاد إلى داخل الغرفة وهو يمسح عبرة من على خده وهو يتخذ موضعًا بعيدًا متجنبًا النظر إلي بشكل مباشر. كان من

(١) Richard A. Clarke, Against All Enemies: Inside America's War on Terror, Simon & Schuster UK Ltd, 2004, P 32.

الواضح، كما فهمت بعد قليل، أن رجل بغداد كان لا يزال مصممًا، رغم علمه بكل ما أحاط بنا في الرحلة، على أن نستمر في طريقنا نحو العاصمة. واقعًا الآن تحت ضغط شديد، دخل أبو ليث متجهمًا عاجزًا وهو لا يزال يحمل الهاتف، موجهًا حديثه إلي: «إنه يريد أن يتحدث إليك».

من خبرتي الطويلة في التعامل مع أخوة وأصدقاء وزملاء من جنسيات عربية مختلفة، كنت أعلم أن خطًّا رفيعًا دقيقًا يمكن أن يشكل الفارق بين أن يكون عراقي وليًّا حميمًا لك أو أن يكون أعدى أعدائك. ثمة استثناءات بكل تأكيد كما هو الحال في أي مكان آخر ولكن، بشكل عام، تاريخيًّا ونفسيًّا، فإن لدى العراقيين ذلك المزيج المتناقض الذي ربما يجعلهم أكثر العرب دموية وأكثرهم رومانسيةً في آنٍ معًا، اعتمادًا على عوامل كثيرة.

بالنسبة لكل من أبو ثائر وأبو ليث ومن معهما، في موقف كهذا، كان الأمر يتلخص، وفقًا لرؤيتي، في مفهوم الكبرياء: كيف يمكن أن يسمحوا لأنفسهم بالفشل أمام ضيف مثلي بغض النظر عن أي ملابسات أو أي مخاطر؟ كان هذا هو المفتاح الذي حاولت استخدامه أثناء تلك المكالمة الهاتفية، لكنه مفتاح في منتهى الحساسية بالنسبة لعراقي عربي بدوي. وعلى قدر اجتهادي في محاولة نزع «الإحساس بالفشل» وتوطيد «الإحساس بالإنجاز» لم يكن يبدو إلى السيطرة على مشاعر أبو ثائر سبيل على الهاتف.

غيرت إستراتيجيتي في سبيل إقناعه إلى دعوة مهذبة لتقدير حساباتي فيما يتعلق بميزان «المخاطرة في مقابل المكسب»، لكنه لم يكن ليهتم. قصصت عليه جانبًا من تجربتي السابقة مع أعضاء تنظيم القاعدة في باكستان -التي أعلم كم هو مفتون بها- لكنه لم يكن ليتفهم. دعوته إلى النظر إلى كل هذا الذي أنجزناه حتى الآن، لكنه لم يكن ليستمع.

وواقع الأمر أننا، لدى تلك النقطة، كنا قد استطعنا الحصول على مادة فيلمية وعلى تجربة فريدة وعلى معلومات مباشرة تسمح لي جميعها بإنتاج تحقيق استقصائي جيد. لحظة كهذه تمر على كل إنسان في أي مجال مرة واحدة على الأقل في حياته حين

يطرح القدر أمامه ضرورة اتخاذ قرار حاسم أقرب ما يكون إلى الإجابة عن السؤال النمطي في مسابقة «من سيربح المليون». القرار قرارك: «تكتفي بما أحرزت حتى الآن وتعود به إلى بيتك؟ أم تقامر به لعلك تحصل على المزيد؟» والذي يجعل موقفًا كهذا أكثر حدة في حالة صحفي استقصائي أن «المقامرة» - التي يراها بعض المبتدئين شجاعة في المطلق - لا تقتصر عند الفشل على مجرد خسارة ما تم الحصول عليه، بل إن ثمنها في أحيان كثيرة قد يكون أكثر فداحة.

وكانت حساباتي لدى تلك النقطة تشير إلى أن أي خطوة أخرى على طريق «المزيد» في هذه الظروف تتجاوز مخاطرها بكل تأكيد حجم القيمة المضافة التي يمكن أن تنتج. بعبارة أخرى، لن تكون غير ضرورية وحسب، بل ستقترب من كونها ضربًا من الجنون.

بدأت المناقشة على الهاتف تتخذ اتجاهًا كنت أجهد في أن أتجنبه. ارتفع منسوب التوتر بينما زادت المقاطعات أثناء محاولات مستميتة للإقناع والإقناع المضاد. ثم صرخ الرجل بنبرة متأثرة مستنكرة لا تخلو من كبر: «أنا آتي لك بالرجل الكبير وأنت تريد أن تلقي بي إلى محكمة شرعية؟!». ثم سرعان ما تطورت هذه النبرة إلى نبرة مهددة ندم عليها كثيرًا بعد ذلك: «إذا أصريت على العودة بعد ذلك كله فأنت وحدك؟» ما الذي يعنيه ذلك تمامًا وأنا مغروز في أعماق العراق تحت الأرض؟ «ستعود وحدك.. لا دليل ولا سيارة ولا حماية ولا تنسيق .. إذا استطعت أن تعود».

الأزمـة

بُهت الرجل عندما عاجلته بالرد دون تفكير وفي نبرة هادئة: «حسنًا .. موافق، وأشكركم على كل ما قدمتموه لنا حتى الآن». زادت حدة الرجل فاتخذ خطوة أخرى.

● «والشرائط .. تترك الشرائط وكل ما صورتموه .. تتركها جميعًا وراءك».

= «لا بأس .. رغم أن هذا ليس من حقك، ولكن لا بأس».

لم يصدق عُدي أذنيه فبادرني بالسؤال فور انتهاء المحادثة: «الشرائط؟ هل حقًّا ستترك الشرائط لهم؟» زادت دهشته عندما أومأت له إيجابًا في غير كثير من الاكتراث، لكن دهشته بدأت بعد قليل تتحول إلى نوع من الإعجاب. «اسمح لي أن أحييك يا أستاذ .. أنت الوحيد بيننا الذي يعتبر غريبًا على هذا البلد ورغم ذلك أنت الوحيد الذي يقف ثابتًا على قدميه .. أكاد أشعر بالعار!». لم يكن سهلًا على عراقي أبدًا أن يقول عن نفسه كلمة كهذه، فما بالك بعُدي؟ لكنني كنت أنظر إلى المسألة كلها من منظور عملي بحت لا علاقة له بكبرياء أو ببطولة. كنت أعلم في سريرتي أن أيامًا قليلة لن تمر قبل أن تهدأ النفوس فتتيح مجالًا أوسع أمام العقول. وحين يحدث هذا ستُعاد الحسابات وسيسعون هم إلى إيجاد وسيلة لتوصيل الشرائط إلى أي عنوان نختاره نحن، ربما أيضًا مع اعتذار واجب والتماس بإكمال عملية إنتاج التحقيق بما نراه مناسبًا.

أما وقد وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه انقلب الرأي العام في ذلك المنزل الآمن بشكل واضح إلى جانبي. «سأصطحبكما في صباح الغد إلى النقطة التي

التقطتكما منها أول مرة في سوريا حتى أطمئن على وصولكما بالسلامة»، هكذا تطوع أبو ليث وأنا أعلم أنه يعلم أن تصرفًا كريمًا كهذا ربما يكلفه حياته. ثم انضم أبو نور إلى ما صار الآن يحمل جانبًا من ملامح الثورة: «وأنا سأتأكد من خروجكما من هنا حتى منطقة الحدود سالمين مهما كلفني الأمر». انفرجت أسارير عُدي وهو يستعيد ابتسامته الطفولية العذبة لأول مرة منذ وقت بعيد: «هذه المرة سنسافر درجة أولى وإلا فلا». ثم فجأة طلب مني أبو نور أن أنتحي معه جانبًا قبل أن يهمس في أذني: «ابحث عن طريقة لعمل نسخة من الشرائط وسأجد أنا طريقة للشرائط الأصلية كي تصلك بسرعة ربما قبل عودتك إلى لندن».

في بحر خمس دقائق لا أكثر، رأيت وجهين للعراق ولمست نسيج الروح العراقية. لم يكن لدي شك من قبل، لكن اعتقادي يتعزز الآن بأن العراقيين - حتى إذا دُمرت بلادهم على بكرة أبيها ونزفوا هم من كل ناحية - لن يقفوا مكتوفي الأيدي حتى إذا قرر الأمريكيون أن يتركوا بلادهم إلى جار عربي آخر. في إجابة بلغتني لاحقًا على أحد أسئلتي، يقتبس القائد العسكري لتنظيم الجيش الإسلامي في العراق عن رسول الله محمد، ﷺ، فيما معناه أن العراق سيقع تحت الحصار وأن الشام سيقع بعده تحت الحصار، كي يخلص إلى ارتباط الداخل بالمحيط. «ربما يجرب الأمريكيون حظهم في مكان آخر؛ فهم مشوشون في سياستهم .. أما نحن فإننا نتعامل مع كل شيء وفقًا للشريعة؛ فإذا استنصرنا أحد في الله فإننا ننصره».

لدى القاعدة وشبيهاتها على أي حال أصدقاء ومتعاطفون كثر في بلاد الشام. بعضهم سيتحول بعد ذلك إلى حلفاء، سرًّا أو علنًا، وبعضهم سيكون جزءً لا يتجزأ من التنظيم. أحد الحقول الطبيعية للإخصاب تقبع في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين التي تجاوزت أحوالها من التردي بكثير الحدود الدنيا لأي معايير إنسانية. في ظل حياة بائسة وآمال ضائعة في مخيمات دول الطوق المحيطة بالإسرائيليين في بلاد الشام يشكل مئات الآلاف من هؤلاء أهدافًا سهلة للتجنيد.

خذ على سبيل المثال مخيم عين الحلوة في لبنان الذي يؤوي نحو ٨٠ ألف روح (وقتها، عام ٢٠٠٦) يتكدسون طبقات فوق طبقات في مساحة لا تزيد على

ميل واحد مربع. هو في واقع الأمر دولة أخرى داخل الدولة اللبنانية، يحكمها ويديرها رجل خارج عن القانون بحكم محكمة أردنية. منير المقدح مقاتل فلسطيني شرس شارك عام ٢٠٠٠، في غمار رحلة عمر طويلة مع المقاومة المسلحة، في تأسيس «كتائب شهداء الأقصى» كجناح عسكري لحركة فتح بأمر مباشر من الزعيم الفلسطيني الراحل، ياسر عرفات. في ذلك العام نفسه، أصدرت محكمة أردنية حكمًا غيابيًّا بإعدامه بتهمة تدريب مجموعة من أتباع أسامة بن لادن الذين كانوا يخططون لتفجير عدد من الأهداف الإسرائيلية والأمريكية في الأردن. وبعد خمس سنوات، عام ٢٠٠٥، أُعلن هذا التنظيم تنظيمًا إرهابيًّا من قبل الإسرائيليين والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وكندا واليابان.

كيف التقى صاحب الفكر اليساري المتشدد بصاحب الفكر اليميني المتشدد؟ هناك ما يثير مزيدًا من الدهشة التي تفتح مجالًا أرحب للفهم. شريد هو الآن في مجتمع مغلق على نفسه، لا يغادر حدود المخيم لأسباب واضحة، ومن ناحيتها لا تستطيع السلطات اللبنانية اقتحام حدوده. لديه حرية الحركة في أزقة المخيم، وهي تكفيه؛ فعلى مدى سنوات طويلة يستمر في الإشراف على دورات تدريبة عسكرية مر من خلالها عدد ضخم من الشباب، من داخل المخيم ومن خارجه، حتى هو لا يستطيع إحصاءه. يبدو هو الآن لمن يلتقي به وقد اكتسى وجهه بكثير من التجاعيد وانحنى ظهره قليلًا، لكنه في انضباطه وحزمه واتقاد ذهنه لا يزال يبدو وكأنه في منتصف العمر.

لكن الاختلاف الأكثر وضوحًا، الأكثر إثارة للدهشة لأول وهلة، هو في ميله الواضح الآن إلى أفكار كتلك التي يحملها أسامة بن لادن، ومن أبرزها انعدام الحدود بين أراضي الإسلام. بعد عمر طويل، بلغ كُفر خريج مدرسة فتح بالأنظمة العربية في مواجهة الإسرائيليين حدًّا صار معه لا يؤمن الآن بالحدود. يتباهى أمامي بأن «كثيرًا من المتطوعين للجهاد في العراق خرجوا من مخيمات فلسطينية. معظمهم يأتي من دول أوروبية، أو أنهم على الأقل يحملون جوازات سفر أوروبية. يذهبون إلى هناك من أجل المقاومة، وهذا حق طبيعي مثلما يأمرنا نبينا محمد، صلوات الله

عليه وسلامه، بأنه إذا احتُل شبر من أرض المسلمين وجب القتال على كل مسلم.. يصبح الجهاد فرض عين».

في بيئة فقيرة معدمة أينما التفتت عيناك، أثبت المقدح في سياق تجهيز مدارسه التدريبية أنه يمكن أن يكون أكثر «إبداعًا» مما قد يظن به كثيرون. «لدينا برامج (تدريبية) للشبيبة، وقد انتقيت بعض هذه البرامج من المدارس الثانوية الأمريكية التي تعطي دروسًا على السلاح الخفيف. قلت في نفسي «إن الأولى بنا نحن أن نتمسك ببرامج من هذا النوع، فقررت تطبيق نفس هذا البرنامج».

= البرنامج الأمريكي؟

• «نعم»!

= المنهج التعليمي الأمريكي؟!

• «نعم، نعم»!

= ولكن غيرتَ الإنغيل بالقرآن؟!

• «بالضبط، فقط»!

العودة إلى .. فخ

مؤشـرات كثيـرة، هذه مـن أقواها وأكثرها دلالة، على مدى سـهولة انتشـار أفكار القاعدة وما شابهها حتى بين من لم يكن لأحد أن يتوقع أن يميل لها في يوم من الأيام: أحد أبرز القادة العسـكريين في فتح، وهي منظمة علمانية في نخاعها الشـوكي، يؤمن الآن بأن الإسـلام هو الطريق الوحيد الأوحد نحو تحرير فلسـطين. «ولو سـألت أي شـاب من اللي أنا مسؤول عنهم، أوفي المدارس أو المؤسسات، شو صفات الرجال اللـي يحـرروا فلسـطين يقولـوا لك هذه الصفـات: لا يمكـن أن يتم تحرير فلسـطين إلا بقلوب خاشعة لله وأيدٍ متوضئة ووجوه ساجدة».

إن لم يكن هذا كافيًا فإن خطوطًا رفيعة تفصل القاعدة، تنظيمًا وفكرًا، عن جماعات تحت الأرض في مخيم عين الحلوة. من بين هذه الجماعات جماعة «عصبة الأنصار» التي استلفتت نظر الأمريكيين فأضافوها إلى قائمة الجماعات والتنظيمات الإرهابية. ينظر أعضاء هذه الجماعة إلى وسـائل الإعلام بعين الشـك؛ فهي جماعة شـبه مغلقة تنتقي عناصرها بحرص شـديد. بعض هذه العناصر «نال الشـهادة» في العراق، مثلما يؤكد لي أحد أعضائها في لقاء داخل المخيم.

سـاخرًا من فكـرة تلخيص هذا التيـار المتنامي في مجرد «تنظيم القاعدة»، يوسـع الشـيخ أبو يوسـف شـريقات، مؤسـس جماعة «جند الشـام»[1] جوهر الأمر بابتسامة

(١) جند الشام هو تنظيم سلفي جهادي مركزه في مخيم عين الحلوة في جنوبي لبنان، وله وجود في مواقع أخرى من أهمها سوريا، ومن أنشطته مهاجمة المناطق السورية التي يعتمد عليها النظام السوري في تجنيد الشبيحة.

عريضة لا تفارق وجهه: «أتمنى .. أتمنى على الله، عرفت كيف، إنه ما يموتني إلا شهيد. على شو خايف أنا يا أخي؟ خايف م الموت؟ طب إذا مت أنا بانتقل إلى الله عز وجل، والرسول ﷺ يقول إن أرواح الشهداء كطيور خضر تسبح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش. إيش بدي من هالحياة أنا؟ .. يعني بعض الناس قد يظن الآن أن أنا قاعدة وأكتم في نفسي. والله لو كنت قاعدة لأقول. شو هذا؟!.. عم أقولك إحنا والله والله لو مُكّنّا لنفعلنّ أكثر مما تفعل القاعدة. إيش بدهم أكثر. فليسمعوا»!

كانت تجربة العودة من قلب العراق في اتجاه الحدود أكثر خطورة من تجربة الدخول إليه. مع روح معنوية مرتفعة، أخذنا أبو نور عبر طرق تمر ببعض من أصدقائه المحليين الذين كانوا قادرين على تسليمنا من نقطة إلى أخرى في مقابل أجر بالدولار الأمريكي. في أحد هذه المواقف، عرض أبو نور ورقتين (٢٠٠ دولار) على دليل محلي ضخم الجثة جهم الملامح ماكر العينين. نظر هذا إلينا نظرة متفحصة من أعلى إلى أسفل، ثم من أسفل إلى أعلى، ثم هز رأسه مساومًا: «لا، شكلهم يساوون أكثر.. يساوون.. هممم .. خمس ورقات». فجأة تشعر بأنك سلعة تباع وتشترى. لك الآن أن تقرر كم تساوي أمام نفسك، بينما لا تملك حتى رفاهية المساومة ولو لمرة واحدة.

كانت أشبه بمعجزة صغيرة تلك التي حملتنا على جناحيها بصورة غريبة أكثر من مرة عبر دوريات مفاجئة لقوات الحرس الوطني العراقي التي انبثقت فجأة في طريقنا. تزيد لوعتنا ويتضخم القلق، فالوقت يمر سريعًا ونحن نريد أن نلحق بنقطة العبور السرية على الحدود قبل أن يدركنا الظلام. وكأننا كنا في حاجة إلى مزيد من المتاعب، بدأت حبات من المطر تتساقط علينا، سرعان ما تحولت إلى مطر كثيف. وسرعان ما تحولت الطرق الترابية أمامنا إلى معجنة فاضطر أبو ليث إلى تقليل السرعة بشكل ملحوظ بينما كانت السيارة المجهدة تكافح وسط خطر من كل نوع.

تعطلت السيارة أكثر من مرة، بعضها في أماكن لم تكن تثير الحد الأدنى من الإحساس بالأمان. بمرور الوقت سريعًا ونحن هكذا كان من الواضح أننا لن نستطيع أن ندرك تلك اللحظة الذهبية لعبور الحدود قبيل غروب الشمس مثلما فعلنا في رحلة

الدخول. لكننا أخيرًا وصلنا إلى نقطة للعبور غير تلك التي استخدمناها قبل ذلك وإن لم تكن بعيدة عنها.

مرتديًا الجلباب نفسه والحذاء الخفيف نفسه ومرهقًا أشد إرهاق، انضممت إلى رفيقي الرحلة، عُدي وأبو ليث، في وداع حار لأبو نور الذي وفّى بوعده ونحن نبدأ رحلة المشي عبر المنطقة الفاصلة بين حدود البلدين. لم يكن مشيًا في الواقع، بل كان غوصًا ثقيلًا في بحر عميق من الطين الأملس المهترئ بين حشائش طويلة مزعجة. كان مشهدًا عبثيًا ولم تكن بنا طاقة تكفي للاستمتاع به كل مرة يصطك حذاء أحدنا ملتصقًا بما صارت الآن تحت قدمه فجوة عميقة بينما تنبثق قدمه - حين تنبثق بعد جهد جهيد - عارية.

ثم لاحت في الأفق ضالتنا: منزل بدا مهجورًا لدى نهاية المنطقة الفاصلة ينبعث منه ضوء خافت. في فنائه استلقى عُدي على ظهره وهو يطلق صيحة التخلص من كابوس كان يضغط على صدره، بينما كان أبو ليث يقيم اتصالًا هاتفيًّا مع المهرب الأخير. بعد دقائق معدودة وصلت سيارة «بيك أب» صغيرة يقودها شيخ بدوي في عقده السابع بدت عليه أمارات الكرم والشهامة.

كانت الخطة الآن أن يقودنا إلى منزله القريب كي نغتسل ونشرب ونأكل وننام ونصحو نرتدي ثيابًا جديدة قبل أن ننطلق لدى الفجر في رحلة طويلة إلى دمشق. لحظات من التأمل لدى تلك النقطة كانت تدفعني إلى تساؤلات المراجعة التي بدأت مبكرًا هذه المرة. لم أكد أصدق أنني عدت في قطعة واحدة بعد مغامرة كهذه. هل ما عدت به الآن منها يساوي ما أكتشف الآن بعد عملية حساب سريعة أنه كان ١٧ فرصة في أقل من ثلاثة أيام للقتل أو الاعتقال أو الاختطاف؟ إنني لا أملك حتى بين يدي ما ذهبت من أجله: المادة المصورة. صحيح أنني نجحت في إخفاء شريط العبور الأول عميقًا داخل حقيبة الكتف، لكنه شريط واحد من بين شرائط أخرى غالية القيمة تركتها مع أبو نور بعد إصرار رجل الجيش الإسلامي في العراق.

لم تنته القصة عند هذا الحد، بل إن فصلًا مثيرًا فيها كان على وشك أن يبدأ في غضون دقائق معدودة. فبينما انحدر شيخنا بالسيارة كي يلتحق بالطريق الرئيسي في

اتجـاه منزله مزقت أضواؤها الباهتة على مرمى أبصارنـا الآن تلابيب الظلام الدامس فكشـفت عما بدا ثلاثة أشـباح ترتـدي ملابس مدنية، أحدهم يحمـل بندقية آلية يقف على أهبة الاستعداد إلى جانب سيارة شرطة. هذه إذًا هي اللحظة التي قرر حظنا لديها أن يغادرنـا بعـد أن كان معنا في منتهى الكرم على مـدى ثلاثة أيام. فجأة، هكذا، بهذه البساطة، نفد حظنا عند الرمق الأخير دون استئذان؛ فيا لها من طعنة في صميم القلب.

هبطنا، أنا وعدي، من صندوق السيارة الـ «بيك أب» رافعين أيدينا في الهواء تنفيذًا للأوامـر، منضميـن على قارعـة الطريق إلى أبو ليث والشـيخ البدوي. ودون مناقشـة انقـض أحدهـم على حقيبتي الكتف وسـط حركات سـريعة تبعث على الفـزع، بينما كان آخر يفتشـنا جسـديًّا بخشونة ويسـتخرج من جيوبنا كل ما تصادف وجوده. حتى أبي ربما لم يكن ليسـتطيع أن يتعرف عليّ في حالة رثة بائسـة كهذه؛ لحية طويلة غير مهذبة وشعر أشعث أغبر معجون بطين وجلباب قذر وحذاء مهلهل ورائحة لا تطاق. أوقفـت على الفور محاولة خرقاء من عُدي الذي ظن لوهلة أنه يسـتطيع إقناعهم بأننا في الواقع سائحون ضللنا الطريق.

في قبضة المخابرات السورية

اقتادونـا إلى نقطة حدودية للشـرطة صغيـرة. طلبت فورًا أن أتحـدث مع الضابط المسؤول على انفراد؛ فبين أيديهم الآن ما يكفي، ومن الحكمة أن تعترف بما انكشف من أوراق في سياق ما سيطر على أفكاري منذ لحظة القبض علينا. لأكثر من سـبب لم يكن قلقي على نفسـي يضارع بأي شـكل من الأشكال قلقي على عُدي وأبو ليث، خاصـة هـذا الأخيـر؛ فهو أضعفنـا على الإطـلاق. في ظروف غيـر هذه لم أكـن أبدًا لأستغل أو لأن أتباهى أو حتى لأن أكون سعيدًا بما يرتبط بعملي من شهرة ومن نفوذ. كنت، وما زلت، أعتقد أن ذلك باب سهل إلى فساد في كل شيء من الصعب أن يعود منه المرء. ومن حسن ظني أن طبيعتي البحتة تميل إلى الخجل وتقدير الحياة الخاصة إلى حد أنني كنت دائمًا مسـتعدًّا لأن أتعايش مع تفسـير البعض لذلك بأنه كبر وغرور على أن أتعايش مع ما يتطلبه غيره.

لكنني كنت الآن على وشـك أن أكسر هذا المبدأ من أجل ما اعتقدت أنه يستحق. «انظـر إلـى وجهـي مليًّا»، طلبت ممـن أدخلوني إلـى مكتبه وهو جالـس وراءه بوجه جهم زاد جهامة عندما رأى منظري. «حاول أن تتخيله دون لحية». لمحت أمامه على المكتب جواز سفري المصري من بين أوراق وأشياء أخرى كثيرة. من الواضح، بينما اعتلى الشغف ملامحه وهو يحدق في وجهي وتمتد يده إلى جواز السفر، أنه لم يكن قد توقف طويلًا أمام اسـم رياعي كُتب له في خانة الوظيفة: «مدرس في كلية الإعلام جامعة القاهرة سابقًا».

انفرجـت عينـاه فجـأة وهـو يـراوح النظر كبندول سـاعة علـى حائط بيـن وجهي وبيانات جواز السـفر، ثم وقف على قدميه وعلى وجهه علامات الاكتشاف أكثر منها علامات التقدير. «يا ١٠٠ أهلا وسـهلا .. يا مييييت أهلا وسـهلا»! لـم يكن يعنيني في لحظة كهذه أنه ربما لـم يكن يعني ذلك الشـلال الذي أمطرني به من كلمات الترحيب قبـل أن يلتف حـول المكتب لمصافحتـي ودعوتي إلى الجلوس قبل أن يسـألني ماذا أود أن أشرب.

مـن بعـض الخبـرة فـي مواقف كهـذه، كنت أعلـم أن رجـلًا كهذا لم يكن سـوى حلقة أولى في سلسـلة، طالت أوقصرت، سـتنتهي عند مسـتوى أرفع تتم لديه تسوية الأمـور. السـؤال فـي ذهني كان: عند أي مسـتوى مـن الارتفاع؟ وبـأي ثمن؟ وكنت أعلـم أنه بعـد قليل من جمـع المعلومات الأولية سيسـتأذنني في إنهـاء ما يخصه من إجـراءات (واتصـالات هاتفية بـكل تأكيد) بعد أن يطلب مني بصـورة مهذبة أن أعود إلى غرفة الاستقبال.

كان القلق الشـديد قد ألـم بأوجه عُدي وأبو ليث وذلك الشـيخ تعيس الحظ عندما تعلقت أبصارهم بي إذ خرجت من مكتب الضابط المسـؤول. أجلسـني أحدهم على مقعـد بعيـد عنهـم وأنا أمـر في كل خطوة بألف سـؤال وسـؤال فـي نظراتهم. صمت رهيب. جلسـت. جـال بصري بأركان الغرفة أحاول اسـتيعاب الأجواء النفسـية التي سـيطرت عليها صورتان لحافظ الأسد وبشار الأسد، وأستجمع ثقة لا بد أنهم جميعًا فـي حاجة إليهـا الآن ربما أكثر مـن حاجتي أنا إليهـا. «وحّـدوووه»، هتفت بهم على طريقة عادل إمام بابتسامة ساخرة، فانتشى عُدي فجأة وهو يرد: «لا إله إلا الله»، بينما تبادل أبو ليث والشيخ نظرة استعجاب قبل أن ينضما إلى عُدي.

رفعت صوتي كي يسـمعه واضحًا ذلك الرجل فـي نهاية الغرفة الذي من الواضح أن عينيـه وأذنينـه كانـت معنا. «كله تمام .. شـوية اتصالات وإن شـاء اللـه خير». أتي أبو ليث بحركة غريبة عندما وضع رسـغًا فوق رسـغ بطريقة متقاطعـة بينما كان يومئ إلـى نفسـه ويلتفت إلى الشـيخ. فهمت مـن هذا أنه كان يخشـى أنهم سيحبسـونهما. «اطمئـن يا شـيخ؛ إحنا كنـا بنعمل موضوع صحفي مـا إلو علاقة بسـوريا»، قلتها وأنا

أتعمد أن أنقل القلق إلى رقيبنا عندما قمت في اتجاه المقعد المجاور لعُدي بحجة أن شعيرة تسربت إلى داخل عيني. صدقني عُدي وهو يجهد في البحث عنها. التصقت أذنه بفمي أوكادت فهمست له سريعًا: «أنت لا تعلم شيئًا عن أي شيء؛ أنت مجرد مساعد وأنا المسؤول». لحسن الحظ وجد عُدي فعلًا شعيرة في عيني فعدت إلى مقعدي مرتاحًا.

نقل عُدي بعد ذلك ما قلته له للآخرين قبل أن يخرج إلينا الضابط المسؤول. «شرّف، شرّف أستاذ، شرّفوا»، وهو يشير بيده إلى باب الخروج. سألته إلى أين فقال إنه سيصطحبني أنا وعُدي وأبو ليث إلى فندق في مدينة القامشلي كي نغتسل ونستريح قبل أن ننتقل في الصباح إلى دمشق. أما الشيخ، على حد ما قال، فسيبقى هنا في الحبس. تسمرت في مكاني مصرًّا على أنني لن أتحرك إلى أي مكان إذا لم يبت الرجل ليلته في منزله. حاول الضابط تمييع الأمور ببعض الوعود التي لم أثق بها حتى اضطر في النهاية إلى الاتصال بأحد ما وعاد إلي بقرار الإفراج عنه بعد استكمال الإجراءات.

لم أر في حياتي من قبل قدرًا من الامتنان الصامت الصارخ في آنٍ معًا في عيني إنسان بقدر ما رأيت في تلك اللحظة في عيني ذلك الشيخ الذي كان كل ذنبه أنه سعى لكسب حفنة من الليرات يعيش عليها عن طريق تأجير غرفة لعابر سبيل. شد على يدي واحتضنني كأنه يعرفنني من عشرين سنة، بينما أشار الضابط لعُدي وأبو ليث بالركوب في سيارة الشرطة، وتكرم هو بنفسه بفتح باب سيارته الخاصة لي.

كان من الواضح أن لديه تعليمات بحسن المعاملة. ممن؟ لا أعلم حتى الآن. ما معنى ذلك؟ لا أعلم حتى الآن. كم سيستغرق هذا الفيلم كله؟ لا أعلم حتى الآن. لكنه كان مهذبًا ولم يبد أي تذمر من حذائي الذي ملأ سيارته طينًا ولا من رائحتي الكريهة التي عبقتها. لم يلتفت أصلًا إلى ذلك إلا بعد اعتذاراتي المتكررة عن الهيئة التي صرت إليها بعد تلك المغامرة. بقي بدلًا من ذلك يشرح لي مدى صعوبة العمل في نقطة شرطة نائية على الحدود وأنا أبدي له كل التعاطف. كان النعاس يغلبني من وقت لآخر بينما كانت عيناي تختطفان نظرة في المرآة من وقت لآخر تؤكد لي أن

عُدي وأبو ليث لم يختفيا. بعد نحو ساعة بشرني بأننا الآن على مدخل القامشلي لكننا سنضطر إلى الوقوف بمخفر الحدود الرئيسي المتحكم في هذه المنطقة كلها، قبل التوجه إلى الفندق.

لم يكد الرجل يدخل بنا عبر بوابة تقود إلى فناء متسع يقود في النهاية إلى قلب المخفر حتى عكست أنوار أحد المداخل خيالات مجموعة من الأشخاص، ثلاثة أو أربعة، يقفون أمامه في حالة انتظار. وقفت السيارة أمامهم تمامًا، وما أن ترجلت حتى خطا أحدهم نحوي مبتهجًا مرحبًا أشد ترحيب. ألقيت نظرة اطمئنان على رفيقيّ وهو يصافحهما في احترام قبل أن يدعوني وحدي إلى مكتبه. «أنا العقيد إياد الزين، من أشد المعجبين بعملك السري للغاية .. لا أصدق عينيّ أن يسري فوده يجلس الآن أمامي في مكتبي»!

س سؤال

في عقده الخامس كما يبدو، ممتلئ الجسد في ملابس مدنية، يميل إلى الطول، وعلى وجهه ابتسامة ساحرة.. لأول وهلة لم يكن يعنيني أن أحلل، مع ما صاحبها من ترحيب شديد، ما إذا كانت صادقة أم لا. ما كان يعنيني أن أحدًا ما يعتبرنا الآن صيدًا ثمينًا، وهذه الحقيقة في حد ذاتها تطمئنني على أننا سنلقى معاملة جيدة إلى أن يقرر أحدهم المكان والزمان والثمن، وعندئذٍ «يحلها حلّال»، أو هكذا حدثتني نفسي. كان هو، وقد جلس أمامي في صالون متواضع في زاوية من مكتبه، أكثر ثقة من مرؤوسه الذي قاد بنا السيارة وأكثر قدرة، بطبيعة الحال، على اتخاذ قرارات سريعة دون الاضطرار إلى استخدام الهاتف كثيرًا.

وكان من الواضح أن شيئًا ما يتم إعداده في غير كثير من الجلبة، ويبدو أنه عندما تم دعاني إلى الانضمام إليه في سيارته بينما لحق بنا في الوقت نفسه عُدي وأبو ليث في سيارة أخرى. سنتوجه غدًا صباحًا، كما قال، إلى دمشق بعد أن نبيت ليلتنا هنا في أحد الفنادق كي نغتسل ونتناول بعض الطعام. عندما وصلنا لمحت نظرة رعب في عيني أبو ليث وهو يلتفت إلى الفندق ثم يلتفت إليّ أكثر من مرة.

بدأت الدقائق القليلة التالية تساعدني على فهم تلك النظرة في عيني أبو ليث؛ فلم ندخل الفندق كما يدخل ضيوف الفنادق عن طريق إجراءات التسجيل المعتادة Check In وإنما قادنا الرجل مباشرة عبر السلم إلى الطابق الثاني. طلب أحد العاملين في هذا الفندق الصغير المتواضع من عُدي وأبو ليث أن يتوجها معه إلى غرفتهما بينما

اصطحبني العقيد إلى غرفة استقبال صغيرة في ذلك الطابق. واضح أن المكان تحت السيطرة المباشرة. أيكون هذا إذًا هو الزمان قبل أن أكتشف الثمن المقترح؟

داخل الغرفة كان رجل «غامض» يرتدي سترة داكنة اللون تبدو أنيقة متكلفة بينما يبدو هو في عقده الرابع. استقبلني مَن يمكن أن يناسبه اسم «زاهي الأسعد» بابتسامة جوفاء وترحيب آلي وكثير من الشغف المصطنع. كان شيء ما فيه، كما بدأت أكتشف دقيقة بعد دقيقة، يدعوني إلى الإحساس بأن هذه المنطقة ليست قاعدة عمله، وأنه ربما اضطر إلى تنفيذ أمر عاجل من جانب أحد رؤسائه استقل على أثره طائرة من دمشق في طريقه إلى أقصى الشمال الشرقي. طبيعة أسئلته، وطريقة تخاطبه مع العقيد إياد، ومدى معرفته بهذه المنطقة الحدودية النائية الذي لم يرتفع حتى إلى مدى معرفة صحفي عابر، وحذاؤه النظيف اللامع غالي الثمن، كانت جميعًا من الأسباب التي دعتني إلى ذلك الإحساس. لكنّ الذي لم يكن فيه شك في ذهني في تلك اللحظة أنه كان في مقعد القيادة وأن الحلقة التالية من هذا المسلسل ستعتمد إلى حد بعيد على ما سيرفعه هو إلى رؤسائه.

دائمًا ما يبدأ الحديث مع مثله من أعلى .. من موقف العالم من العالم .. من المؤامرات اللانهائية التي تحاك لنا طول الوقت .. من حال الأمة العربية الذي لا يرضي أحدًا وحال سوريا البعث الأصيل. قاموس محفوظ يفتتح الجلسة ويبلور كل طرف من أطرافه في أثنائه مقاس الطرف الآخر ولون نخاعه الشوكي وطبيعة اتجاهاته، وعلى أساس ذلك كله يحدد إستراتيجياته وتكتيكاته. شيء أشبه بما يحدث عادةً في الدقائق الأولى من مباراة لكرة القدم، للتبسيط. لم أبتعد كثيرًا عن الموضوع؛ فلا يتطلب الأمر كثيرًا من الذكاء لإدراك أن هذا الرجل، ببساطة، في حاجة إلى معلومات يرفعها إلى رؤسائه. في إطار ذلك أدرك مَن لم يكن لديّ شك الآن في أنه رجل مخابرات من دمشق فشل أول تكتيكاته عندما قرأ وقع كلمة «يا بطل» على وجهي. إبر التخدير الساذجة هذه تأتي معي في معظم الأحيان برد فعل عكسي.

التقط العقيد إياد، الذي كان في تحركاته أكثر رصانة، الخيط بتلخيص الموقف تمهيدًا لسلسلة من الأسئلة الافتتاحية الأساسية. كيف نشأت الفكرة؟ كيف تحركنا؟

أيـن نزلنا؟ من قابلنا؟ ماذا حدث لنا داخل سـوريا؟ ماذا حدث لنا داخل العراق؟ إلى آخره من أسـئلة متوقعة. أجبت على أسـئلتهما بنية صادقة؛ فلم يكن لدينا شيء نخفيه أو نخجل منه، اللهم إلا ما كان يتعلق بأفراد سـاعدونا وكنت أخشـى أن يصيبهم أذى فيمـا بعد. لم أسـتطع وسـط ذلك مقاومة إحسـاس بتهنئـة ذاتية صامتة لنفسـي لأنني كنت حريصًا، كعادتي دائمًا، على تشـفير أسـماء المصادر وعناوينهم وأرقام هواتفهم والمعلومات الحساسـة بطريقة تبدو طبيعية لا تسـتلفت النظر. حتى في هذه اللحظة، وبين أيديهم هاتفي الخلوي ومفكرتي وأوراقي جميعًا، لن يسـتطيعوا فهم كثير إلا إذا قررت أنا أن من الأفضل لنا أن يفهموه.

كان ذلـك كلـه مجـرد تعـارف أعقبته راحـة قصيـرة في غرفتـي قضيتهـا كلها في الاغتسـال. ثم جلسـت أنتظر بينما طال زمن ما قالوا لي إنها راحة قصيرة. علمت بعد ذلـك من عُدي وأبو ليث أنهما خضعـا للتحقيق من جانب الضابطين في تلك الأثناء. وبعد نحو سـاعة دق الباب ودخل أحد العاملين بكمية كبيرة من الكباب والكفتة، ثم دق الباب مرة أخرى فدخل عُدي وأبو ليث. «إيه ده؟ أنا كنت فاكر إن الأكل ده كله لي لوحـدي!»، بادرتهمـا فضحك عُدي بينما بقي أبو ليـث متجهمًا. كان يعلم أنه الحلقة الضعيفـة بيننـا وأن ثمنه من وجهة نظرهم ربما لا يسـاوي الكثير. اسـتدعى ذلك مني مجهودًا إضافيًّا لطمأنته بينما كان لدي سـبب آخر للإمعان في ذلك: طمأنة الضابطين نفسيهما رغم أنهما لم يكونا حاضرين في الغرفة.

كانـت الأفكار تترى في ذهني، في مقدمتها ذكرى زيارة سـابقة لي إلى دمشـق مع المديـر العـام لقناة الجزيرة سـابقًا، محمد جاسـم العلـي، وعدد من الزمـلاء، عندما كنت أعد تحقيقًا عن حرب أكتوبر/ تشـرين. بعد استكمالنا إجراءات الدخول في بهو الفندق لفتت نظري ظاهرة غريبة كانت بعد ذلك موضوعًا للممازحة مع «أبو جاسم» عندما كنا نتبادل أرقام الغرف. «غرفتي ٤٠٧، وأنت؟» .. «أنا غرفتي ٣٠٧». أسرعت إلـى الباقيـن فاكتشـفت أن أحدهما في غرفـة ٢٠٧ والآخر في غرفـة ١٠٧. يا لها من مصادفة ظريفة! لكن فضولي لم يكن ليستريح بسهولة. لاحقًا، سألت من أثق به فقال لي إن تلك في الغالب غرف خاضعة للمراقبة لأن من الأرخص لهم أن يشدوا أسلاك المراقبة عبر حائط واحد من أعلى إلى أسفل بدل أن يوزعوها على غرف متناثرة.

أرخص؟ أرررخص؟ يا للهول! حتى وهم يراقبوننا يستخسـرون فينا ثمن المراقبة الـذي هو أصلًا مـن كدنا وعرقنا؟ يا لها مـن عفانة! .. على الأقـل كانت ذكرى كهذه كفيلـة برسـم ابتسـامة صافية علـى وجهي لم أسـتطع تفسـيرها لرفيقيّ ونحـن نلتهم الطعام، لكنها أقنعتني - وكنت في حاجة أخلاقية لأن أقتنع - بأن المخابرات السورية ربمـا تكـون قد وفـرت لنا الآن طعامًا ومسـكنًا ومغسـلًا وهو في الواقـع كله من خير سـوريا ومن عرق شـعب سـوريا. فليكن إذًا، إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا. ثم فجـأة سـألت عُدي عـن رقم غرفتهما وأنـا أجيل النظر فـي الحوائـط. رد وقد فهم ما أعنيه بأنها على بعد خطوات قليلة في الطابق نفسـه. ربما إذًا شـدوا الأسلاك بالعرض بدلًا من شدها بالطول وربما لا وزن لذلك في هذه الحالة فقد كان واضحًا أن الفندق صغير وأنه ينتمي لهم تمامًا بشكل أو بآخر.

«مين أبو عبد الله؟»

مـن وجهة نظـر المحققين، كانت تلـك في مبادئ التحقيقات الاسـتخبارية لحظة قيـاس الفـارق بين إجاباتنا على أسـئلتهم منفرديـن وجهًا لوجه، من ناحيـة، وحديثنا معًـا جميعًا أثنـاء تناول الطعام في غيابهـم، من ناحية أخرى. هم يأملـون أننا نفترض ألا أحد يستمع إلينا في هذه اللحظات، ونحن نفترض أنهم يأملون ذلك حقًا. لـم أكن متأكـدًا إلى أي مدى كانت بوصلة أبو ليث منضبطـة على هذه الموجة. لكن كثيرًا من مداخلاته، حتى تلك التي كانت تبدو لأول وهلة كارثية، كانت مفيدة بشكل أو بآخر. ذعـره الواضـح مما يمكن أن يفعلوه به ... قلقه مما يمكن أن يحدث لشـبكة التهريب علـى جانبـي الحدود ... محاولاته السـاذجة للاتفـاق على توحيد الروايـات بيننا ... حتى رأيه في «دهاء» المحققين ـ كلها، وغيرها، كانت بمثابة تمريرة عفوية من جناح إلـى رأس حربـة كي يحرز هدفًا إضافيًـا يمكن أن يصنع الفارق في مبـاراة العودة، إن أحسن استغلالها.

في إطار واضح من الثقة بالنفس، مبالغ فيه في بعض الأحيان، احتوت مداخلاتي مزيجًا من طمأنة فريقي بشكل مباشر على أن ثمننا غالٍ، وطمأنة المحققيْن عبر أجهزة التنصت على أن «عبثنا» فيما يخص الجانب السوري كان في أضيق الحدود. بأساليب مختلفة كنت حريصًا على اسـتغلال السـياق الطبيعي كي تنغرس هاتان الرسالتان في رأسيْ المحققيْن الغائبيْن الحاضريْن. وقد كان.

اقتربت الساعة الآن من الثانية صباحًا عندما طرق المحققان باب غرفتي للمرة الرابعة وأنا في حالة يرثى لها من الإعياء وقلة النوم. إن كان ثمة شك قبل ذلك على الإطلاق، لم يعد الآن أي شك في أن هذه عملية اعتقال وأن هذا الفندق مكان اعتقال وأن هذين الرجلين يصران على عصرنا حتى آخر قطرة. كانت علامات الترحيب المبالغ فيه منذ البداية قد تحولت مع مرور الوقت إلى شيء آخر، كأنك تحدق في صورة لوجه مبتسم أدخلتها في برنامج متطور للمونتاج يحول الوجه في سلاسة لا تلحظها العين من وضع الابتسام إلى وضع الجدية المشوبة بالخطر في ثوانٍ معدودة، وإن كان الأمر في حالة هذين المحققين قد استغرق نحو خمس ساعات حتى الآن. «أستاذ يسري، فينا نحكي جد شوي؟».

هذه المرة كان بين أيديهما كثير من متعلقاتي، من بينها كاميرا فيديو شخصية صغيرة HandyCam كنت قد استخدمتها في تصوير رحلة العبور من سوريا إلى العراق. وضعها العقيد إياد أمامنا على الطاولة وضغط زر العرض. كان هذا هو الشريط الوحيد الذي عدت به في جعبتي من تلك المغامرة، وكنت أعلم أنهما لا بد شاهداه مرات عديدة. بينما اندمجت في التحديق في شاشة ضئيلة مشدوهًا معجبًا كأنني أرى نفسي لأول مرة! كان زاهي، الرجل الذي لم يعد به الآن كثير من الغموض، مهتمًّا بتنشيط ذاكرتي فيما يخص أسماء الأشخاص والأماكن والإحداثيات. لكن ذاكرتي كانت «تخونني» في مرات كثيرة تاركةً الحرية لأبو ليث كي يحدد ما يمكن أن يتحمله هو من انكشاف ذلك النوع من التفاصيل. في مقابل ذلك كان لا بد من أن ألقي إليهما بشيء من التفاصيل «المثيرة»، التي كان كثير منها على أي حال بين أيديهما.

في محاولة أخيرة بدت صادقة بقدر ما بدا عليهما من إرهاق، اقترب زاهي الأسعد مني وهو يتصفح جانبًا من ملاحظات دونتها في نوتة صغيرة وجدها في حقيبة الكتف، وقال بنبرة لا تخلو من تمسُّكٍ إن الأمر قد استغرق أطول مما ينبغي وأنهما الآن في حاجة لاستكمال الإجراءات الروتينية تمهيدًا لنقلنا في الصباح إلى مطار دمشق. «مين أبو عبد الله؟» سألني، فأجبت سريعًا: «أسامة بن لادن»، فارتد موخوزًا إلى الوراء.

• «بن لادن؟!!».

= أيوه .. أبو عبد الله هو بن لادن.

• «أنت التقيتو؟ .. وشو جابوع سوريا؟».

= أولًا، أنا عمري ما شفتو. وثانيًا، اللي أعرفه إنو جا سوريا كتير.

استل زاهي قلمًا وبدأ يسجل إجاباتي عن أسئلته بدقة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تشجيع بلهاء:

• «إمتى؟ بتعرف؟».

= أكيد بعد ما أبوه اتجوز أمه .. ما تقوليش ما تعرفهاش .. عالية الغانم يا راجل .. من اللاذقية.

• «هاي بالزمانات .. غيرو.. إحنا بنحكي عن هلَّأ».

= أكيد بعد ما هو اتجوز مراتو الأولانية .. قريبة أمه .. اسمها نجوى الغانم .. برضو لاذقانية .. وعلوية كمان.

هنا، تنحنح العقيد إياد وهو يعتدل في جلسته المنصتة بينما وضع زاهي قلمه جانبًا وقد اعتلى وجهه شيء من الحمرة وكثير من التذمر: «شو أستاذ؟! .. شو بدك يعني من هالحكي؟» لم أكن متأكدًا مما أثاره أكثر: أهو جهله الواضح بمعلومات أساسية كهذه؟ أم ارتباط اسم أخطر المطلوبين دوليًا بعائلة سورية علوية؟ لكن شيئًا ما كان يدعوني للاستمتاع المغلف في طيات براءة متهم ساذج يريد أن يساعد محققيه بأي طريقة كانت علهم يرضون عنه.

= ما هو لما اتجوزها خلّف منها أكبر أولاده .. عبد الله .. عشان كده أسامة بن لادن هو أبو عبد الله.

في الواقع، كان «أبو عبد الله» المسجل في أوراقي اسمًا شفريًا لأحد المصادر التي التقيت بها في حلب قبل نحو أسبوع بعيدًا عن الكاميرا وفريق التصوير المحلي. ولست هنا في معرض الحكم أخلاقيًا على أي طرف، لا على جماعات «إرهابية»

ولا علـى أنظمـة «قمعيـة»، رغم ما يحملـه هذان الوصفـان من حكم علـى أي حال. ما يعنيني عندمـا يطلـب مني مصـدر مفيد علـى طريق الوصـول إلى الحقيقـة إخفاء شـخصيته أن أكـون قـادرًا علـى الالتزام بشـرف المهنة، اللهـم إلا في حـالات نادرة تحكمها قواعد صارمة.

ساعة أخرى حتى صارت الساعة الآن الثالثة صباحًا عندما قرر زاهي أن لديه الآن ما يكفي لإعداد تقريره. كان القرار قد اتُّخذ فيما يخصني ويخص عُدي، فماذا إذًا عن أبـو ليث؟ سـيبقى معهم حتـى ينظروا في أمره. هكذا قال. ولأنني أعرف أن هذا أكثر ما يمكن أن يثير الذعر في نفس وسـيطنا من واقع تجربة سـابقة له في سـجون سوريا، أجبـت بنبـرة قاطعة: «لا بأس، إذًا سـأبقى أنـا أيضًا هنا حتى تنظروا فـي أمره». حاول الرجلان إثنائي بشـتى الحجج لكن إصرارًا واضحًا في موقفي نحو إنسان حافظ على سـلامتي فـي مواقف خطيرة جعلهما يسـتأذنان قبـل أن يعودا بعد نحو عشـرين دقيقة ومعهما أبو ليث.

إلى عرين الأسد

القـرار الجديد: يُرحـل أبو ليث إلى العراق ولا يعود إلى سـوريا مرة أخرى. نظرة سـريعة إليه أخبرتني أنه سـعيد بهذا القـرار، لكنني تابعت: «أرجـو أن يتم هذا قبل أن نتحرك من هنا، وأرجو أن تكون لدينا وسـيلة لاسـتقبال اتصال هاتفي منه يؤكد عبوره الحدود». نشوة الخلاص والرضا التي غمرت وجه أبو ليث في تلك اللحظة لخصت لـي دون كلمـة واحـدة ما يكنه النـاس، في هذه البـلاد وفي غيرهـا، للمنظومة الأمنية القمعية في سوريا.

حارًّا، باكيًا، كان ذلك عناق الوداع مع إنسان ظهر فجأةً في حياتي، وبعد ثلاثة أيام مـن مغامـرة جمعتنا اختفى فجأة. لم أره بعدها أبدًا، وإن لم تنقطع سـلاماته الصادقة. وكانـت هذه أيضًا آخر مـرة أرى فيها وجه الضابط الوافد، زاهـي، وهو يصافحني بيد رخوة ونصف ابتسـامة مثقلة، بينما ودعني العقيد إياد بابتسـامة عريضة وهو يشرح لي ما سـيحدث غدًا ويرد على نظرتي إلـى متعلقاتي بين يديه بلهجة مصرية: «ما تخافش على الحاجات بتاعتك .. هتستلمها في المطار بكرة قبل ما تسافر».

باقتراب السـاعة الآن من الرابعة فجرًا، لم يكـن أمامنا كثير من الوقت للراحة. في السـابعة صباحًـا طرق عُدي باب غرفتي سـعيدًا بـأن أبو ليث صار الآن فـي أمان بعد عبـوره الحـدود وبأن سـيارة تنتظرنا أمـام الفندق للعـودة بنا إلى دمشـق. وكما دخلنا خرجنا: لا تسـجيل للمغادرة بينما قادنا إلى سـيارة من نوع بيجو ٥٠٤ كلاسـيكية مَن بـدا مخبـرًا، أيضًا مـن النوع الكلاسـيكي. أين متعلقاتنا؟ سنسـتلمها في دمشـق على

حـد قولـه وهو يتخذ مقعده فـي الأمام إلى جوار السـائق بينما جلسـت أنا وعُدي في المقعد الخلفي.

لـم أفهـم مـن رده إن كانـت متعلقاتنـا موجودة فـي حقيبة السـيارة أم أنها سـبقتنا ربمـا مع زاهي إلى دمشـق، ولـم ينشـغل ذهنـي كثيرًا. ولا انشـغل ذهني كثيـرًا بمدى سـهولة الحصـول على مقعـد على متن طائـرة تغادر دمشـق بعد سـاعات قليلة؛ فلن تعدم المخابرات السـورية وسـيلة حتى وإن كانت لندن وجهـة عودتي على الخطوط البريطانيـة. انشـغل ذهني أكثر بحقيبة السـفر الكبيرة التي كان أبو ثائـر قد أخذها مني لدى انطلاقة المغامرة في دمشـق وخبأها هناك بمعرفته في منزل أحد ما، خاصة الآن في ظل اختلافنا معه وفي ظل غياب أبو ليث. لكن المخابرات السـورية سـتثبت مرة أخرى أن دمشق في قبضتها صغيرة.

يسـتعرض نسيج سوريا أليافه من نافذة السـيارة، أرضًا وحجرًا وبشرًا، على طريق يمتد إلى نحو ٧٠٠ كيلومترًا غلبني نعاس عميق في معظمها. بعيون شبه مغلقة ورأس ثقيـل وجسـد لـم تبخـل عليه قلة النوم بكثير من الإحسـاس بالبرد، أسـتطيع الآن وقد اقتربت السـاعة من الثالثة عصرًا أن أميز طلائع دمشـق على الأفق المنظور. بعد قليل ينحدر السـائق فجأة عن المدخل المعتـاد للمدينة. يلاحظ المخبر تململًا في المقعد الخلفـي فيعلـن فجأة عن نبأ كان يخبئه: «زيارة سـريعة هون مشـان نخلص إجراءات السفر». لم تنته القصة بعد إذًا.

لا توجد علامة على المبنى الذي يبدو مملًّا من خارجه تشير إلى أن هذا أحد أفرع المنظومة الاسـتخبارية الأمنية السورية، لكن كل شـيء آخر كان ينبئ عن ذلك. بوابة صمـاء تقـود إلى فناء أجرد يقود إلى درجات سـلم بالية تحوطهـا في الصعود جدران مرهقة. وعيون في كل زاوية وأسـلحة خفيفة ومخبر يسلمك إلى مخبر إلى مخبر إلى أن تجد نفسـك على أريكة في مكتب متواضع متصل من داخله من خلال باب مغلق بمكتـب آخر. بعد قليل، سأشـهد فصلين ظريفين من الفصول الكلاسـيكية لـ «علم» التحقيقات الاستخبارية.

الفصـل الأول: يرتطـم باب المكتب محدثًا جلبة مزعجـة إذ يدخل مَن بدا ضابطًا متوسـط الرتبة في لباس مدني، فاردًا طوله، نافشًا سترته وهو يمر من أمامي إلى مقعد وراء المكتـب، صارخًا في الوقت نفسـه بأعلى صوته وهو يرتدي نبرة جشـة عدوانية إذ يلقي بملف على سـطح المكتب في عصبية: «شـووو يعني؟! وكالة من دون بواب هاي واللا شـو؟!». ثـم هبط بمؤخرته مجعوصًـا على مقعده وهـو يختلس نظرة إلى هيئتي ربما يستشف من خلالها رد فعل مبدئيًّا على وجهي. ولما وجد وجهًا دون كثير من الملامح استطرد: «ما في استئذان؟ ما في احترام؟ ما في ترباية؟»!

بزغت في ذهني في تلك اللحظة صورة مواطن سوري يعيش في كندا كنت التقيته قبل أشـهر قليلة في سـياق تحقيقي في برنامـج الترحيل غير العـادي Extraordinary Rendition Program الذي سـمحت أشـباح وكالة الاستخبارات الأمريكية، سي آي إيه، لنفسـها من خلاله باصطياد من تشـاء في أي بقعة من العالـم وترحيله قسـرًا، غالبًا إلـى معتقلات موطنـه الأصلي حيث يتعـرض للتعذيـب وانتهاك الكرامة الإنسـانية. اغرورقت عينا عبد الله المالكي، ذلك الشاب المثقف المهذب الطيب الخلوق الذي لـم يكـن يريد من حياته بعيدًا عن وطنه سـوى مسـتقبل كريم لأبنائـه، وهو يحكي لي ما حدث له في بداية ما يسمونه في معتقلات النظام السوري «حفلة أهلا وسهلا».

• «بشـكل مفاجـئ غير متوقـع جا صفعني علـى وجهي.. صفعنـي على وجهي.. شـرفي .. كرامتي .. يعني طُمسـت تمامًا بهذا الكف، وحقيقة بدأت أرجف، يعني ما كان شـي متوقع أبدًا. قال لي انبطح على الأرض .. على بطني على الأرض .. فبطني كان علـى الأرض وراسـي كمـان. قال لي حط خـدك علـى الأرض .. ارفع رجليك. رفعـت رجلـي .. فواحد وقف على راسـي وواحـد تاني وقف على ظهـري وآخرون كانوا يركلوني بأقدامهم .. بالأحذية .. الأحذية كانت جلدية بنعل خشب .. يركلوني بأقدامهم. وآخرين عم .. لا أعرف واحد تاني أم أكثر من واحد عم يضربوا رجلي».

بصـورة كهـذه في مخيلتـي وبوابل متدافـع من الأفـكار، تعلقت عينـاي بالضابط السـوري الوقـح في انتظار وفـي غير كثير من المبـالاة وقد رانت لحظـة من الصمت الثقيل بعد هذا السيل من التقريظ المتصاعد.

• «شو؟ ما في رد؟».

= أنا بس مستني حضرتك تخلص كلام. خلصت؟!

• «ما خلصت .. فيني أحكي من هون للصبح .. اسمع ولاا .. إنت بتعرف شو فينا نعمل فيكو هلّأ؟ .. هاه؟ .. بتعرف واللا لا؟»

= عارف كويس جدًّا .. وعارف كمان إن أنا كسرت القانون الدولي عمدًا وتعديت على سيادة دولتين في ليلة واحدة.

ثـم ارتفع صوتي فجأة وهو يحـاول مقاطعتي فتداخل صوتان مرتفعان يحاول كل منهما اعتلاء طبقة الآخر في غضب.

= لو سمحت! .. لو سمحت! .. وفّر الإهانات الفارغة والصوت العالي.. لو عندك اتهام رسـمي تتفضل تعرفني بنفسـك وتكتب محضر وإن شاء الله نتقابل في محكمة العدل الدولية

• «شو؟ محكمة شو؟!».

جـن جنونه وهو لا يصدق، كمـا يبين في حركاته الآن، أن أحـدًا يمكن أن يتجادل معـه بطريقـة كهذه. لكـن المواجهة انفضـت فجأة عندمـا أطل أحدهم برأسـه داخل الغرفة مستدعيًا إياه بنظرة. في طريقه العصبي إلى الباب لـم يستطع مقاومة «التفشخر» بـأن نهايـة مغامرتي لم تكـن على أيـدي العراقييـن ولا الأمريكان، وإنمـا على أيدي المخابرات السورية.

عصير البرتقال الصناعي

ثم كان الفصل الثاني ما بدا أنه عصير برتقال صناعي يوضع على طاولة صغيرة أمامي. وبعده بدقائق ينفتح باب المكتب بهدوء مسفرًا عمن بدا ضابطًا أعلى رتبة، يرتدي حلة قطنية خفيفة فوق قميص. «يا ١٠٠ أهلا وسهلا»، قالها بابتسامة عريضة وذراعين مفتوحين قبل أن يتخذ جلسته على الأريكة نفسها التي كنت أجلس عليها، على بعد متر واحد مني. كان أسلوبه أقرب إلى أسلوب العقيد إياد، لكنه كان أكثر إلمامًا بالمشهد الإقليمي من وجهة نظر النظام في دمشق.

بكثير من الدبلوماسية، أبدى احترامًا شديدًا لعملي وثقة كبيرة في نواياي. لديهم- كما قال لي من واقع ملفاتي في أرشيفهم - اقتناع بأنني مهني وطني قومي وبأن «سوريا قلب العروبة تعتز دائمًا بأمثالك». لكنها في الوقت نفسه مستهدفة كما يقول، خاصة في إطار الحرب على الإرهاب بعد الحادي عشر من سبتمبر / أيلول. لم يكن لدي مانع في الاستماع والإيماء والتناقش انتظارًا لبيت القصيد.

أتى بيت القصيد بعد فترة وجيزة في صورة شاب وسيم يبدو أنيقًا في رابطة عنق وهو يحمل حقيبة أوراق صغيرة. لكنه يبدو أيضًا من هيئته ونظراته وحذائه وكأنه لا ينتمي إلى هذا المكان .. وكأنه استُدعي على عجل من مكان ما فأتى على عجل إلى هذا المكان الذي من الواضح أنه لا يريحه كثيرًا. بقي مَن سميته «فراس»

واقفًا وقفة انضباط بينما استأذن الضابط الكبير موحيًا بأن الأمر الآن بين يدي هذا الوافد الجديد.

جلس ممثل وزارة الإعلام السورية أمامي وهو يفيض احترامًا لي ورهبة من المكان. كان من الواضح أنه يريد المغادرة بأسرع ما يمكن فلم يضيع وقتًا. «معالي الوزير رح يستقبلك .. بس بدنا إياك ترتاح شوي بأي فندق تختاره». من بين مجموعة الفنادق الكبرى ذات النجوم الخمس التي عددها لي اخترت واحدًا بعينه لم أكن قد جربته قبل ذلك، ربما على سبيل الشغف وربما اتقاءً لتلك التجربة الطريفة السابقة في فندق آخر.

ننتقل الآن إلى مساحة متداخلة بين الأمن والسياسة. لكن الأمور في بلد عربي يغلب عليه دائمًا الملمح الأول ليست بتلك البساطة. بدأ عُدي يتنفس الصعداء ونحن جلوس في زاوية من بهو الفندق بينما يهرول أحد الموظفين بتخليص إجراءات التسجيل في طقوس بدت غير معتادة. وبعد قليل وجدنا أنفسنا في ممر في الطابق الأرضي يقود إلى ممر آخر منزوٍ منخفض السقف يقود إلى مجموعة من الغرف. على رأس الممر حارس تتناسب ملامحه مع هذه الأجواء المقبضة. «شرّف إستاذ .. إذا محتاج أي شي بس ترفع السماعة».

في تلك اللحظة ظننت أن ذلك التعبير الذي استخدمه -«بس ترفع السماعة»- كان تعبيرًا بلاغيًّا كناية عن الكرم. لكن الطريف أنني عندما احتجت إلى التأكد من مواعيد الطيران رفعت سماعة الهاتف وإذ بصوت أحدهم يأتيني مباشرة دون أن أضغط على أي زر: «تؤمر أستاذ»!

= امممممم ... عندكم ليفة بلدي أدعك بيها ضهري؟!

• «تكرم عينك».

وحشة تلف هذه الغرفة الكئيبة، تزيد وحشة وكآبة بفعل الأجواء المحيطة بها وبنزيلها. هذه غرفة في فندق من فنادق النجوم الخمس، وهذا نزيل لديه ما يكفي

من شـهرة وشـعبية ونفوذ وما تيسـر مـن مال وأصدقاء فـي مواقع مؤثرة حـول العالم ومؤسسـة كبرى تقف وراءه كي يطمئن. لكن شـعوري في تلك اللحظات لم تكن له صلـة بالاطمئنـان بقدر ما كانت لـه صلة بالإحسـاس بالقهر أمام أنظمـة عربية قمعية والإحسـاس بالعجـز أمام واقع عربي ذليل والإحسـاس بالذنب أمـام حكايا لا حصر لها لضحايا لا حصر لهم.

بيـن الفصـل الأول والفصـل الثاني من الفصـول الكلاسـيكية الظريفة لــ «علم» التحقيقات الاسـتخبارية في هذا البلد لا بـد أن الفصل الأول، الذي قام ببطولته ذلك الضابـط الوقـح، هـو أقربهـا جميعًـا إلى الواقـع. ولا بد من أن أسـأل نفسـي في هذه اللحظات: ماذا كان يمكن أن يحدث لو كان مواطن سوري «عادي» في مكاني؟

صحيـح أن سـوريا كانـت في تلك الآونـة واقعة تحت ضغوط شـديدة الوطأة من جانب واشـنطن وحلفائها كي تثبت أكثر من غيرها، مـرارًا وتكرارًا، أنها حليف فاعل فـي إطار مـا يوصف بالحـرب على الإرهـاب، وأنها تختـار من تهديد جـورج بوش الصغيـر أن تكون «معنا» لا «مع الإرهابيين»، لكنّ شـيئًا فـي الوجود لا يمكن أن يبرر ولو جانبًا بسيطًا من شهادات ضحايا كان النظام نفسه يعلم ألا ذنب لهم، ولا هذا الكم كله من النفاق الأسود على الجانبين.

ففـي العام نفسـه الذي صدّرت واشـنطن مواطنهـا من أصل سـوري، ماهر عرار، إلى دمشـق، عام ٢٠٠٢، كان الرئيس الأمريكي يعلـم أن وزارة خارجيته قد أصدرت تقريرها السـنوي عن سـوريا الـذي جاء فيه من بين كثيـر مما جاء فيه أنـه «توجد أدلة صادقة على أن قوات الأمن تستمر في استخدام التعذيب ... من بين وسائل التعذيب الصعـق الكهربـي .. نزع الأظافـر .. إدخـال أدوات في أماكن حساسـة .. الضرب .. تعليـق المعتقل من السـقف وجلده .. اسـتخدام مقعد يهيئ خنـق الضحية أو الضغط على النخاع الشوكي».

رفضت السـلطات السـورية في البداية اسـتلام ماهـر عرار؛ فلم تكن لديها شـيء عليـه، فقامت أشـباح سـي آي إيـه بترحيلـه إلى الأردن ومـن ثم اضطرت السـلطات

السـورية إلى اسـتلامه برًّا من السـلطات الأردنية. خُلعت العُصابة عـن عينيه في أحد معتقلات بلاده حيث مورس بحقه كثير من طرق التعذيب التي وردت في تقرير وزارة الخارجية الأمريكيـة، لكـن نصيبـه من الطريقـة الأخيـرة «المبتكرة»، طريقـة المقعد الهابط، كان أوفر.

• «وزن الجسـم كله نازل من هون (يشـير إلى خصـره ومؤخرته وهو جالس على مقعـد) .. هاي شـو بتحط؟ بتحط ضغـط على اليدين وبنفس الوقـت يعملولك هيك (يلف ذراعيه وهو جالس ويشـبكهما وراء مسـند المقعد)، ويربطوك ويضربوك على إجريك من تحت. وطبعًا هاي شو بتساوي؟ هاي .. طريقة التعذيب هاي ممكن تشل الإنسان لأنو الضغط بيكون على النخاع الشوكي».

وداعًا دمشق

شـق رنين الهاتف صمت الغرفة الموحشة قاطعًا تأملاتي. يبلغني فراس أن الوزير يعتذر عن عدم قدرته على دعوتي هذا المسـاء بسـبب ارتباط مسبق، وأنه في انتظاري غـدًا صباحًا، ثم يعرض هو دعوتي إلى العشـاء لكنني أختـار الراحة. أجلس بدلًا من ذلـك مع عُـدي على مقهى جانبي في بهـو الفندق قبل مغادرته إلـى المطار في طريق عودتـه إلـى الدوحة. لا نـزال نتابع عبـر خطوط مختلفـة كيفية الوصول إلـى حقيبتي الكبيـرة الموجـودة في مـكان ما لدى أحد ما في دمشـق. لكن الغلبة كانت للمشـاعر الإنسـانية التي سـيطرت علـى وداع ما بعد مغامـرة كان يمكن ببسـاطة ألا نعود منها. تهديـك الحياة أحيانًا وسـط الضنك والخوف والألم مواقف تكشـف لك عن معادن أنـاس ربمـا لم تكن لديك فكرة عن طبيعتها. ولقد كشـفت لي الأيـام القليلة الماضية داخل عُدي عن جوهرة. وما أفشلني في لحظات الوداع!

علمـت بعد ذلـك أن اتصـالات جرت على مـدى اليوميـن الأخيرين بين دمشـق وإدارة قنـاة الجزيـرة، مثلمـا فهمت مـن اتصال هاتفي صبـاح اليوم التالـي مع رئيس مجلس الإدارة، الشـيخ حمـد بن ثامر آل ثاني. التقطني فراس من الفندق في سـيارته إلـى وزارة الإعـلام. عندما انفتـح بابه رأيت الوزير يقف سـريعًا ويلتـف حول مكتبه بذراعين مفتوحين وابتسـامة «سـاحرة» لـم أر أعرض منها من قبل. هـذه، إضافة إلى شـعر أبيـض هائش، من لوازم الدكتور محسـن بـلال الذي لم يكن قد مـر على تقلده هذا المنصب في ذلك اليوم أكثر من أسابيع قليلة بعد أن كان سفيرًا لبلاده في مدريد.

يضـرب بقواعـد البروتوكول عـرض الحائط جالسًـا إلى جواري علـى أريكة في زاوية من مكتبه الفسـيح، ويحدثني عن الدنيا كأنما يعرفني شخصيًّا لأكثر من عشرين سـنة. جلـس فراس على مقعد بعيـد يتطلع في إعجاب بينما يقـص الوزير ذكرياته في بـلاد الأندلس ويتغزل في عظمة الحضارة الإسـلامية وفي تـراث الأمويين. محترف في تذويب الجليد في زمن قياسـي، لا بد أن أعترف، وخبير في الانتقال بسلاسـة من موضـوع إلى موضوع حتى إنني لا أذكـر تمامًا كيف تطور الأمر فوجدته على الهاتف مـع رئيس مجلـس إدارة قناة الجزيرة يطمئنـه ويتبادل معه حديثًا فـي غاية المودة، ثم يناولني سماعة الهاتف.

دعاني، وهو يودعني، إلى البقاء في دمشـق عدة أيام أخرى للاسـتجمام فشـكرته وأشـرت فقط إلـى أمرين: حقيبتي الكبيرة وشـريط الفيديو. التفـت الوزير إلى فراس بنظرة تسـاؤل. تردد هذا قليلًا قبل أن يقول إن أمر الحقيبة بسـيط لكن الشـريط سيبقى هنا وفقًا للتعليمات. تمتم الوزير مازحًا فمضيت.

فـي اليوم التالـي وصلت الحقيبـة كاملة المحتويـات فاتخذت طريقـي عائدًا إلى لندن. في تلك الأثناء كان أبو نور قد أفلح في تسريب الشرائط إلى مراسل الجزيرة في كردسـتان الذي أوصلها عبر الحدود إلى مكتب الجزيرة في تركيا ومن هناك وصلت بعد أيام قليلة إلى مكتبي في لندن .. كاملة.

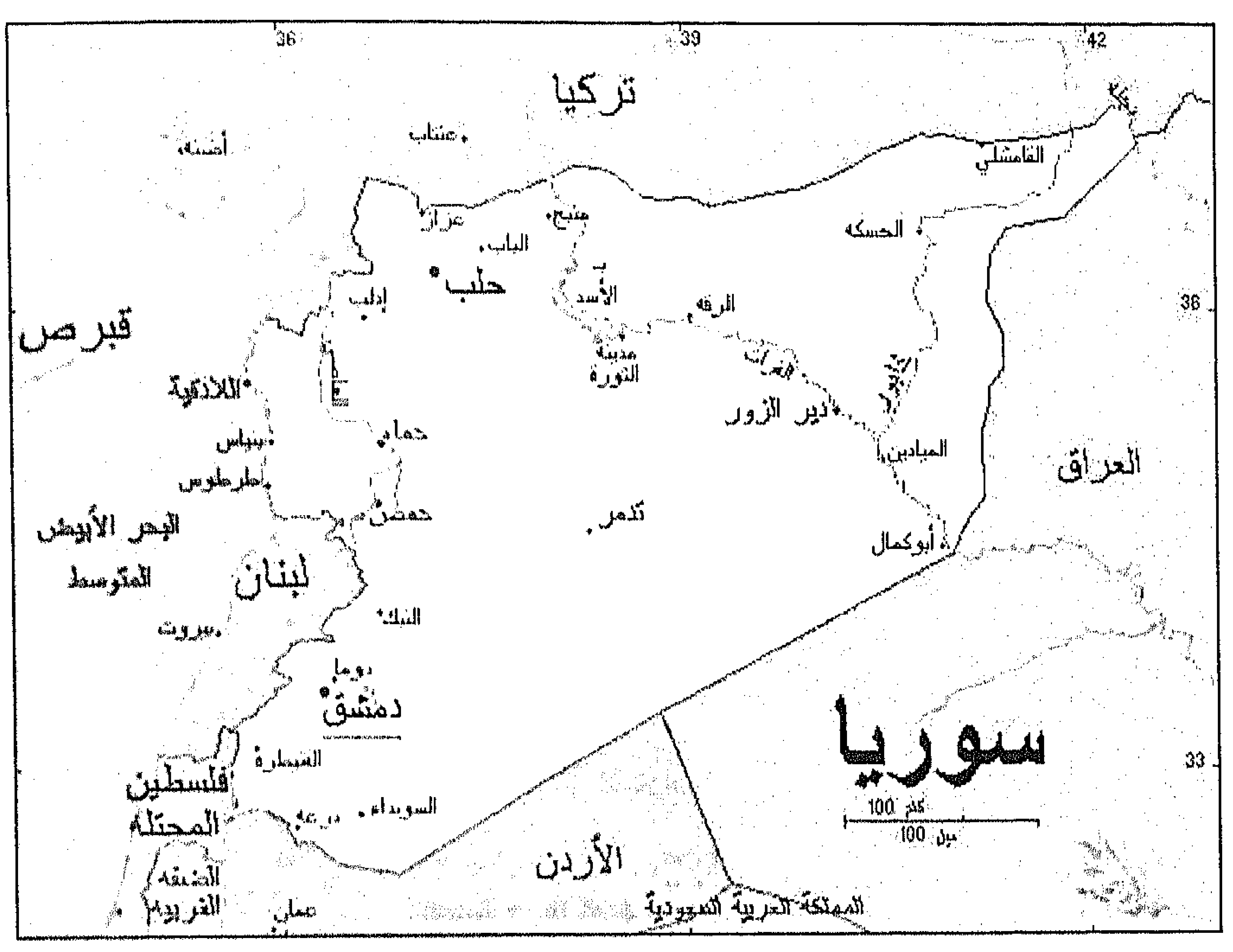
كانـت تلك تجربة على الصعيد الشـخصي من الصعـب أن أكرر مثلها مرة أخرى، وعلـى الصعيـد المهني فتحـت آفاقًا لكثير من الدروس التي سـتبقى معـي ما حييت، وأرجـو أن يكـون جانب منها على الأقـل مصدرًا للإلهام، خاصـة لهؤلاء من زملائي الذيـن يبـدءون أحلامهـم علـى درب الصحافـة الاسـتقصائية. لكنهـا علـى الصعيد السياسي أوقدت شمعة في طريق فهم جانب مما تكشّف بعد ذلك، سواءٌ فيما يخص العراق وسوريا كاثنتين من أكثر الدول العربية ثقلًا وأهمية، أو ما يخص رؤية السلفية الجهادية لتطور الصراع مع الغرب في ربوع إقليم الشام، أو فيما يخص تململ الشارع العربي من أنظمته.

يـا لهـا من رؤيـة ثاقبة تلك التـي يطرحها بشـجاعة نادرة أمـام الكاميـرا في حلب الدكتور عبد الرزاق عيد، من جمعية إحياء لجان المجتمع المدني، في إبريل/ نيسـان عام ٢٠٠٦، قبل خمس سنوات من بداية انفتاح بطن سوريا: «يعني الوضع في سوريا لا يختلـف جوهريًّا عن الوضع في العراق (قبل الغزو)، والمقدمات التي سـاقت إلى الحالة العراقية متوافرة بكاملها عندنا في سـوريا، إن كنت تريد أن تتحدث عن مسـألة تغييـب المجتمعـات .. وبالتالي يعني السـلطات هي التي فرضـت وصايتها أن تكون بديلًا للجميع. وبالتالي يعني كان الدرس العراقي بالنسـبة لنا مثل وسـيلة إيضاح. ... لا يمكـن لمجتمع أن يدافع عن سـيادته الوطنية الخارجية بدون تحقيق سـيادة وطنية داخلية ... وإلا فالناس لا تدافع عن سيادتها وإنما عن سيادة حكامها أوسادتها».

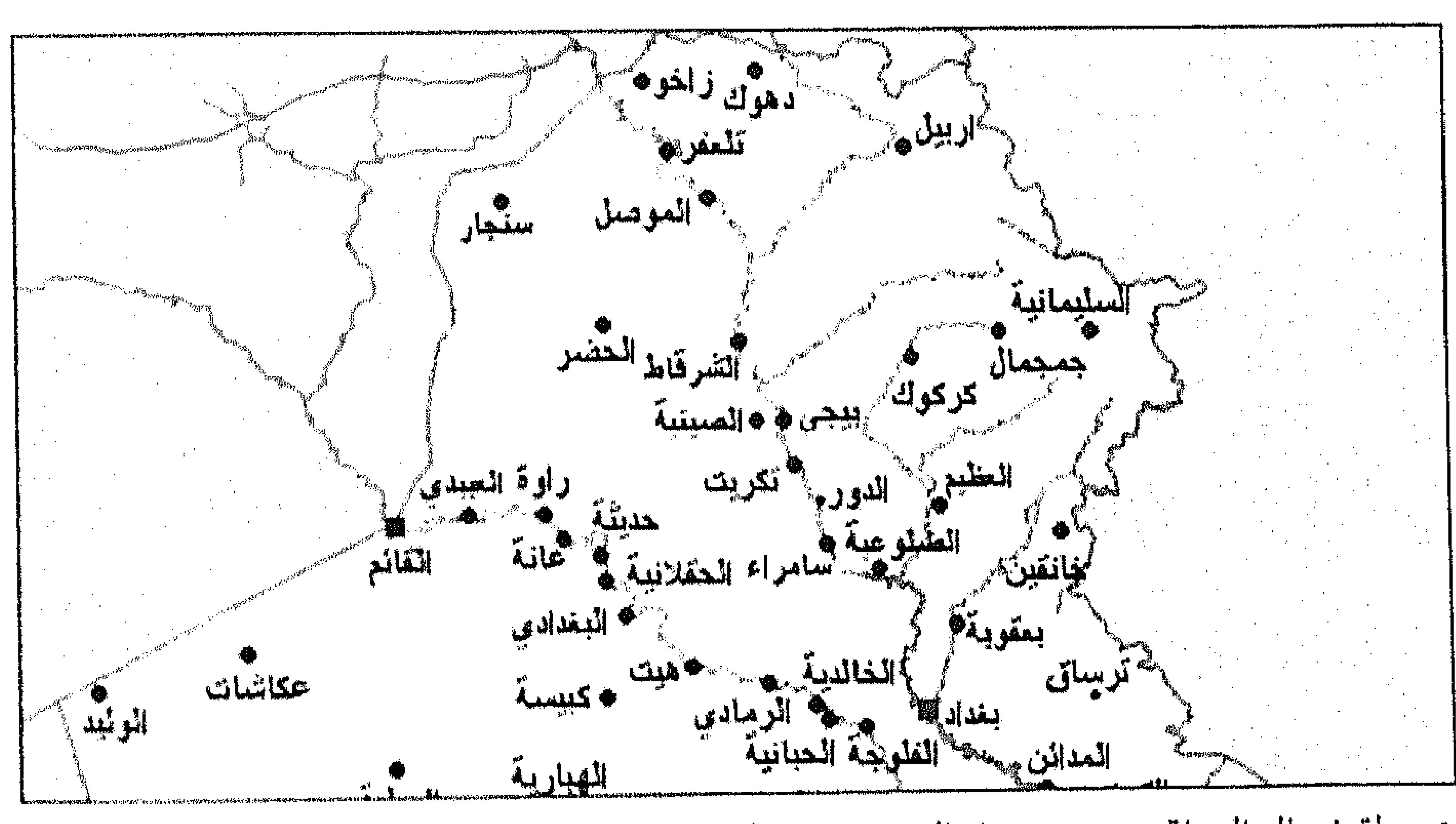
ويـا لـه من تحد ينـذر أكثر مما يبشـر ذلك الذي يبسـطه في هدوء مؤسـس كتائب شـهداء الأقصـى، منير مقدح، قبل سـبع سـنوات من انسـلاخ داعش مـن بين أضلاع القاعدة على طريق «حركة الجهاد العالمي» التي تؤمن بأن نزالًا أخيرًا بين المسـلمين والكفـار واقـع لا محالة في هـذا القطاع من العالم: «ونحن هنا نقـول .. ليس عارًا أن يدخل العدو إلى أرضنا .. العار إذا خرج سـالمًا. فهذه بلاد الشـام مهيأة .. مهيأة لأي شيء .. وهي بركان تحت رماد. متى ينفجر؟ الله أعلم».

صور ومستندات

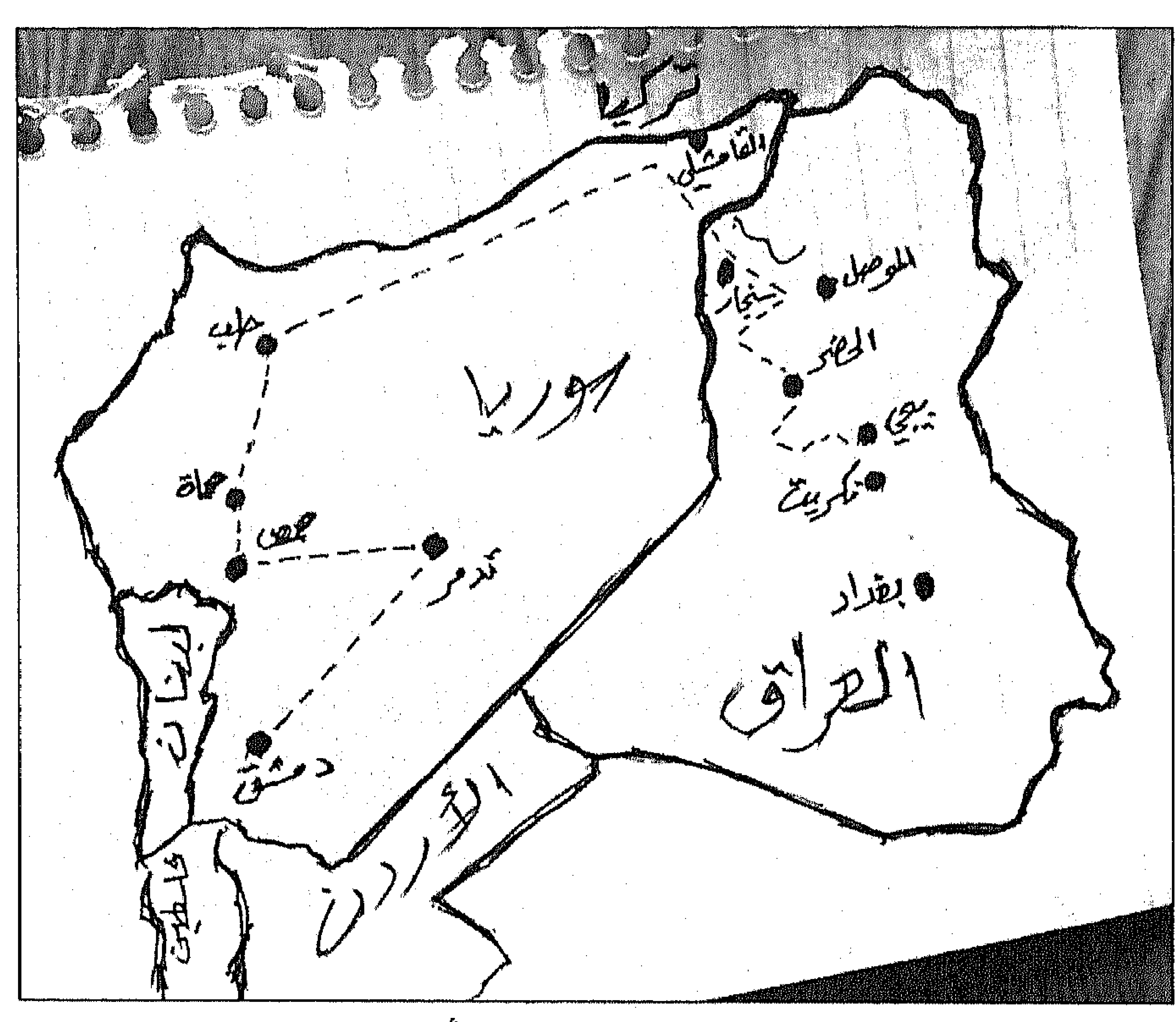
الجزء الثاني



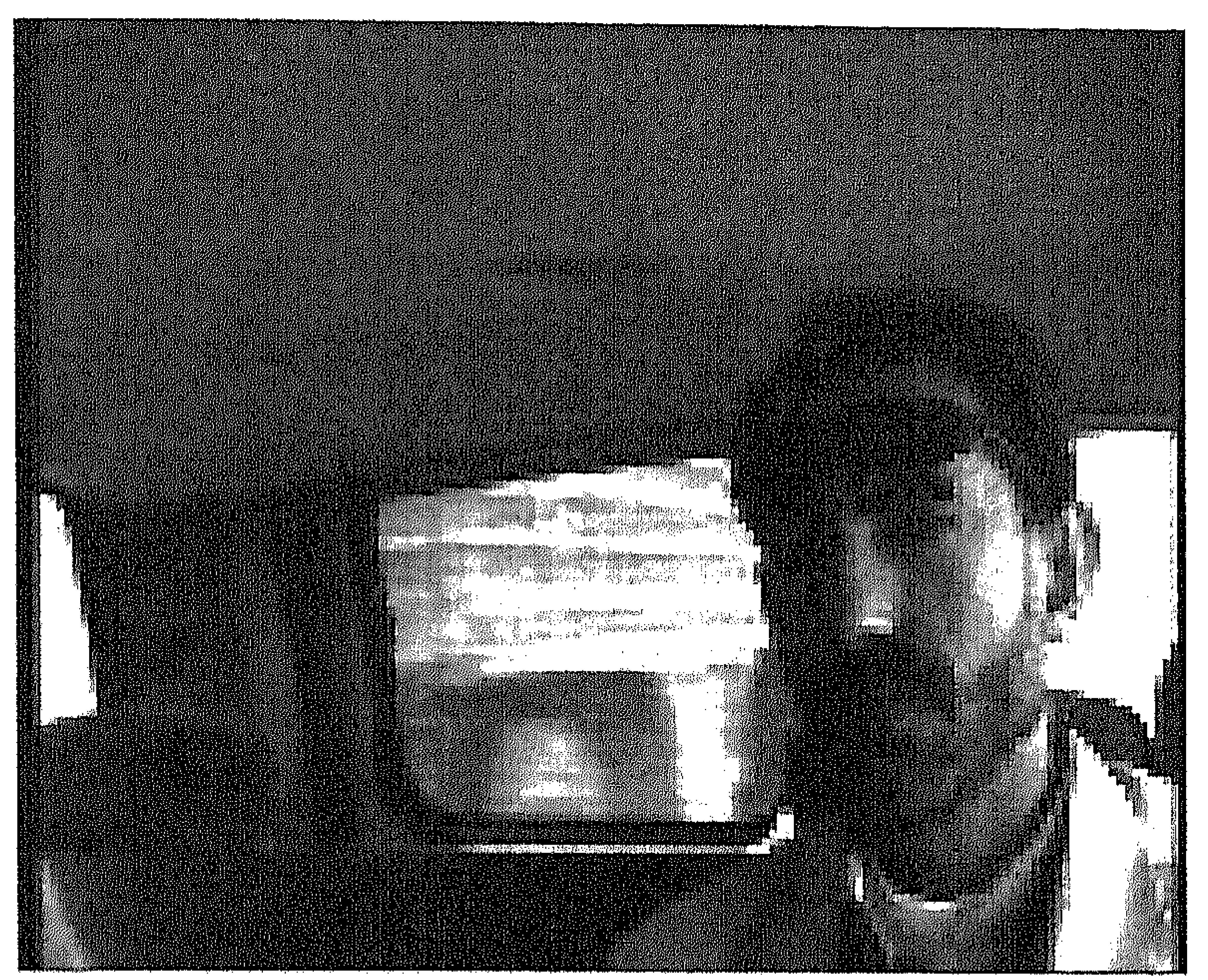
خريطة سوريا، وقد انطلقت الرحلة من دمشق في الجنوب الغربي إلى أقصى الشمال الشرقي قرب القامشلي.



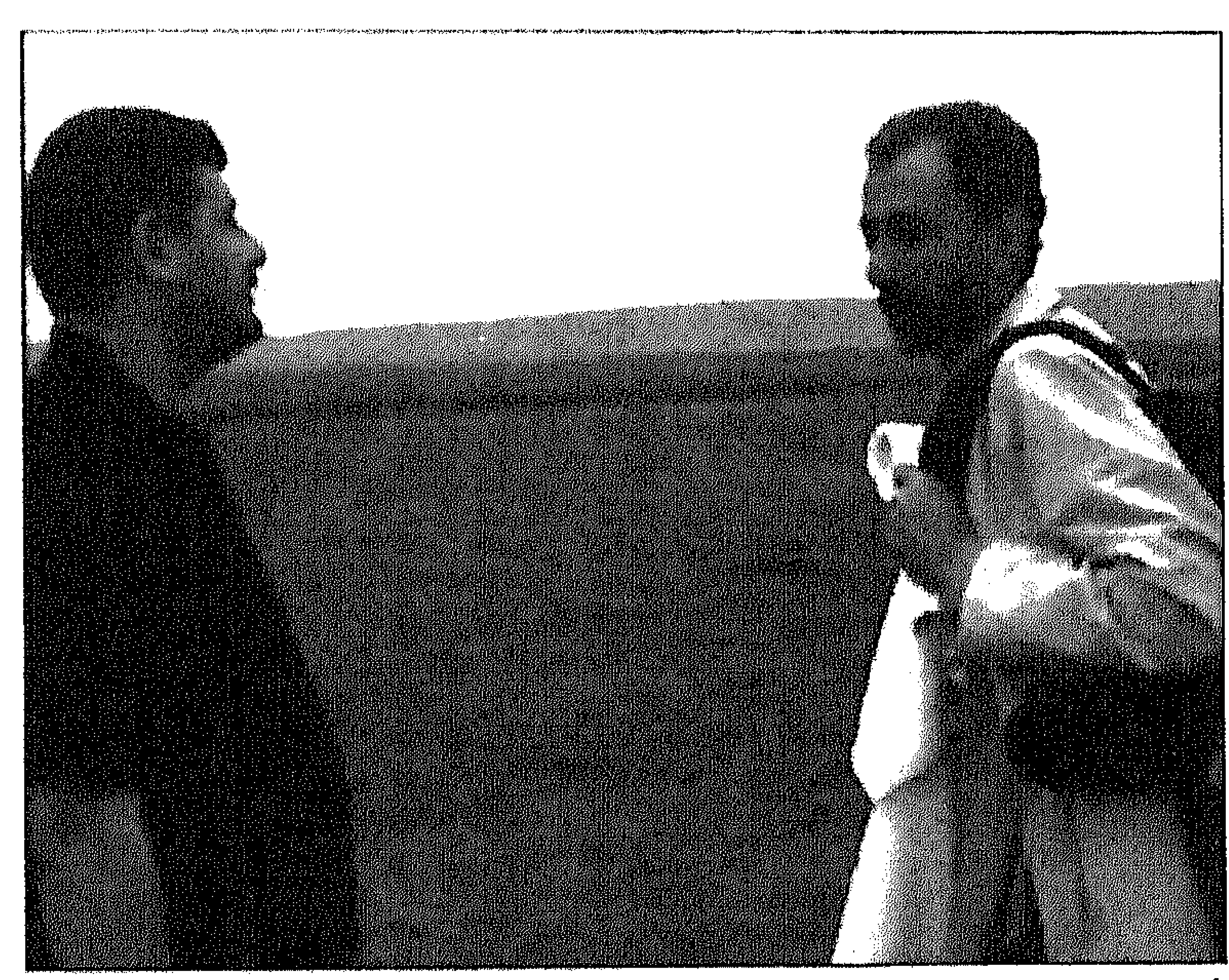
خريطة شمال العراق حيث مدخل العبور في منطقة سنجار.



الخريطة التي رسمتها بعد ذلك لتوضيح مسار الرحلة التي بدأت من دمشق وانتهت قرب بيجي.



في الطريق من دمشق إلى القامشلي قبل عبور الحدود مع المهربين إلى العراق.



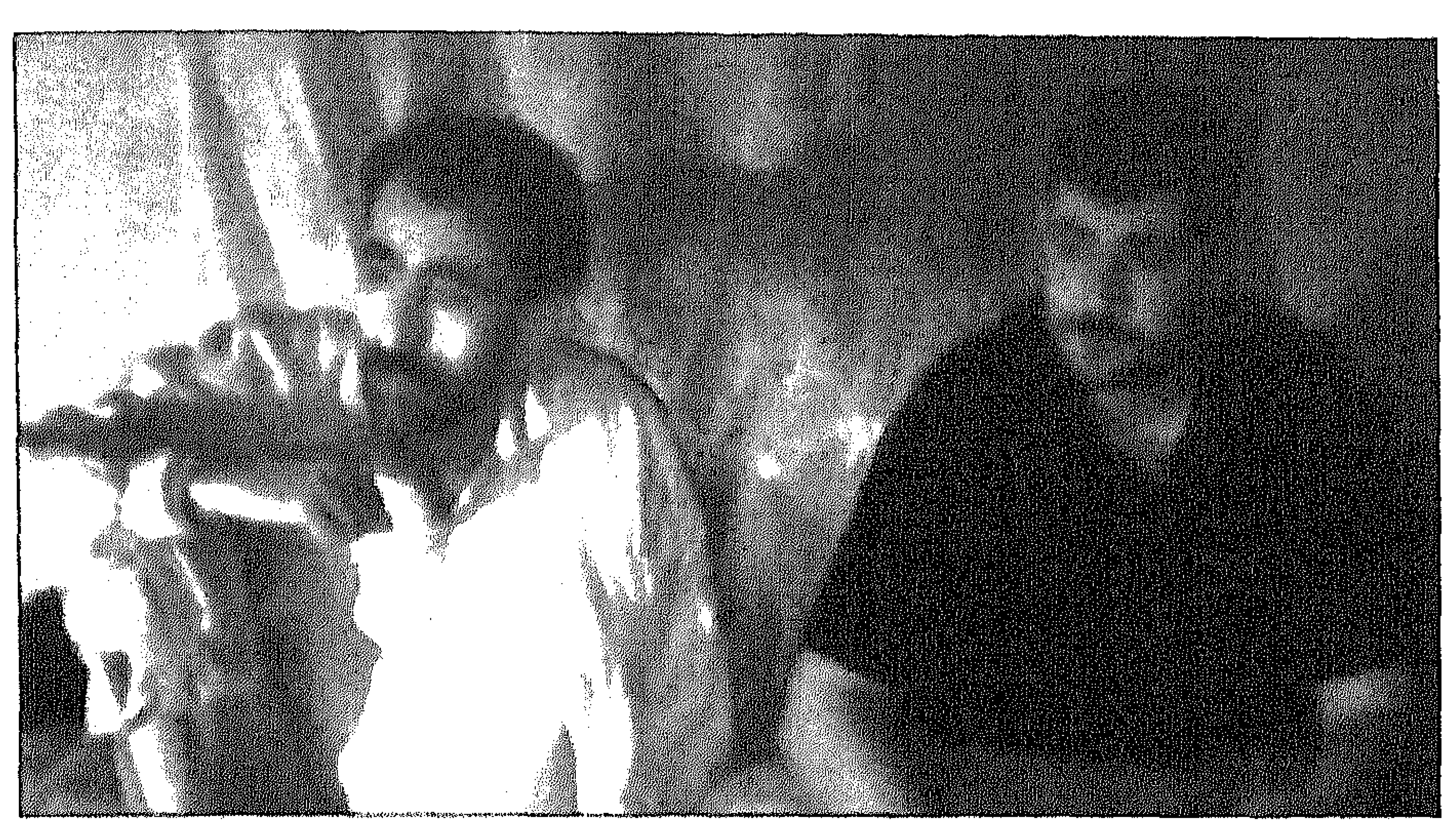
عُدي وأنا لدى المثلث السوري العراقي التركي.



اجتمـاع «الجيش الإسـلامي فـي العراق» الـذي رفضنا تصويره بأنفسـنا فصوروه هم لنا خصيصًا.



قبل لحظات من مرور حوامات مقاتلة فوق رؤوسـنا مباشـرة وعلى متن إحداها وزير الدفاع الأمريكي.



عُدي وأنا نستمع إلى تفاصيل الخطوة التالية بعد دقائق من عبور الحدود مع المهربين.



لحظة الوصول إلى الجانب الآخر من الحدود السورية العراقية.



أثناء عملية عبور الحدود السورية العراقية في خطى المجاهدين.



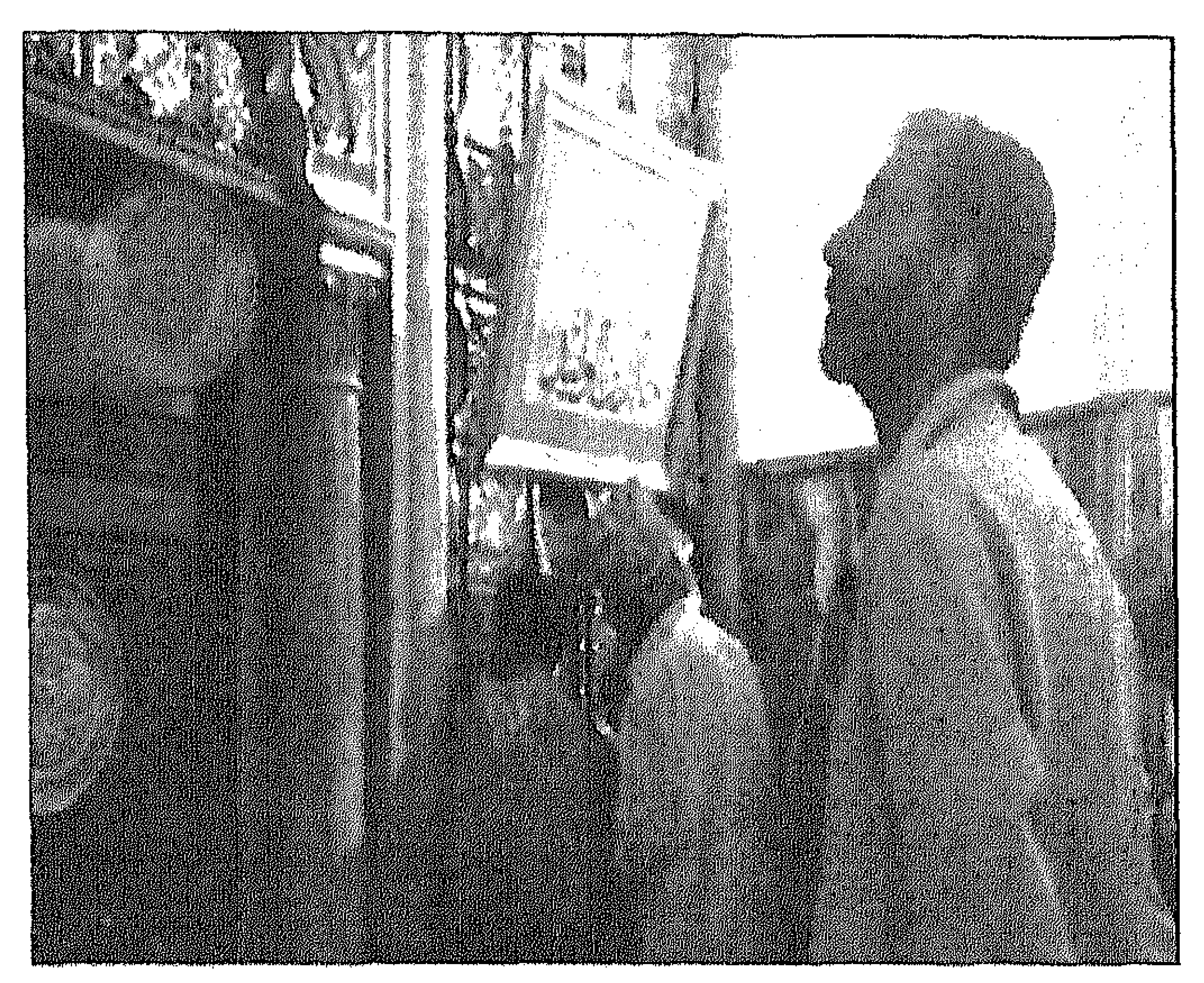
عُدي وأنا ووجبة ما قبل التوغل في مسالك مهجورة داخل العراق.

بسم الله الرحمن الرحيم

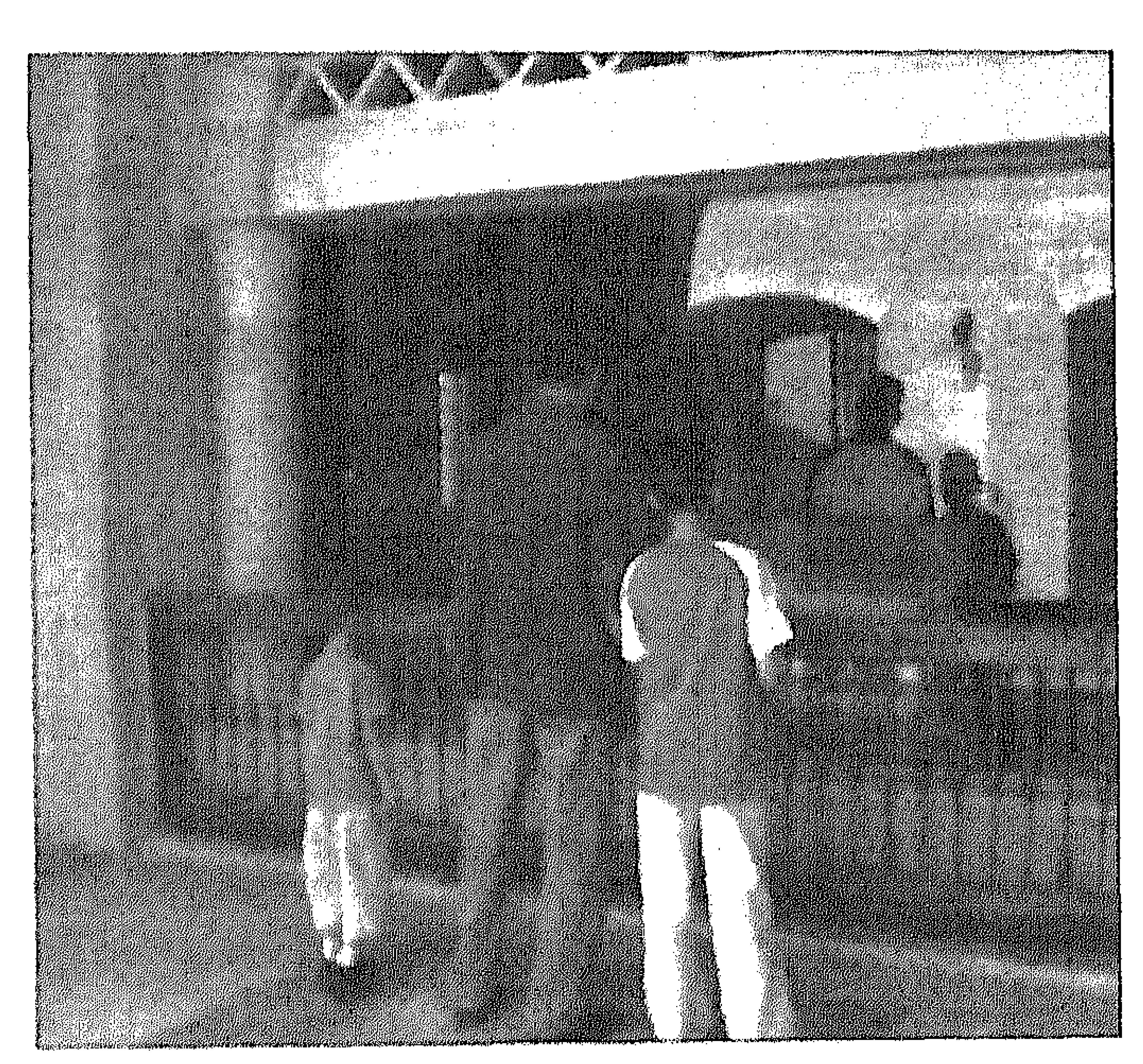
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الصفحة الأولى من رسالة أمير المجاهدين في الشيشان، «خطّاب»، إلى المجاهدين في بيلاروسيا.

الصفحة الثانية من رسالة «خطّاب» التي يطلب فيها اثنين من «الإخوة في لبنان.. للمشورة في عمل ما».



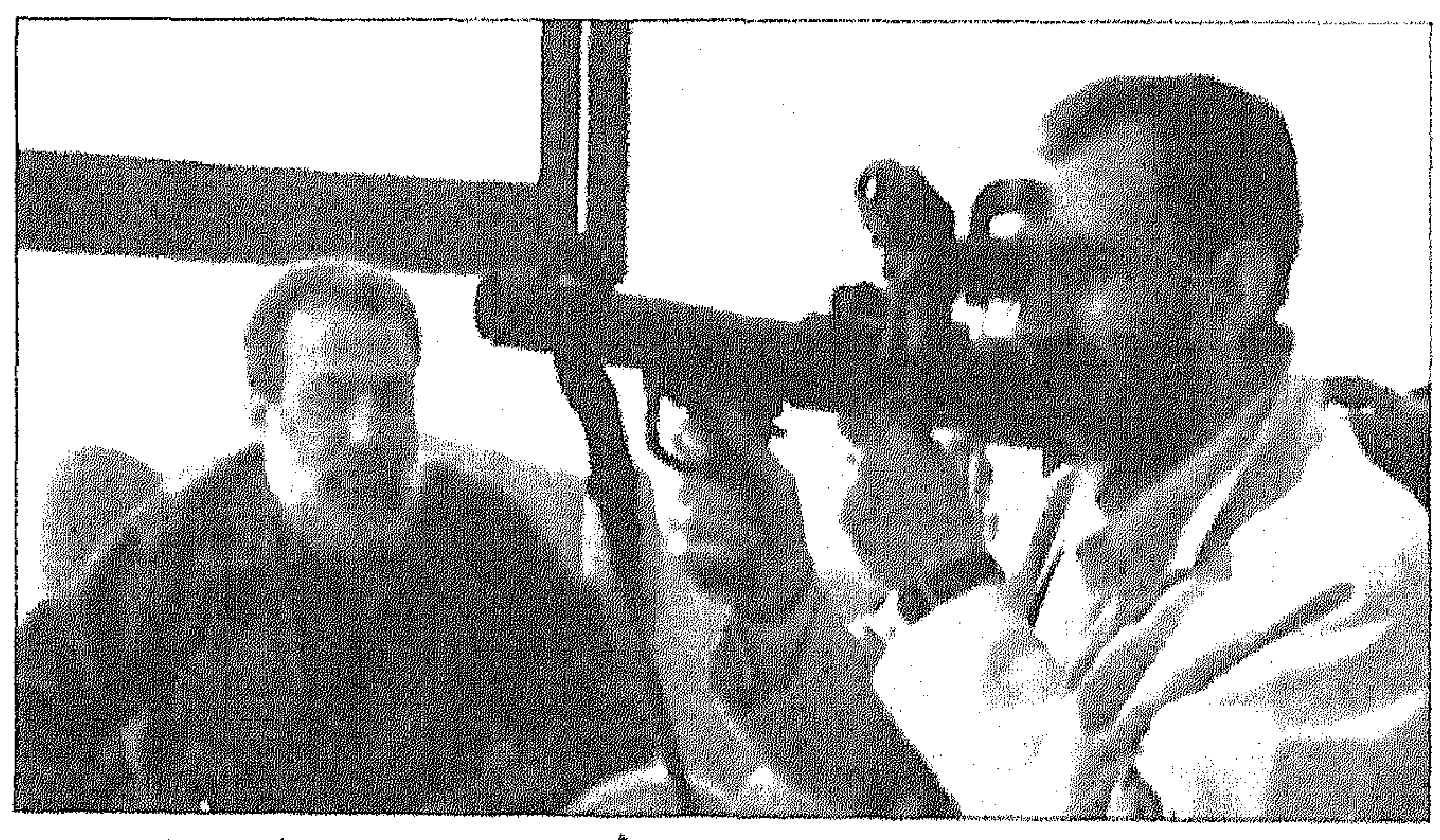
أمام ضريح خالد بن الوليد في حمص أثناء الرحلة من دمشق إلى الحدود العراقية.



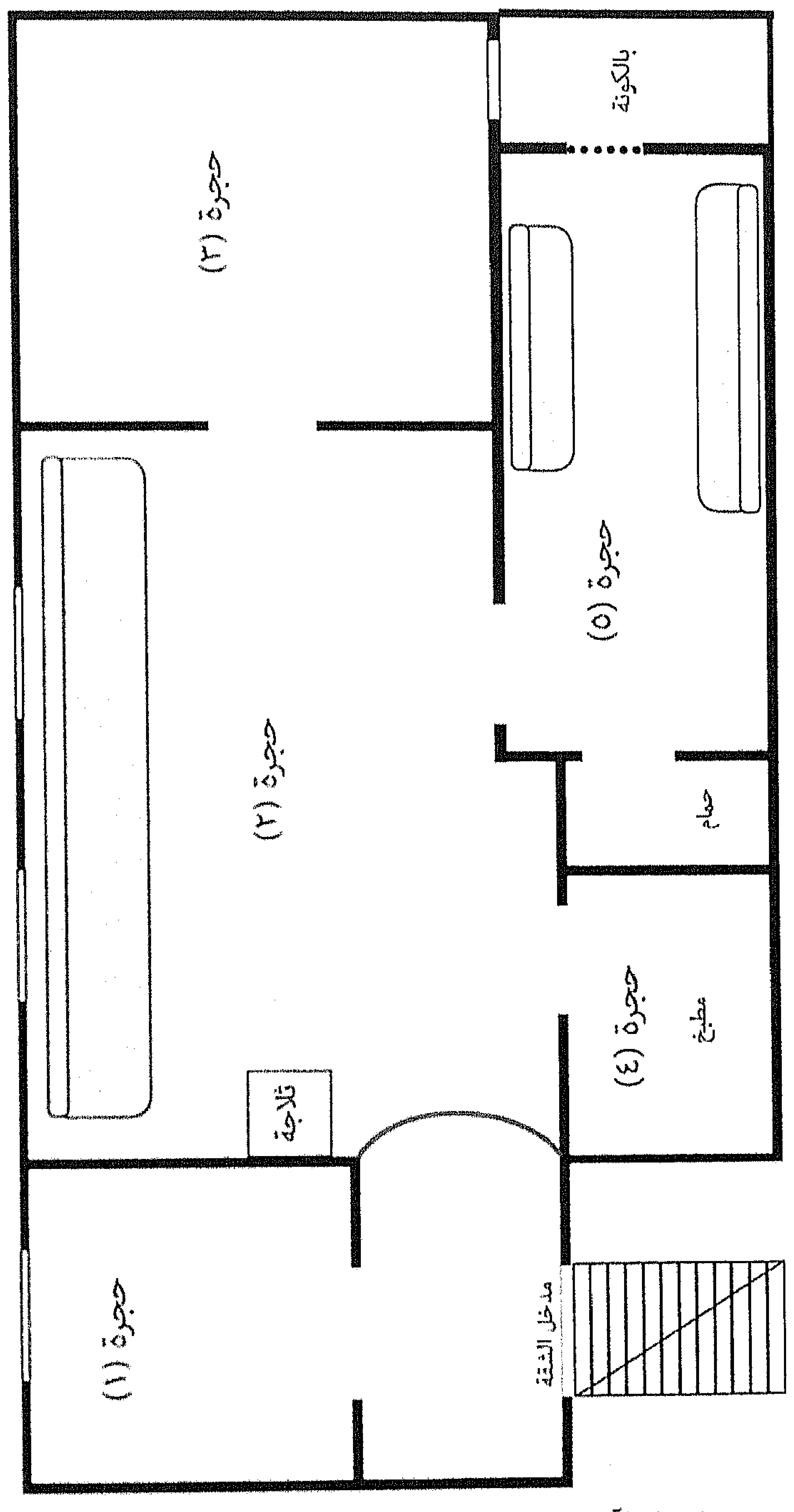
حذيفة، ابن مُعلم بن لادن، الشيخ عبد الله عزام، مع ولديه أمام ضريح أبو عبيدة بن الجراح قرب الحدود الأردنية الإسرائيلية.



صورة التقطت لي لاستخدامها في استخراج بطاقة هوية عراقية في إطار الخطة (أ) التي أُلغيت بعد ذلك.



عينة من ترسانة منير المقدح (مؤسس كتائب شهداء الأقصى) في مخيم عين الحلوة بلبنان.



المنزل الآمن في كراتشي حيث تم اللقاء مع زعماء القاعدة.

في طريق الأذى

يُعد يسري فوده رائد الصحافة الاستقصائية التلفزيونية في العالم العربي؛ فهو الصحفي الأول - والأخير - الذي أتيحت له فرصة اللقاء بالعقول المدبرة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول. ورغم مرور نحو ثلاثة عشر عامًا على ذلك اللقاء، فإن هذه هي المرة الأولى التي يجمع فيها قصته مع هذا السبق العالمي في كتاب باللغة العربية مع جانب من الحقائق والصور والمستندات. لكنه أيضًا يضيف إلى هذه التجربة الفريدة تجربة أخرى أكثر خطورة عندما عبر الحدود من سوريا إلى العراق مع مهربين في أعقاب الغزو الأمريكي. سوى ما تحمله هاتان التجربتان من قيم صحفية مهنية واضحة بأسلوب أدبي أخاذ، فإنهما أيضًا، مجتمعتين، تلقيان ضوءًا ساطعًا على طريق فهم تطور حركة الجهاد العالمي التي وصلت بداعش إلى ما وصلت اليوم إليه في خضم ما يوصف بالربيع العربي.

«منذ بداية قناة الجزيرة، استطاع هذا المحقق الصحفي المصري وحده ودون مساعدة من أحد، أن يكون رائدًا للصحافة الاستقصائية في العالم العربي. ألقت به تحقيقاته إلى أماكن مخيفة من العالم واعتُقل أكثر من مرة، لكنه دائمًا ما يعود».

- هيو مايلز

«لقد كانت بحوزة صحفي في قناة الجزيرة معلومات أثمن مما كان بحوزة قوى أعظم دولة في العالم مجتمعة وحلفائها».

- رون ساسكيند

يسري فوده: إعلامي مصري. حصل على البكالوريوس في الإعلام من جامعة القاهرة، والماجستير في الصحافة التلفزيونية من الجامعة الأمريكية في القاهرة (١٩٩٢)، ودرَّ[illegible]ني فيهما. التحق بالفريق المؤسس لتلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي [illegible] ثم بقسم الشرق الأوسط في تلفزيون وكالة أنباء أسوشيتدبرس، قبل أن يس[illegible]تب قناة الجزيرة في لندن، عام ١٩٩٦. فتح برنامجه «سري للغاية» آفاقًا جديد[illegible]ات الاستقصائية في العالم العربي، ونال عنه العديد من الجوائز. عاد إلى مص[illegible]اير وساهم من خلال برنامجه «آخر كلام» في صعود قناة «أون تي في»، وفي [illegible]ني للبرامج الحوارية.


9 789770 933145

دار الشروق
www.shorouk.com